شرح نهج البلاغة

السيد محمد كاظم القزويني الحائري

الجزء الثاني

المقدمة

[5]

بسم الله الرّحمن الرّحيم و به نستعين نحمدك اللّهم على ما أنعمت ، و نشكرك على ما ألهمت ، و نصلّي و نسلّم على نبيّك و حبيبك و أشرف خلقك محمّد و آله أصفيائك و أوليائك المقرّبين صدر الجزء الأول من هذا الكتاب ، و تهافت عليه روّاد الفضيلة و هواة العلم و الحقيقة ، و تلقيت في هذه المدة رسائل و كتبا من أرباب العلم و حملة الأدب تشجعني او تنتقدني على الكتاب .

و قد كنت اعلم قبل الخوض في ميادين التأليف أن من صنّف إستهدف .

فيكون هدفا للمدح و القدح ، و الثناء و النقد ، و ذلك لاختلاف الآراء و تفاوت الاذواق ، و قد قلت في مقدمة الجزء الأول و اقول الآن ايضا : إني اقبل كل نقد علمي أو أدبي أو تاريخي .

[6]

كان الانتقاد الموجه إلى : عدم ذكر المصادر و المدارك في الكتاب مما يتعلق بالقضايا التاريخية مع العلم أني ذكرت بعض مصادرها كالبحار و الارشاد و الاحتجاج و الغدير و المراجعات و شرح النهج لأبن ابي الحديد ، و النصرة للمفيد ، و نقلت من بعض الصحاح اقوال أئمة الحديث ، كما و اعتمدت على بعض كلام الطبري و ابن الاثير و البيهقي و غيرهم كما لا يخفى ذلك .

و لكن ما الفائدة من ذكر المصدر و المدرك ؟ فهذه مؤلفات اصحابنا في التوحيد و الامامة و الفقه و غير ذلك ، و قد احتوت تلك المؤلفات على ذكر المصادر من كتب المخالفين مع ذكر اسم الكتاب و الجزء و الصحيفة و محل الطبع و تاريخه ، كالكتب التي صدرت في هذه الايام ضد المبادىء الالحادية فهل افاد المعاند أو هل رجع الجاهل عن غيّه و جهله ، و هل استبصر الأعمى ؟ ؟ و من جملة الانتقادات الباردة التي توجهت إلينا : اننا في عصر احوج ما نكون فيه إلى الاتفاق و الوحدة ، و ان هذه الكتب تورث الأفتراق و الأختلاف بين المسلمين أقول : الوحدة بين المسلمين هي ضالتنا المنشودة ، و مأمولنا الوحيد ،

و مسؤلنا الوطيد ، و منتهى آمال الجميع ، و مطلوب كل مسلم مؤمن ، فهذا كتاب الله المرشد الأول الذي يدعو المسلمين الى الوحدة و يهتف بها ، بقوله تعالى : و إن هذه امتكم امة واحدة و انا ربكم فاعبدون ، و قوله عز و جل :

و اعتصموا بحبل اللّه جميعاً و لا تفرقوا ، و اذكروا نعمة اللّه عليكم إذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته ، اخواناً ، و قوله عز شأنه : و اطيعوا اللّه و رسوله و لا تنازعوا فتفشلوا و تذهب ريحكم ، و قوله تعالى : ان الذين فرّقوا دينهم و كانوا شيَعاً لست منهم في شيء ، انما امرهم الى اللّه ثم ينبئهم بما كانوا

[7]

يفعلون ، و قوله عز اسمه : و لا تكونوا كالذين تفرقوا و اختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، و اولئك لهم عذاب عظيم و قوله سبحانه : انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم ، و قوله عزّ من قائل : و ان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما إلى غير ذلك من الايات الكريمة التي تأمر بالوحدة و تنهي عن التفرقة ، لكنا نحن المسلمين نبذناها وراء ظهورنا من يوم وفاة النبي صلى الله عليه و آله و كذلك الاحاديث النبوية في هذا الموضوع لا تخفى على المسلمين ، و ما أحسن الاتحاد و ما انفع الانفاق و الوحدة للمسلمين لدينهم و دنياهم و آخرتهم ، و لكن . . .

و لكن اقول : و متى كان المسلمون متفقين متحدين ؟ ا في زمن النبي ام بعد وفاته ؟ أم في ايام الخلفاء الامويين و العباسيين ؟ فكيف تشكلت المذاهب الأربعة بعد أن تلخصت من مذاهب كثيرة مختلفة ؟ ، و كيف تشعبت الفرق الاسلامية فالاشاعرة و المعتزلة و الخوارج و النواصب ، و كل منهم على طرائق مختلفة و مذاهب متشتة ، كالمذاهب التي تشكلت و تكوّنت كالزيدية و الاسماعيلية من البهرة و الاغاخانية و الشيخية و الكشفية و غيرهم من المذاهب ، و قد قال رسول الله صلى الله عليه و آله في حديث متفق عليه بين المسلمين . . . و ستفترق أمتي على ثلاث و سبعين فرقة فرقة في الجنة و الباقون في النار .

ثم ليت شعري و ليتني كنت أدري أن قادة الاصلاح و هواة الاتحاد و الاتفاق ما يقصدون من هذه الكلمة ؟ و فيمن يريدون تطبيق هذا المعنى ؟ أ في البلاد الاسلامية و الوضع كما نرى أم في البلاد العربية و الحالة كما نشاهدها ؟ أم في قطر خاص و حكومة خاصة مع كثرة الأحزاب و المبادىء الباطلة بين المسلمين ؟

[8]

فانك لا ترى أربعة أشخاص في عائلة واحدة في بيت واحد إلا و كل واحد من الأربعة على مبدأ غير مبدأ أصحابه ، يدعو له و يكافح غيره ، و لا تسأل عن القوميات و المعارك حولها فلا ترى إلا واترا أو موتورا ، فهل يريدون ايجاد الوحدة بين البهائم و السباع بين الذئب و الغنم و الهر و الفار ؟ ؟ و هنا سؤال آخر : و هو أن الانبياء و المرسلين المؤيدين من الله تعالى ما استطاعوا إيجاد الوحدة بين الناس ، و حتى رسول الله صلى الله عليه و آله مع قوة نفسه ، و كرم أخلاقه ، و وفور عقله و قدرته ، و إتصاله بالمبدء الأعلى ما تمكن من توحيد الكلمة في امته ، و كلما صرح القرآن الكريم بقوله تعالى : يا ايها الناس : انا خلقناكم من ذكر و انثى ، و جعلناكم شعوباً و قبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله اتقاكم . و مع ذلك كله كان بعض الصحابة يتفوه بالقومية ، حين ما دخل على رسول الله صلى الله عليه و آله فوجد عنده سلمان فقال الرجل : من هذا الأعجمي المتصدر علينا ؟ و بعد وفاة رسول الله قالوا : منا أمير و منكم أمير . إلى ان تشكلت قضايا السقيفة و هلم جرا ، فالشيء الذي عجز عنه الأنبياء و الخلفاء و النوابغ و السلاطين هل يستطيع قادة الاصلاح الذين يهتفون بالوحدة ، و يعتبرون انفسهم اقوى من الانبياء ، و ان كلامهم آثر في النفوس من الوحي الالهي و من كلام الانبياء ان يوحّدوا صفوف المسلمين ؟ ثم كيف يمكن تحقق الوحدة الاسلامية و عادتها قد أخذوا المعاول بأيديهم و اهووا على قبور ائمة الشيعة في البقيع ، و حافظوا على قبور ائمتهم ليكون ذلك قاعدة لبث التفرقة و العداء و الانشقاق في صفوف المسلمين ؟ ؟

ثم الآن هل في العالم شرقا و غربا حكومة أو أمة استطاعت توحيد كلمتها

[9]

بجميع معنى الكلمة ؟ فهذه امريكا التي تدعي أنها ارقى البلاد ثقافة و حضارة .

و مع ذلك ترى الفرق الكثير في الشعب الامريكي بين الأسود منهم و الأبيض ،

فالأسود محروم من حق الانتخابات و ليس له أن يتصدر مسند الحكم و القضاء ،

و مدارس الزنوج تفرق عن مدارس غيرهم ، و كذلك انديتهم و فنادقهم و ختاما : هل هذه الكتب التي تتطرق إلى وقائع تاريخية مذكورة في كتب تواريخ الفريقين تورث التفرقة و الاختلاف ؟ نعم ، و لكن تلك الكتب المسمومة المأجورة التي ملأت اسواق المسلمين من رائدي الاصلاح ، و مراشد الامة الاسلامية التي تمس بكرامات الشيعة و مقدساتهم فلا بأس بها و هنالك لفيف منهم قام باعادة طبع تلك الكتب لاثارة دفائن الفتن و الاحقاد و اليك اسماء بعض تلك الصحائف المسودة : الصواعق المحرقة ، لابن حجر ،

مختصر منهاج السنة ، لابن تيمية مختصر تحفة الاثنى عشرية ، للآلوسي ، التمهيد ، للباقلاني ، المغني للقاضي عبد الجبار المعتزلي ، ابو سفيان ، محمد الحفناوي و غيرها .

أضف إلى ذلك كتاب : الامام الصادق لابي زهرة و كتاب : الحديث و المحدثون لابي زهوه ، و امثالها من الكتب التي ما كتبت و ما طبعت و ما اعيد طبعها و ما نشرت الا خدشا لعواطف امة مسلمة كبيرة ، و مسّا بكرامتهم ،

و المقالة الموجهة اخيرا المنشورة في احدى الصحف الحجازية التي ملأها السب الشنيع و الذم القبيح و التكفير لامة اسلامية تشهد الشهادتين ، و ذنبها الوحيد حب اهل بيت رسول الله صلى الله عليه و آله ، و التمسك بولائهم و اخذ معالم الاسلام منهم تشهد بصدق ما ذكرنا .

فهل هذه النعرات لا مانع منها ، و لا توجب الافتراق ، و لا تورث العداء و الشحناء في قلوب مائة مليون شيعي ؟ ؟

[10]

ثم إن حرية الاديان التي شملت جميع الملل في العالم ، و سمحت لهم بالتبليغ و التبشير و الدعاية لدينهم كاليهود و النصارى و سائر الاديان كما نرى و نشاهد معابدهم و مدارسهم فى بلاد الاسلام ، و كتابهم المقدس المحرّف قد ترجم بجميع اللغات الحية ، و اذاعتهم لا تخلو من التبليغ ، و صحفهم قد انتشرت في بلاد القرآن ،

ا ما تسمح هذه الحرية الشاملة للكل لامة مسلمة ان تتظلم لأهل العالم ،

و تعرّف لهم عظمة أوليائها و قداسة عظمائها ، و جلالة قدرهم و عظم شأنهم و شرف منزلتهم و سمو مكانتهم و علو درجتهم عند الله ؟ ا ما آن للشيعة ان تصرخ من آلامها ؟ ا ما يسمح لها ان ترفع الشكوى الى اهل العالم ؟ و الى متى تبقى تحت اغلال الخمول و التقية ؟ و الحق معها ، و القرآن يصدق كلامها ، و رسول الله صلى الله عليه و آله يؤيدها و الاسلام ما ظهر و ما قام الا بها ، و الثروة العلمية الاسلامية عندها ، و اوصياء رسول الله و خلفائه الاثنا عشر حماة الدين ولاتها ، و الى متى تبقى مضطهدة ؟ فقد بقيت اربعة عشر قرنا تحت اثقال الظلم و الحرمان ، تبكي على حالها و تصرخ من الضغط الشديد الذي اصابها ؟

مع العلم ان كتّاب الشيعة من المؤلفين ما زالوا و لا يزالون يراعون التحفظ على العواطف ، و يواظبون على أدب القلم ، و يحترمون مقدسات الامم الاسلامية ،

فلا يكتبون الا تحت ظلال الدليل و الحجة بكل عفة و ادب ، و لو ارادوا خدش العواطف لاستطاعوا ، و هاك مثالا :

ذكر الخطيب البغدادي و هو من اعاظم علماء العامة في تاريخ بغداد في حرف النون ، في ترجمة نعمان بن ثابت و هو الامام الاعظم ابو حنيفة اخبارا تجعله اضل من ابليس و اكفر من فرعون ، فراجع حتى تعرف ، الى غير ذلك من الامور التي اعرضت الشيعة عن ذكرها و نقلها من المصادر الموثوقة عند العامة حفظا للعواطف .

[11]

و اخيرا لعلك ايها القاريء تظن : اني ممن يحب التفرقة بين المسلمين ، او يكره الوفاق و الوحدة بينهم ، و حاشاك ان تظن ذلك ، فان الكلام ذو وجوه ،

فالاتحاد و الوحدة احسن شيء للمسلمين و اصلح دواء و علاج لمشاكلهم الدينية و الدنيوية ، و لكنه مستحيل الا بقوة قاهرة و سيف صارم يخضع له جميع طبقات البشر ،

فان يكن هناك امل و رجاء فهو في ايام دولة المصلح الاكبر و المنقذ الاعظم الخليفة الفاطمي العلوي ، الامام الثاني عشر سيدنا و مولانا المهدي بن الحسن عليهما السلام الذي ينتظر اذن ربه حتى يملأ الأرض قسطا و عدلا اللهم عجل فرجه ، و اصلح به كل أمت و عوج ، و أنقذ عبادك المسلمين من اعدائهم ليعيشوا سعداء تحت ظل كتابك المجيد ، و تعاليم رسولك الأقدس الاعظم ، و توجيهات اوصيائه الأصفياء الطاهرين انك سميع الدعاء قريب مجيب .

كربلاء المقدسة : السيد محمد كاظم ابن المرحوم آية الله السيد محمد ابراهيم القزويني الموسوي الحائري

[12]

بسم الله الرّحمن الرّحيم

بقايا الخطبة السادسة عشر

من الجزء الاول :

القسم الثاني

المتن

أ لا : و إنّ الخطايا خيل شمس ، حمل عليها أهلها ، و خلعت لجمها ، فتقحّمت بهم في النّار ، أ لا : و إنّ التّقوى مطايا ذلل ،

حمل عليها أهلها ، و أعطوا أزمّتها ، فأوردتهم الجنّة ، حقّ ، و باطل ،

و لكلّ أهل ، فلئن أمر الباطل فلقديما فعل ، و لئن قلّ الحقّ فلربّما و لعلّ ، و لقّلما أدبر شيء فأقبل .

المعنى

انتقل الامام امير المؤمنين عليه السلام من كلامه السابق الى الترهيب عن المعاصي ، و الترغيب في التقوى ، و اشار الى نتيجة الذنوب و فوائد التقوى ، فقال :

« ا لا و ان الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها ، و خلعت لجمها ، فتقحمت بهم

[13]

في النار » شبه الخطيئة بحصان شموس ، قد نزعوا لجامه من فمه ، و شبه الخاطىء العاصي براكب ذلك الحصان ، فاذا ركب انسان على فرس صعب يمنع ظهره عن الركوب ، و لا يطيع راكبه ، و ليس له لجام و لا عنان ، ما ترى يصنع هذا الفرس براكبه اذا غار ؟ هل يمكن للناس ان يدركوا الراكب ؟ و هل يتمكن الراكب من حفظ نفسه و ايقاف ذلك الفرس ؟ ا ليست نتيجة ذلك الركوب هو السقوط و الهلاك ؟ كذلك الذنوب تورد المذنب الى عذاب الله و عقابه ثم قال عليه السلام : « ا لا و ان التقوى مطايا ذلل ، حمل عليها اهلها ، و اعطوا ازمتها فأوردتهم الجنة » شبه عليه السلام التقوى بالناقة الذليلة المطيعة المنقادة ،

التي عليها زمام ، و الزمام : الخيط الذي يشد به الخشاش ، و الخشاش : العود الذي يجعل في انف البعير ليكون اسرع لانقياده ، و شبه المتقي براكب تلك الناقة ، (و اعطوا) لهذه الجملة وجهان : احدهما بناء على المجهول ، اي الذي اركبهم اعطاهم زمام تلك الناقة ، و الوجه الثاني بناء على المعلوم ، اي الراكبون اعطوا مطاياهم زمامها ، لأن الراكب يطمئن من تلك الناقة الذليلة ، و لا يخاف على نفسه من الوقوع في التهلكة ، و كذلك الانسان المطيع يمنعه تقواه عن ارتكاب القبائح و يوصله الى الجنة .

مثّل الامام عليه السلام هذين المثالين رعاية لأذهان اهل زمانه ، و التمثيل و التشبيه المناسبان لهذا العصر : ان الخطايا كالسيارة او الدراجة او غيرها من المحركات البخارية ، يركبها سائقها و قد انقطعت منها آلة التوقيف (بريك) و آلة الاستدارة المسماة بالسكان ، فهي تسير من غير اختيار من السائق ، و لا يتمكن السائق من توقيفها و امالتها و ادارتها او اطفائها ، فترى السيارة او غيرها تصادم جبلا او تقع في حفرة ، او تسقط في واد ، او تصادف شيئا آخرا ، و نتيجة الاصطدام معلومة واضحة

[14]

و كذلك التقوى ، إلا أن آلة التوقيف قوية مضبوطة ، و كذا آلة الادارة فمتى اراد السائق ايقاف السيارة او تخفيض السرعة او غير ذلك تمكن من ذلك بواسطة تلك الآلة القوية .

(حق و باطل و لكل اهل) أي الأمور حق و باطل ، او هنا حق و باطل ،

او التقوى و الخطايا حق و باطل ، أو الامام حق و باطل ، كما صرح بذلك القرآن الكريم بقوله تعالى : فمنهم أئمة يدعون الى النار و لكل واحد من الامامين أهل و أتباع (فلئن أمر الباطل فلقديما فعل) اي ليس هذا بشيء جديد أن يتقوى الباطل ، فانه لم يزل الباطل كثيرا في كل زمان ، و أهل الباطل أكثر من أهل الحق ، و ليست كثرة الباطل بشيء جديد حتى يستدل بها على حقيّة اهل الباطل .

(و لئن قل الحق فلربما و لعل) أي لئن قل الحق و أهله ، فلربما يعود و يكثر و يغلب ، و لعل أهل الحق يزدادون و يكثرون ، و يمكن ان يقال : إنه عليه السلام أشار بكلامه الى دولة الامام الثاني عشر المهدي بن الحسن عليهما السلام ، (و لقلما أدبر شيء فأقبل) اشارة الى استبعاد رجوع الحق الى الكثرة و القوة بعد الضعف و القلة ، و ذلك بسبب نقصان اهل الحق ، و لعل له معنى غير هذا .

و قد أطرى سيدنا الرضي ره لهذه الخطبة من الناحية الادبية و مزاياها من جهة الفصاحة و البلاغة ، اذ ان كل جملة منها مستقلة بنفسها ، محتملة لمعاني و وجوه ، و مشتملة على فنون الكلام ، من الوعظ و الانذار ، و الاخبار عما يأتي ، و التشبيه الحسن ، و غير ذلك مما هو خارج عن عهدة القلم ، و ليس ذلك

[15]

بعجيب ، فهذا الكلام فوق كلام المخلوق و دون كلام الخالق .

و الى هنا انتهى الكلام عن بقايا الخطبة (السادسة عشر) .

القسم الثالث

و من هذه الخطبة

المتن

شغل من الجنّة و النّار أمامه ، ساع سريع نجا ، و طالب بطيء رجا ، و مقصّر في النار هوى ، اليمين و الشّمال مضلّة ، و الطّريق الوسطى هي الجادّة ، عليها باقي الكتاب و آثار النّبوة ، و منها منفذ السّنّة ، و إليها مصير العاقبة ، هلك من إدّعى ، و خاب من إفترى ،

من أبدى صفحته للحقّ هلك ، و كفى بالمرء جهلا أن لا يعرف قدره ، لا يهلك على التّقوى سنخ أصل ، و لا يظمأ عليها زرع قوم ، فاستتروا في بيوتكم ، و أصلحوا ذات بينكم ، و التّوبة من ورائكم ، و لا يحمد حامد إلاّ ربّه ، و لا يلم لائم إلاّ نفسه .

اللغة

الصفحة : الجانب . و السنخ من كل شيء : اصله

« شغل من الجنة و النار أمامه » كل فرد من افراد البشر حتى

[16]

الجنين اذا سقط عن بطن امه لا بد أن يؤول أمره و يكون مصيره اما الى الجنة و اما الى النار ، فالجنة و النار أمام كل احد ، فينبغي لكل من كان هكذا أن يكون مشغولا بهاتين المرحلتين الأخيرتين ، فيجد و يجتهد في انقاذ نفسه من النار ، و يسعى و يعمل في طلب الجنة ، فمن زحزح عن النار و أدخل الجنة فقد فاز « ساع سريع نجا ، و طالب للحق رجا ، و مقصر في النار هوى » قسم عليه السلام الناس الى ثلاثة اقسام : القسم الأول : هو الذي يسعى في تحصيل الجنة ،

و يسرع في النجاة من العذاب .

و القسم الثاني : هو الذي يطلب رضوان الله تعالى ، و لكنه بطيء في عمله و سيره ، و لكن يرجو رحمة ربه .

و القسم الثالث : هو المقصر الذي يعلم الحق و لا يتبعه ، و يعرف الباطل و لا يتركه فهو مقصر لا يقبل منه العذر ، فبسبب التقصير سقط في نار جهنم ،

و قد صرّح القرآن الكريم بهذا التقسيم ، و وردت الاحاديث ايضا في تفسير تلك الآيات الشريفة .

« اليمين و الشمال مضلة . و الطريق الوسطى هي الجادة » الجادة : الطريق المستقيم ، و السبيل : كل طريق و ان لم يكن مستقيما ، و المقصود أن الانسان اذا انحرف عن الطريق يمينا او شمالا يضل عن السبيل ، و لا يصل الى مطلوبه و مقصوده ، و الطريق الذي يوصل الانسان الى مراده هو الطريق المستقيم ، و اما قوله عليه السلام : و الطريق الوسطى . فقد ذكر الطريحي في مجمع البحرين : عن الأخفش : اهل الحجاز يؤنثون الطريق و الصراط و السبيل ، و السوق و الزقاق ،

و بنو تميم يذكرون هذا كله .

[17]

و يمكن ان يكون المراد بالطريق الوسطى هو طريق آل محمد و ولايتهم ،

و اليمين و الشمال طريق الغالين و القالين ، لأن طريق الولاية هو الوسط بين الجانبين : جانب الغلو و هم القائلون بألوهية علي عليه السلام ، و جانب العداوة و النصب ، و هم الخوارج و النواصب و أمثالهم من اعداء اهل البيت المنحرفين عن ولايتهم .

و الدليل على ان المقصود من الطريق الوسطى هو طريق آل محمد و ولايتهم قوله عليه السلام : « عليها باقي الكتاب » و في بعض النسخ . (عليها ما في الكتاب) اي على تلك الطريقة كل ما في القرآن ، و بناء على الأول عليها باقي الكتاب اي الكتاب الباقي بين الامة ، الذي تركه رسول الله صلى الله عليه و آله بين أمته ، و لا شك أن القرآن نزل في بيت آل محمد ، و اهل البيت ادرى بما في البيت ، فهم اعلم بجميع خصوصيات القرآن و علومه و فنونه و تفسيره و تأويله ،

و سائر أقسامه « و آثار النبوة » اي على تلك الطريقة آثار رسول الله صلى الله عليه و آله من الوصاية و الولاية و الوراثة و الخلافة ، و عندهم مواريث الانبياء كما تقدم في الجزء الاول .

« و منها منفذ السنة » أي من تلك الطريقة تخرج السنة النبوية ، و تطلع الشريعة الأحمدية الصحيحة ، و تنتشر الأحكام الاسلامية و التعليمات و القوانين الشرعية ، كما هو واضح ، فهذه مئآت الكتب مشحونة مملوءة باحاديثهم و

آثارهم من الروايات التي رويت عنهم في كل ما يتعلق بالأصول و الفروع ، من الواجبات و المحرّمات ، و المستحبات و المكروهات ، و المباحات ، و الأخلاقيات و الاجتماعيات و الاقتصاديات ، و جميع انحاء الحياة الاجتماعية و قد اشرنا إشارة اجمالية الى ذلك

[18]

في كتابنا الموسوم . (الاسلام و التعاليم التربوية) 1 و لعلنا نلتقى بالقراء الكرام بهذا الموضوع في غير هذا الكتاب ان شاء الله تعالى .

« و اليها مصير العاقبة » اي إلى آل محمد عليهم السلام مصير عواقب الخلق ،

فان الناس لا يدخلون الجنة الا بعد الاعتقاد بولاية آل محمد ، و عواقب الخلق و مصيرهم بيد آل محمد ، كما في الاحاديث المتواترة عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل أنه قال . . . اقول للنار . هذا عدوي فخذيه ، و هذا وليي فذريه ، و قال رسول الله صلى الله عليه و آله . كأني بك يا علي و بيدك عصا عوسج تسوق قوما الى الجنة و قوما الى النار . و لعلك تظن أن هذا مما تفردت به الشيعة و سلكت سبيل الغلو و المغالاة في حق أهل البيت ؟ فهذا ابن أبي الحديد صرّح بهذا الاعتقاد في قصيدته العلوية التي يقول فيها مخاطبا لأمير المؤمنين عليه السلام .

(لي فيك معتقد سأكشف سره
فليصغ ارباب النهى و ليسمعوا

و الله لو لا حيدر ما كانت الد
نيا و لا جمع البرية مجمع

و اليه في يوم المعاد حسابنا
و هو الملاذ لنا غدا و المفزع

هذا اعتقادي قد كشفت غطائه
سيضر معتقدا له أو ينفع)

و الأحاديث المروية عن رسول الله صلى الله عليه و آله و عن أهل بيته الطاهرين المذكورة في كتب الفريقين كثيرة جدا ، و لا مجال لذكرها الآن .

« هلك من ادّعى و خاب من افترى » لما كان هذا الكلام مسوقا في ما يتعلق بالخلافة و الخلفاء ، و كلامه عليه السلام كله كنايات عن الامامة ، لا عن

----

(1) صدر في سلسلة منابع الثقافة الاسلامية التي تصدر في كربلاء المقدسة بإشراف جماعة من رواد العلم و الفضيلة

[19]

غيرها ، و لهذا يمكن ان نقول : ان المقصود من (هلك من ادعى) اي هلك من ادعى الامامة بغير استحقاق ، و خاب من افترى في ادعاء الخلافة لنفسه كذبا .

فهذا دعاء منه عليه السلام على متقمّصي الخلافة كذبا و زورا ، دعاء عليهم بالهلاك و الخيبة و الحرمان من ثواب الآخرة ، او اخبار منه عليه السلام على مدعي الامامة و الخلافة من غير استحقاق .

« من أبدى صفحته للحق هلك » و في بعض النسخ : عند جهلة الناس .

أي من اظهره جانبه للحق هلك عند جهال الناس ، و المقصود من هذا الكلام نفسه عليه السلام ، و المعنى ان الانسان اذا اراد اظهار الحق في مقابلة الباطل ،

و مكافحة الجهال ، بأن يكلفهم الحق ، و يحمّلهم على صعوبته و مرارته ، يكون معرضا للهلاك ، لأن الناس لا يسكتون عمن يزاحمهم في منافعهم ، و يعاملهم بما لا تشتهي انفسهم لانهم العامة و فيهم الكثرة الا اذا عجزوا عن المقاومة بسبب ضعفهم و قوة خصمهم ، كل حكومة او أمة اذا تجردت لاظهار الحق و العدل لا يستقيم امرها ، و تكثر فيها الفتن و المؤامرات .

و كذلك كل حكومة او دولة اذا تجرّدت للباطل و الظلم فان مصيرها الانقراض و الانهيار ، الا اذا كانت ذات قوة قاهرة تقضي على كل مخالف معارض ، و انما يستقيم الامر و يتم اذا كان الحق ممزوجا بالباطل ، و العدل مشوبا بالظلم ،

و اليك الحديث المفسر لما نحن فيه :

في زهر الربيع للجزائري ره : سئل الامام الصادق عليه السلام ، عن الخلفاء الاربعة بعد رسول الله صلى الله عليه و آله : ما بال الشيخين قد انتظمت لهما امور الخلافة ، و جرت على أيديهم فتوح البلاد من غير معارضة احد من المسلمين ؟ و ما بال عثمان و أمير المؤمنين عليه السلام لم ينتظم لهما امور الخلافة ؟ بل قامت المسلمون

[20]

على عثمان و حصروه في داره ، و قتلوه في وسط بيته ، و أما أمير المؤمنين عليه السلام فثارت الفتن في زمن خلافته حتى قتل الناكثين و القاسطين و المارقين ؟ ؟

فاجاب عليه السلام : أن امور الدنيا و الخلافة فيها لا يجري بباطل بحت محض و لا بحق خالص ، بل يجري بحق و باطل ممزوجين فاما عثمان فاراد ان يجري امور الخلافة بمحض الباطل فلم يتم له الأمر .

و اما أمير المؤمنين عليه السلام فأراد ان يجري احكامها على الطريقة المستقيمة و السنن النبوية فلم يحصل له ما اراد و اما الشيخان فأخذا قبضة من الحق و قبضة من الباطل فجرت لهما الأمور كما أرادا .

و يحتمل ان يكون المعنى : من خاصم الحق و عارضه هلك « و كفى بالمرء جهلا ان لا يعرف قدره » لهذه الجملة احتمالان : الاول : كفى بالمرء جهلا ان يطلب فوق قدره و درجته ، كالجاهل يعرف نفسه عالما و الفاسق مؤمنا ، و الوضيع شريفا و هلمّ جرا الى ان يعرف الانسان نفسه خليفة و هو لا يعرف معنى الأب و هكذا .

و الثاني ان ينزل نفسه دون ما هي . فالشريف يجالس الأوباش ، و المؤمن يعاشر الفساق و لكن الظاهر ان المقصود هو الاحتمال الاول ، فيكون المراد الاشخاص الذين تقمّصوا الخلافة و هم يعلمون انهم ليسوا بأهلها ، و الذين ادّعوا الامامة و هم يعرفون انفسهم بعدم لياقتهم و كفائتهم لها « لا يهلك على التقوى سنخ اصل » اي كل عمل كان بناؤه و اساسه على

[21]

التقوى لا يهلك و لا يضمحل ما دام بنيانه قائما على أصول الموازين الشرعية و الأحكام الالهية .

« و لا يظمأ عليها زرع قوم » لما كان الزرع انما يبقى بالماء ، فاذا لم يصل إليه الماء الكافي فسد و ذبل و اصفرّ ، كذلك كل مشروع اذا تأسس على التقوى لا يحتاج الى الماء لادامة حياته و ابقائه ، و كذلك كل عمل و بناء و

مشروع تأسس على الظلم و الجور ، او المعصية لا يدوم ذلك البناء بل لا تنقضي الأيام و الليالي أو الاعوام إلا و تنهدم و تنهار ، و اليك مثالا من القرآن الكريم شاهدا لما نحن فيه .

قال المفسرون : ان بني عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قباء بضم القاف و هو موضع بقرب المدينة المنورة من جهة الجنوب ، فلما فرغوا من بنائه بعثوا الى رسول الله صلى الله عليه و آله ان يأتيهم ، فأتاهم النبي ، و صلى في مسجدهم ،

فحسدهم جماعة من المنافقين من بني غنم بن عوف فقالوا : نبني مسجدا فنصلي فيه ،

و لا نحضر جماعة محمد ، و كانوا اثنى عشر رجلا ، و قيل . خمسة عشر ، فبنوا مسجدا الى جنب مسجد قباء ، فلما فرغوا منه اتوا رسول الله صلى الله عليه و آله و هو يتجهز الى تبوك ، فقالوا : يا رسول الله : إنا قد بنينا مسجدا لذي العلة و الحاجة و الليلة المطيرة و الشاتية ، و انا نحب أن تأتينا فتصلي فيه لنا ، و تدعو بالبركة .

فقال رسول الله صلى الله عليه و آله . اني على جناح السفر ، و لو قدمنا اتيناكم ان شاء الله ، و صلينا لكم فيه « فلما انصرف رسول الله من تبوك نزلت

عليه الآيات في شأن المسجد : و الذين اتخذوا مسجداً ضراراً و كفراً و تفريقاً بين المؤمنين ، و إرصاداً لمن حارب الله و رسوله من قبل ، و ليحلفن إن أردنا إلا الحسنى و الله يشهد انهم لكاذبون . لا تقم فيه أبداً ، لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق ان تقوم فيه ، فيه رجال يحبّون ان يتطهروا و الله يحب المطهّرين ، أ فمن أسس بنيانه على تقوى من الله و رضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار ؟ فانهار في جهنم و الله لا يهدي القوم الظالمين 1 فبعث رسول الله صلى الله عليه و آله عمارا و وحشيا و قال لهما : إنطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدما و حرّقاه . و أمر ان يتخذ كناسة يلقى فيه الجيف فالمستفاد مما تقدم : أن عمل المؤمن المتقي ثابت مستقيم مبني على أصل صحيح ثابت و عمل المنافق ليس بثابت بل ساقط في نار جهنم ، و المقصود : ان أمير المؤمنين عليه السلام يقول هنا : إن أعمالي و افعالي على أسس التقوى العدالة الالهية ، فلا اخاف من المخالفين المعارضين ، و خاصة اذا علمت و تيقنت أن تلك الافعال هي ما أمر الله تعالى بها .

« فاستتروا في بيوتكم ، و اصلحوا ذات بينكم ، و التوبة من ورائكم حيث ان هذه الخطبة هي اول خطبة خطب بها امير المؤمنين عليه السلام بعد ما بويع له بالخلافة بعد مقتل عثمان ، كما تقدم الكلام في صدر الخطبة في الجزء الاول ، و خاصة هذه الجملات فانها مسبوقة بقوله عليه السلام : (ان الله داوى هذه الامة بدوائين : السوط و السيف ، لا هوادة عند الامام فيها ، فاستتروا في بيوتكم و اصلحوا ذات بينكم و التوبة من ورائكم . . الخ) و هذا يمكن ان

----

(1) سورة التوبة

نقول : ان هذه الجملات إنذار و تهديد لكل من يخالف حكم الله عز و جل ،

فكأنه عليه السلام أمرهم بالهدوء و مراعات النظام و عدم الاخلال بالامن العام و الاعتزال من إثارة الفتن و المشاغبات فيما بين المسلمين ، و حيث ان جماعة كانوا من المنحرفين عن أمير المؤمنين عليه السلام في ايام الخلفاء الثلاثة ، و لما تمت الخلافة للامام عليه السلام خافوا على أنفسهم من سطوة الامام و نقمته و لهذا رفع الامام لهم راية الأمن و الامان بقوله : (و التوبة من ورائكم) فكأنه يقبل التوبة و الندم و الاعتذار من اولئك

المنحرفين عنه « و لا يحمد حامد إلا ربه ، و لا يلم لائم الا نفسه » لعله عليه السلام يشير بكلامه إلى أن كل خير و سعادة فهو من الله تعالى ، فاذا حصل للانسان لا يحمد أحدا إلا ربه ، لان الله هو الذي بيده كل خير ،

و إذا اتفقت للانسان أمور غير مرضية من المعاصي و الذنوب ، فالسبب في ذلك نفسه فقط ، و لا يتوجه اللوم إلا الى نفسه .

و إلى هنا انتهت الخطبة السادسة عشر

الخطبة السادسة و الثلاثون

المتن

و من خطبة له عليه السّلام في تخويف أهل النّهروان :

فأنا نذير لكم أن تصبحوا صرعى بأثناء هذا النهر ، و بأهضام هذا الغائط على غير بيّنة من ربّكم ، و لا سلطان مبين معكم ،

قد طوّحت بكم الدّار ، و احتبلكم المقدار ، و قد كنت نهيتكم عن هذه الحكومة ، فابيتم عليّ إبآء المخالفين المنابذين ، حتّى

[284]

صرّفت رأيي إلى هواكم ، و أنتم معاشر أخفّاء الهام ، سفهاء الأحلام ، لم آت لا أبا لكم بجرا ، و لا أردت بكم ضرّا .

اللغة

أهضام : جمع هضم : بطن الوادي ، و الغائط : الاسفل من الارض . طوّح : أسقط و أهلك . و احتبلكم : اوقعكم في الحبال . و المقدار : القضاء و القدر . و لا ابا لكم : كلمة تستعمل في المدح و الذم و التعجب . و بجرا : الأمر العظيم و الداهية

المعنى

لقد وردت أخبار و أحاديث كثيرة جدا في كتب الفريقين عن رسول الله صلى الله عليه و آله في ذم الخوارج و كفرهم ، و لنا مجال في المستقبل إنشاء الله ،

و الآن نقول :

لقد كثر الكلام منا فيما سبق حول (الخوارج) و قد وصلنا الى الموضع المناسب لبيان هذا الموضوع و لقد ذكرنا فيما مضى بعض ما يتعلق بتحكيم الحكمين ، و نتيجة ذلك التحكيم هو الفشل العائد إلى أصحاب الامام عليه السلام ،

اولئك الذين أكرهوه و أجبروه على التحكيم ، و لكنهم من قلة حيائهم و ضعف دينهم و ايمانهم ، جعلوا ، يعاتبون الامام ، بالرغم من انه كان كارها للتحكيم ،

[285]

و هم أجبروه على اصل التحكيم و على انتخاب الحكم و هو ابو موسى الأشعري الخائن ، و مع ذلك جعلوه ذنبا لأمير المؤمنين عليه السلام و اليك الواقعة كما ذكرها الطبري و غيره :

قد ذكرنا فيما سبق انه لما تم أمر المحاكمة خرج الامام من صفين و دخل الكوفة إلى أنتم تحكيم الحكمين بخلع الامام عليه السلام و تثبيت معاوية ، و لهذا تكونت الخوارج ، و كان الامام عليه السلام ينتظر إنقضاء السنة مدة الهدنة التي بينه و بين معاوية ليرجع إلى المقاتلة و الحرب ، و اذا بأربعة الآف فارس من اصحابه العبّاد و النساك قد تكتّلوا كتلة واحدة ضد الامام فخرجوا من الكوفة لاعلان المخالفة ، و قالوا : لا حكم الا لله ، و لا طاعة لمن عصى الله و انضمت إليهم جماعة أخرى و هم ثمانية الاف ممن يرى رأيهم فصاروا إثني عشر الفا ، من أهل الكوفة و البصرة و غيرها و ساروا إلى ان نزلوا الحروراء .

و نادى مناديهم : ان أمير القتال شبث بن ربعي ، و امير الصلاة عبد الله ابن الكوا ، و الأمر شورى بعد الفتح ، و البيعة لله على الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر .

فدخل زرعة الطائي و حرقوص بن زهير ذو الثدية فقال : لا حكم الا لله فقال علي عليه السلام : كلمة حق يراد بها الباطل . قال ذو الثدية : فتب من خطيئتك ، و ارجع عن قصتك ، و اخرج بنا الى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا .

فقال عليه السلام : قد اردتكم على ذلك فعصيتموني ، و قد كتبنا بيننا و بين القوم كتابا و شروطا ، و اعطينا عليها عهودا و مواثيق ، و قد قال الله تعالى : و اوفو بعهد الله اذا عاهدتم .

قال ذو الثدية : ذلك ذنب ينبغي ان نتوب عنه . فقال عليه السلام : ما هو

[286]

بذنب و لكنه عجز من الرأي و ضعف في العقل ، و قد تقدمت فنهيتكم عنه .

فقال ابن الكوا : الآن صح عندنا انك لست بامام ، و لو كنت اماما لما رجعت فقال عليه السلام : ويلكم قد رجع رسول الله عام الحديبية عن قتال اهل مكة .

و قال زرعه : اما و الله لئن لم تتب من تحكيمك الرجال لاقتلنك اطلب بذلك وجه الله و رضوانه فقال عليه السلام بؤسا لك ما اشقاك كأني بك قتيلا تسفي عليه الرياح ، قال زرعة : وددت أنه كان ذلك .

بعث الأمام أمير المؤمنين عليه السلام صعصعة بن صوحان مع زياد بن نضر و عبد الله بن العباس إلى القوم فلم يرتدعوا ، فدعى الامام صعصعة و قال له : بأي القوم رأيتم أشد طاعة ؟ فقال صعصعة : بيزيد بن قيس الأرحبى ، فركب عليه السلام إلى حروراء حتى وصل إلى خيمة يزيد بن قيس ، فصلى فيه ركعتين ثم خرج ، فاتكأ على قوسه ، و أقبل على الناس فقال : هذا مقام من فلج فيه إلى يوم القيامة ، ثم كلمهم وناشدهم فقال لهم :

أ لا تعلمون أن هؤلاء القوم لما رفعوا المصاحف قلت لكم : إن هذه مكيدة و وهن ، و لو أنهم قصدوا إلى حكم المصاحف لأتوني و سئلوني التحكيم ؟ أ فتعلمون أن احدا اكره على التحكيم مني ؟ قالوا : صدقت . قال : فهل تعلمون انكم استكرهتموني على ذلك حتى اجبتكم ، فاشرطت ان حكمهما : نافذ ما حكما بحكم الله ، فمتى خالفاه فانا و انتم من ذلك برآء ، و انتم تعلمون ان حكم الله لا يعدوني .

فقال ابن الكواء : حكّمت في دين الله برأينا ، و نحن مقرون بانا كفرنا و لكن الآن تائبون فاقرر بمثل ما اقررنا به ، و تب ننهض معك الى الشام . فقال عليه السلام : اما تعلمون ان الله قد امر بالتحكيم في شقاق بين الرجل و امرأته

[287]

فقال سبحانه فابعثوا حكماً من اهله و حكماً من اهلها . و في صيد « كأرنب » يساوي نصف درهم فقال . يحكم به ذوا عدل منكم .

فقالوا له : فان عمرا ابن العاص لما ابى عليك ان تقول في كتابك : هذا ما كتبه عبد الله علي أمير المؤمنين محوت إسمك من الخلافة و كتبت علي بن ابي طالب ، فقد خلعت نفسك . فقال عليه السلام : لي اسوة برسول الله حين ابى عليه سهيل بن عمرو ان يكتب : هذا ما كتبه محمد رسول الله و سهيل بن عمرو ،

و قال لو اقررت بانك رسول الله ما خالفتك ، و لكني اقدمك لفضلك ، فاكتب محمد بن عبد الله . فقال لي : يا علي : امح رسول الله . فقلت : يا رسول الله . لا تشجعني نفسي على محو إسمك من النبوة . فقضى عليه فمحاه بيده ثم قال : اكتب محمد بن عبد الله . ثم تبسم الي و قال : انك ستسام مثلها فتعطي .

فقالوا : أنا أذنبنا ذنبا عظيما بالتحكيم ، و قد تبنا ، فتب الى الله كما تبنا نعد لك فقال علي عليه السلام : استغفر الله من كل ذنب ، فرجعوا معه منهم ستة آلاف فلما استقروا بالكوفة اشاعوا : أن عليا رجع عن التحكيم و رآه ضلالا ، و قالوا إنما ينتظر ، أن يسمن الكراع و يجيء المال ثم ينهض بنا الى الشام . فأتى الاشعث عليا عليه السلام فقال : يا أمير المؤمنين : إن الناس قد تحدثوا : انك رايت الحكومة تحكيم الحكمين ضلالا و الاقامة عليها كفرا ، فقام علي عليه السلام فخطب فقال : من زعم اني رجعت عن الحكومة فقد كذب ، و من رآها ضلالة فقد ضلّ . فخرجت الخوارج من المسجد ، ثم توجهت إلى النهروان .

و وقعت لهم في طريقهم إلى النهروان طرايف و قضايا عجيبة مضحكة مبكية ،

فمنها : انهم وجدوا مسلما و نصرانيا في طريقهم ، فقتلوا المسلم لأنه عندهم كافر إذ كان على خلاف معتقدهم ، و استوصوا بالنصراني و قالوا احفظوا ذمة نبيكم

[288]

وثب رجل منهم على رطبة سقطت من نخلة فوضعها في فمه فصاحوا به ،

فلفظها تورّعا .

و رأى أحدهم خنزيرا فضربه و قتله ، فقالوا : هذا فساد في الأرض ، و انكروا قتل الخنزير .

و ساوموا رجلا نصرانيا بنخلة له فقال : هي لكم . فقالوا : ما كنا لنأخذها إلا بثمن ، فقال النصراني : وا عجباه أ تقتلون مثل عبد الله بن خباب و لا تقبلون منا نخلة إلا بثمن ؟ ؟ و اما عبد الله بن خباب الازدي ، فانه كان راكبا على حمار و معه زوجته و هي حامل فقالوا له :

حدثنا . قال سمعت ابي يقول : قال رسول الله : ستكون بعدي فتنة ،

يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه ، يمسي مؤمنا و يصبح كافرا ، فكن عند الله المقتول و لا تكن القاتل .

قالوا : فما تقول في ابي بكر و عمر ؟ فأثنى خيرا . قالوا : فما تقول في علي قبل التحكيم ؟ و في عثمان في السنين الست الاخيرة ؟ فأثني خيرا : قالوا : فما تقول في علي بعد التحكيم و الحكومة ؟ قال : ان عليا اعلم بالله و اشد توقيا على دينه ، و انفذ بصيرة .

قالوا : إنك تتبع الهوى ، انما تتبع الرجال على أسمائهم . ثم قربوه إلى شاطىء النهر فأضجعوه و ذبحوه ، ثم عمدوا إلى امرأته فشقوا بطنها و هي حامل وصل القوم إلى النهروان و توجه الامام بجيشه إليهم ، فقال عليه السلام :

يا ابن عباس إمض إلى هؤلاء القوم ، فانظر ما هم عليه ، و لما ذا اجتمعوا فلما وصل اليهم قالوا : له

الخوارج : ويحك يا ابن عباس : كفرت بربك كما كفر صاحبك علي بن ابي طالب و خرج خطيبهم عتاب بن الأعور الثعلبي فقال ابن عباس : من بنى الاسلام ؟

عتاب : الله و رسوله ابن عباس : النبي أحكم أموره و بيّن حدوده ام لا ؟

عتاب : بلى .

ابن عباس : فالنبي بقي في دار الاسلام ام ارتحل ؟

عتاب : بل ارتحل .

ابن عباس : فامور الشرع ارتحلت معه ام بقيت ؟

عتاب : بل بقيت بعده ابن عباس : فهل أقام أحد بعده بعمارة ما بناه ؟

عتاب : نعم ، الذرّية و الصحابة ابن عباس : فعمروها أو خربوها .

عتاب : بل عمروها ابن عباس : فالآن هي معمورة أم خراب .

عتاب : بل خراب .

ابن عباس : خربها ذريته ام أمته ؟

عتاب : بل امته .

ابن عباس : أنت من الذرية او من الامة ؟

عتاب : من الامة ابن عباس : انت من الامة و خربت دار الاسلام فكيف ترجوا الجنة ؟

فقالوا . ليخرج الينا علي بنفسه لنسمع كلامه عسى ان يزول ما بأنفسنا اذا سمعناه فرجع ابن عباس فأخبره ، فركب عليه السلام في جماعة و مضى اليهم ،

فركب ابن الكواء في جماعة منهم ، فلما التقوا قال الامام عليه السلام : يابن الكوا إن الكلام كثير ، فابرز اليّ من أصحابك لاكلّمك . فقال . و أنا آمن من سيفك ؟ قال عليه السلام . نعم . فخرج إليه في عشرة من أصحابه ، فقال له علي عليه السلام . . . أ لم أقل لكم إن أهل الشام انما يخدعونكم بها الحكومة و رفع المصاحف و غير ذلك

فان الحرب قد عضّهم ، فذروني أناجزهم فأبيتم أ لم أرد نصب ابن عمي ابن عباس و قلت . إنه لا ينخدع فأبيتم ؟ الا ابا موسى .

و قلتم . رضينا به حكما . فاجبتكم كارها ؟ و لو وجدت في ذلك الوقت أعوانا غيركم لما أجبتكم ، و شرطت على الحكمين بحضوركم . ان يحكما بما أنزل الله من فاتحته الى خاتمته . و السنة الجامعة ، و إنهما ان لم يفعلا فلا طاعة لهما عليّ ؟ كان ذلك أو لم يكن ؟

قال ابن الكواء . صدقت ، كان هذا كله ، فلم لا ترجع الآن الى حرب القوم ؟ قال الامام عليه السلام . حتى تنقضي المدة التي بيننا و بينهم . قال ابن الكوا . و انت مجمع على ذلك ؟ قال عليه السلام . نعم ، لا يسعني غيره . فعاد ابن الكوا و العشرة الذين معه الى اصحاب علي عليه السلام راجعين عن دين الخوارج و تفرّق الباقون و هم يقولون لا حكم الا لله . و أمروا عليهم عبد الله بن واهب الراسبي و ذا الثدية ، و عسكروا بالنهروان ، و خرج الامام عليه السلام حتى بقي على فرسخين منهم ، و كاتبهم و راسلهم ، فلم يرتدعوا ، فأمر الامام عليه السلام ابن عباس أن يركب إليهم ، و قال : سلهم ما الذي نقموه ؟ و أنا ردفك فلا تخف منهم . فلما جائهم ابن عباس قال : ما الذي نقمتم من أمير المؤمنين ؟

[291]

قالوا : نقمنا أشياء لو كان حاضرا لكفّرناه بها و الامام يسمع كلامهم فقال ابن عباس : يا أمير المؤمنين قد سمعت كلامهم و انت أحق بالجواب .

فتقدم عليه السلام و قال : ايها الناس انا علي بن ابي طالب ، فتكلموا بما نقمتم عليّ . قالوا : نقمنا عليك اولا .

انا قاتلنا بين يديك بالبصرة ، فلما أظفرك الله بهم أبحتنا ما في عسكرهم ،

و منعتنا النساء و الذرية ، فكيف حل لنا ما في العسكر و لم يحل لنا النساء ؟

فقال عليه السلام . يا هؤلاء . ان اهل البصرة قاتلونا بالقتال ، فلما ظفرتم بهم قسمّتم سلب من قاتلكم ، و منعتكم من النساء و الذرية ، فان النساء لم يقاتلن ،

ولدوا على الفطرة ، و لم ينكثوا و لا ذنب لهم ، و لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه و آله منّ على المشركين ، فلا تعجبوا إن مننت على المسلمين فلم أسب نسائهم و لا ذريتهم .

قالوا . نقمنا عليك يوم صفين كونك محوت اسمك من إمرة المؤمنين ،

فاذن لم تكن أميرنا ، و لست أميرا لنا قال عليه السلام . يا هؤلاء . إنما اقتديت برسول الله صلى الله عليه و آله حين صالح سهيل بن عمرو و قد تقدمت قالوا : نقمنا عليك . انك قلت للحكمين . انظرا كتاب الله ، فان كنت افضل من معاوية فأثبتاني في الخلافة . فاذا كنت شاكا في نفسك فنحن فيك اشد و اعظم شكا قال عليه السلام . انما اردت بذلك النصفة الانصاف فاني لو قلت .

احكما لي دون معاوية لم يرض و لم يقبل ، و لو قال النبي لنصارى نجران لما قدموا عليه . تعالوا نبتهل فأجعل لعنة الله عليكم . لم يرضوا ، و لكن أنصفهم من نفسه

[292]

كما امره الله فقال : فنجعل لعنة الله على الكاذبين ، فأنصفهم من نفسه ، فكذلك فعلت انا و لم اعلم بما اراد عمرو بن العاص من خدعة ابي موسى .

قالوا . فانا نقمنا عليك انك حكمت حكما في حق هو لك .

فقال عليه السلام : إن رسول الله حكم سعد بن معاذ في بني قريظة و لو شاء لم يفعل ، و انا اقتديت به ، فهل بقي عندكم شيء ؟

فسكتوا و صاح جماعة منهم من كل جانب : التوبة التوبة يا أمير المؤمنين فأعطى امير المؤمنين راية امان مع ابي ايوب الانصاري ، فناداهم ابو ايوب :

من جاء إلى هذه الراية او خرج من الجماعة فهو آمن .

فرجع منهم ثمانية الآف ، فأمر عليه السلام المستأمنين بالاعتزال عنهم في ذلك الوقت .

و بقي اربعة الاف منهم مستعدين للقتال ، فخطبهم الامام و وعّظهم فلم يرتدعوا ، و صاح مناديهم فيهم دعوا مخاطبة علي و أصحابه ، و بادروا الجنة .

و صاحوا : الرواح إلى الجنة و تقدم حرقوص ذو الثدية و عبد الله بن وهب و قالا : ما نريد بقتالنا إياك إلا وجه الله و الدار الآخرة ، فقال عليه السلام : هل انبئكم بالاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، و هم يحسبون انهم يحسنون صنعا ،

فكان اول من خرج اخنس بن العزيز الطائي ، فقتله الامام عليه السلام و خرج عبد الله بن وهب و مالك بن الوضاح ، و خرج أمير المؤمنين وضاح من جنب و ذو الثدية من جانب ، فقتل الامام الوضاح و ضرب ضربة حيدرية على رأس الحرقوص فقطعه ، فشرد ، و رجله في الركاب حتى اوقعه في مكان على جرف شط النهروان و أمر الامام عليه السلام أصحابه بالهجوم على العدو .

[293]

عند ذلك استعرت الحرب و التهبت نيرانها ، و اما عبد الله بن وهب الراسبي فصاح : يا ابن ابي طالب : و الله لا نبرح من هذه المعركة حتى تأتي على انفسنا و نأتي على نفسك ، فابرز الي و ابرز اليك ، و ذر الناس جانبا ، فلما سمع الامام كلامه تبسم و قال : قاتله الله من رجل ما اقل حياه ، أما انه ليعلم اني لحليف السيف و خدين الرمح ، و لكنه قد يئس من الحياة ، و انه ليطمع طمعا كاذبا ، ثم حمل على الامام عليه السلام و حمل عليه الامام فضربه و قتله و الحقه بأصحابه في النار و اختلط الجيشان فلم تكن الا ساعة حتى قتلوا بأجمعهم ، و كانوا اربعة الاف ،

و لم ينج منهم إلا تسعة أنفس : رجلان هربا إلى خراسان إلى ارض سجستان و بها نسلهما ، و رجلان صارا إلى اليمن و فيها نسلهما و هم الاباضية ، و رجلان صارا إلى بلاد الجزيرة إلى موضع يعرف بالسن و البواريخ نواحي التكريت في شمال العراق و رجلان صارا إلى اليمن و رجل صار إلى تل موزن .

و غنم أصحاب الامام عليه السلام غنائم كثيرة .

و قتل من أصحاب علي عليه السلام تسعة بعدد من سلم من الخوارج هذه صورة مصغرة من وقعة النهروان ، و في المستقبل نذكر ما يتعلق بها بالمناسبة إنشاء الله .

و اما شرح الخطبة يقول عليه السلام : فانا نذير لكم أن تصبحوا صرعى بأثناء هذا النهر ، باهضمام هذا الغائط » هذا إخبار منه عليه السلام و إنذار للقوم ،

بأنهم يقتلون قرب ذلك النهر ، و في ذلك الوادي المنخفض ، و قد مر الكلام في صدر الجزء الأول في البحث عن علم الامام عليه السلام ، كما و انه عليه السلام كان يعلم بعدد القتلى من أصحابه ، و الناجين من القتل من الخوارج ، و ليس ذلك منه بعجيب ، فهو باب مدينة العلم النبوي ، و معدن الأسرار الالهية ، ثم ذكر عليه

السلام أن قتلهم لم يكن في سبيل الله ، و ليس لهم أجر الشهيد ، بل مصيرهم إلى النار ، بقوله : « على غير بيّنة من ربكم ، و لا سلطان مبين معكم » إذ لم يجز لهم أن يحاربوا إمام زمانهم ، بغير حدث و لا ذنب ، فان كان ذنبه بزعمهم تحكيم فهم كانوا يعملون بأنه ما كان راضيا ، بل كان ينهاهم عن ذلك نهيا شديدا ، و انما أجبروه و أكرهوه على ذلك كما سبق ، و إن كان ذنبه بزعمهم ترك الجهاد و المحاربة مع معاوية ، فأن الامام كان عازما على العود و الرجوع الى صفين ، و انما كان ينتظر انتهاء مدة الهدنة ، فعلى جميع التقادير لم يكن للخوارج برهان و لا سلطان و لا حجة و لا دليل على جواز قتال الامام عليه السلام ، اضف الى ذلك قول رسول الله صلى الله عليه و آله : يا على : حربك حربي . . . الخ . « قد طوّحت بكم الدار ، و احتبلكم المقدار » يشير الى أن الدار الدنيا هي ذهبت بهم هيهنا و هيهنا ، و ان القدر هو الذي اوقعهم في الحبال ، حبال الشك و الشبهة و الضلالة ، ثم ذكر برائته من قضية التحكيم بقوله : « و قد كنت نهيتكم عن الحكومة ، فأبيتم عليّ اباء المخالفين المنابذين » كأنهم عامدين مصرين على خلافه و عصيانه ، و لم يكن له في ذلك اليوم عدد من الجيش يكفيه لردّ الأشعث و اضرابه و دفعهم ، و لهذا فوّض الأمر اليهم فقال : « حتى صرفت رأيي الى هواكم » قهرا و جبرا ، و لو كان هؤلاء اصحاب عقل و تدبير لأطاعوا أمر الامام عليه السلام في أصل التحكيم ، أو وافقوه على انتخاب الحكم ، كأبن عباس و الأشتر و الأحنف و محمد بن أبي بكر و امثالهم ، بل اصروا على انتخاب الحمار ابي موسى الأشعري ، لانهم كما قال عليه السلام : « و انتم معاشر أخفاء الهام » يقال : رجل خفيف الهامة . أي الرأس ، كناية عن قلة عقله « و سفهاء الاحلام » أشارة الى عدم الثبات و الانائة ، و الرأي السليم ،

ثم قال عليه السلام : « و لم آت لا ابا لكم بحرا ، و لا أردت بكم ضرا » . و أود أن اختم هذا البحث بهذا الخبر الظريف الذي لا يخلو من فائدة ، كما في البحار عن الكافي .

أن عبد الله بن نافع الأزرق كان يقول : لو اني علمت أن بين قطريها أحدا تبلّغني إليه المطايا يخصمني أن عليا عليه السلام قتل أهل النهروان و هو لهم غير ظالم لرحلت اليه .

فقيل له : و لا ولده ؟ فقال : أ في ولده عالم ؟ فقيل له : هذا أول جهلك ،

و هم لا يخلون من عالم ؟ قال : فمن عالمهم اليوم ؟ قيل محمد بن علي بن الحسين بن علي (الباقر) عليهم السلام . فرحل إليه في صناديد أصحابه ، حتى أتى المدينة ،

فاستأذن على أبي جعفر (الباقر) عليه السلام فقيل له : هذا عبد الله بن نافع . فقال عليه السلام : و ما يصنع بي ؟ و هو يبرأ مني و من ابي طرفي النهار ؟ فقال له ابو بصير الكوفي : جعلت فداك ، إن هذا يزعم أنه لو علم ان بين قطريها أحدا تبلغه المطايا اليه يخصمه أن عليا عليه السلام قتل أهل النهروان و هو لهم غير ظالم لرحل اليه .

فقال له ابو جعفر (الباقر) عليه السلام : أ تراه جائني مناظرا ؟ قال : نعم .

قال : يا غلام اخرج ، فحطّ رحله ، و قل له : اذا كان الغد فأتنا .

قال : فلما أصبح عبد الله بن نافع غدى في صناديد اصحابه ، و بعث ابو جعفر إلى جميع أبناء المهاجرين و الأنصار ، فجمعهم ، ثم خرج الى الناس في ثوبين ،

و اقبل على الناس كأنه فلقة قمر ، فقال : الحمد لله محيّث الحيث ، و مكيّف الكيف و مؤيّن الأين الحمد لله الذي لا تأخذه سنة و لا نوم ، له ما في السموات و ما في

الأرض الى آخر الآية .

و أشهد ان لا إله إلا الله ، و اشهد ان محمدا صلى الله عليه و آله عبده و رسوله ،

إجتباه و هداه الى صراط مستقيم ، الحمد لله الذي اكرمنا بنبوّته ، و اختصنا بولايته يا معشر أبناء المهاجرين و الأنصار ، من كانت عنده منقبة لعلي بن ابي طالب فليقم ليتحدث .

قال : فقام الناس ، فسرّدوا تلك المناقب ، فقال عبد الله : أنا اروى لهذه المناقب من هؤلاء ، و إنما أحدث عليّ الكفر بعد تحكيمه الحكمين حتى انتهوا في المناقب الى حديث خيبر : لأعطين الراية رجلا يحب الله و رسوله و يحبه الله و رسوله ، كرارا غير فرار ، لا يرجع حتى يفتح الله على يديه ،

فقال ابو جعفر عليه السلام : ما تقول في هذا الحديث ؟ فقال : هو حق لا شك فيه و لكن أحدث الكفر بعد . فقال له ابو جعفر عليه السلام : ثكلتك امك اخبرني عن الله عز و جل : احب علي بن ابي طالب يوم احبه و هو يعلم انه يقتل اهل النهروان ام لم يعلم ؟ ؟ قال : فان قلت : لا . كفرت . فقال : قد علم قال : فأحبه الله على ان يعمل بطاعته ، او على ان يعمل بمعصيته ؟ ؟ فقال : على ان يعمل بطاعته . فقاله ابو جعفر عليه السلام : فقم مخصوما ، فقام و هو يقول :

حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الأسود من الفجر ، الله اعلم حيث يجعل رسالته .

خاتمة الكتاب

لقد كثر منا فيما سبق الكلام حول ذم الامام امير المؤمنين عليه السلام اصحابه المتثاقلين عن الجهاد ، المتقاعدين عن الحرب ، و كان الذم متوجها اليهم بسبب عدم إطاعتهم أمر الامام ، و عدم الاسراع في امتثال أوامره ، و بقى هنا كلام :

و هو ان جماعة غير قليلة من اصحاب الامام عليه السلام كانوا يطيعون امره و يضحّون بأنفسهم في سبيل حبه ، و منهم الصحابي المجاهد البطل المقدام طرماح ابن عدي ، عليه الرحمة ، فله مواقف مشهورة مشكورة ، و منها :

كما في البحار : أن أمير المؤمنين عليه السلام لما رجع من وقعة الجمل كتب اليه معاوية ابن ابي سفيان : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله و ابن عبد الله معاوية ابن ابي سفيان ، الى علي بن ابي طالب ، اما بعد : فقد إتبعت ما يضرك ،

و تركت ما ينفعك ، و خالفت كتاب الله ، و سنة رسوله فقد انتهى إلى ما فعلت بحواري رسول الله طلحة و الزبير ، و ام المؤمنين عايشة ، فو الله لارمينك بشهاب لا تطفيه المياه ، و تزعزعه الرياح ، اذا وقع وقب ، و اذا وقب ثقب ، و اذا ثقب نقب ، و اذا نقب إلتهب ، فلا تغرنك الجيوش ، و استعد للحرب ، فاني ملاقيك بجنود لا قبل لك بها و السلام فلما وصل الكتاب إلى أمير المؤمنين عليه فكّه و قرأه ، و دعي بدواة و قرطاس و كتب : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله و ابن عبده علي بن ابي طالب أخي رسول الله و ابن عمه ، و وصيه ، و مغسله و مكفنه ، و قاضي دينه ، و زوج ابنته البتول

سبطيه . الحسن و الحسين الى معاوية بن ابي سفيان .

اما بعد . فاني أفنيت قومك يوم بدر ، و قتلت عمك و خالك و جدك ، و السيف الذي قتلتهم به معي ، يحمله ساعدي ، بثبات من صدري ، و قوة من بدني ،

و نصرة من ربي كما جعله النبي صلى الله عليه و آله في كفي ، فو الله ما اخترت على الله ربا ، و لا على الاسلام دينا ، و لا على محمد صلى الله عليه و آله نبيا ، و لا على السيف بدلا ، فبالغ من رأيك ، فاجتهد فلا تقصّر ، فقد استحوذ عليك الشيطان و استفزّك الجهل و الطغيان ، و سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، و السلام على من اتبع الهدى ، و خشى عواقب الردى .

ثم طوى الكتاب ، و ختمه ، و دعى رجلا من اصحابه يقال له . الطرماح بن عدي بن حاتم الطائي ، و كان رجلا جسيما طويلا ، اديبا لبيبا فصيحا لسنا ،

متكلما لا يكل لسانه ، و لا يعي عن الجواب ، فعمّه بعمامته ، و دعى له بجمل بازل وثيق فايق أحمر ، فسوّى راحلته ، و وجّهه الى دمشق ، فقال له .

يا طرماح انطلق بكتابي هذا الى معاوية بن ابي سفيان ، و خذ الجواب .

فأخذ الطرماح الكتاب ، و كور بعمامته ، و ركب مطيته ، و انطلق حتى دخل دمشق فسأل عن دار الامارة ، فلما وصل الى الباب قال له الحجاب . من بغيتك ؟

الطرماح . اريد اصحاب الأمير اولا ، ثم الأمير ثانيا .

الحاجب . من تريد منهم ؟

الطرماح . اريد جشعما ، و جرولا ، و مجاشعا ، و باقعا ، يريد ابا الاعور و ابا هريرة و ابن العاص و مروان

الحاجب : هم بباب الخضراء يتنزهون في بستان .

انطلق الطرماح و سار حتى اشرف على ذلك الموضع ، فاذا قوم ببابه ، فقالوا

[299]

جائنا أعرابي بدوي ، دوين إلى السماء ، تعالوا نستهزيء به . فلما وقف عليهم قالوا :

القوم : يا اعرابي هل عندك من السماء خبر ؟

الطرماح : بلى الله تعالى في السماء ، و ملك الموت في الهواء و أمير المؤمنين علي ابن ابي طالب في القفاء ، فاستعدوا لما ينزل عليكم من البلاء يا اهل الشقاوة الشقاء .

القوم : من اين أقبلت ؟

الطرماح من عند حرّ تقي نقي زكي ، مؤمن رضي مرضي .

القوم : و أي شيء تريد ؟

الطرماح : اريد هذا الدعي الردي المنافق المردي الذي تزعمون أنه اميركم ،

القوم : هو في هذا الوقت مشغول .

الطرماح : بما ذا ؟ بوعد أو وعيد :

القوم : لا ، و لكنه يشاور أصحابه فيما يلقيه غدا .

الطرماح : فسحقا له و بعدا .

فكتبوا الى معاوية بخبره : اما بعد فقد ورد من عند علي بن ابي طالب رجل اعرابي بدوي ، فصيح لسن ، طليق ، يتكلم فلا يكل ، و يطيل فلا يمل ، فاعد لكلامه جوابا بالغا ، و لا تكن عنه غافلا و لا ساهيا و السلام .

فلما علم الطرماح بذلك أناخ راحلته ، و نزل عنها ، و عقلها و جلس مع القوم الذين يتحدثون فلما بلغ الخبر الى معاوية أمر ابنه يزيد أن يخرج و يضرب المصاف على باب داره . فخرج يزيد على وجهه أثر ضربة ، فاذا تكلم كان جهر الصوت ، فأمر بضرب المضاف ، ففعلوا ذلك ، و قالوا للطرماح : هل لك أن تدخل على أمير المؤمنين

[300]

الطرماح : لهذا جئت ، و به أمرت . قام الطرماح يمشي ، فلما رأى اصحاب المصاف و عليهم ثياب سود قال : من هؤلاء القوم : كأنهم زبانية المالك ، على ضيق المسالك فلما دنى من يزيد نظر اليه فقال : من هذا الميشوم ؟ الواسع الحلقوم ، المضروب على الخرطوم ؟

القوم : مه يا اعرابي ابن الملك يزيد الطرماح : و من يزيد ؟ لا زاده الله مزاده ، و لا بلغه مراده ، و من أبوه ؟ كانا قدما غائصين في بحر الجلافة و اليوم استويا على سرير الخلافة .

سمع يزيد ذلك ، فاستشاط ، و همّ بقتله ، غضبا ، ثم كره أن يحدث دون ابيه فلم يقتله خوفا منه و كظم غيظه ، و خبأ ناره ، و سلّم عليه ، فقال : يا اعرابي ان أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام .

الطرماح : سلامه معي من الكوفة :

يزيد : سلنى عما شئت ، فقد أمرني أمير المؤمنين بقضاء حاجتك .

الطرماح : حاجتي اليه أن يقوم من مقامه ، حتى يجلس من هو اولى منه بهذا الأمر :

يزيد : فما ذا تريد آنفا ؟

الطرماح : الدخول عليه . فأمر يزيد برفع الحجاب ، و ادخله الى معاوية ،

فلما دخل الطرماح و هو منتعل قالوا له اخلع نعليك .

الطرماح يلتفت يمينا و شمالا : هذا رب الواد المقدس فاخلع نعلي ؟

فنظر فاذا هو معاوية قاعد على السرير مع قواعده و خاصته ، و مثل بين يديه خدمه فقال الطرماح : السلام عليك ايها الملك العاصي فقرب إليه عمرو بن العاص ، و قال : يا اعرابى ما منعك ان تدعوه بأمير

[301]

المؤمنين : الطرماح . ثكلتك امك يا احمق : نحن المؤمنون فمن أمّره علينا بالخلافة معاوية : ما معك يا اعرابي ؟

الطرماح : كتاب مختوم ، من إمام معصوم .

معاوية : ناولنيه .

الطرماح : اكره ان اطأ بساطك .

معاوية : ناوله وزيري . و اشار الى ابن العاص الطرماح : هيهات هيهات ، ظلم الامير ، و خان الوزير معاوية : ناوله ولدي هذا . و اشار الى يزيد .

الطرماح : ما نرضى بابليس فكيف باولاده ؟ معاوية : ناوله مملوكلي هذا . و اشار الى غلام قائم على راسه الطرماح : مملوك اشتريته من غير حل ، و تستعمله في غير حق .

معاوية : ويحك يا اعرابي فما الحيلة ؟ كيف نأخذ الكتاب :

الطرماح : ان تقوم من مقامك ، و تأخذه بيدك ، على غير كره منك ،

فانه كتاب رجل كريم و سيّد عليم ، و حبر حليم ، بالمؤمنين رؤف رحيم فلما سمع منه معاوية وثب من مكانه ، و اخذ منه الكتاب بغضب ، و فكه و قرأه ، و وضعه تحت ركبتيه ثم قال معاوية : كيف خلفت ابا الحسن و الحسين :

الطرماح : خلفته بحمد الله كالبدر الطالع ، حواليه أصحابه كالنجوم الثواقب اللوامع ، اذا أمرهم بأمر إبتدروا ، و اذا نهاهم عن شيء لم يتجاسروا عليه ، و هو من بأسه يا معاوية في تجلد بطل شجاع سيد سميدع . ان لقي جيشا هزمه و اراده ، ان لقي قرنا سلبه و افناه ، و ان لقي عدوا قتله و جزّاه .

[302]

معاوية : كيف خلفت الحسن و الحسين :

الطرماح : خلفتهما بحمد الله شابين تقيين نقيّين ، زكيين عفيفين صحيحين سيدين ، فاضلين ، عاقلين ، عالمين ، مصلحين في الدنيا و الآخرة .

فسكت معاوية ساعة ، ثم قال : ما افصحك يا اعرابي الطرماح : لو بلغت باب أمير المؤمنين علي بن ابي طالب لوجدت الادباء الفصحاء البلغاء الفقهاء النجباء ، الاتقياء الأصفياء لرايت رجالا سيماهم في وجوههم من اثر السجود حتى اذا استعرت نار الوغى قذفوا بأنفسهم في تلك الشعل ، لابسين القلوب على مدارعهم ، قائمين ليلهم ، صائمين نهارهم ، لا تأخذهم في الله و لا في ولي الله (علي) لومة لائم فاذا انت يا معاوية رايتهم على هذه الحالة غرقت في بحر عميق لا تنجو من لجته .

فقال عمرو بن العاص لمعاوية سرا : هذا رجل اعرابي بدوي ، و لو ارضيته بالمال لتكلم فيك بخير .

معاوية : يا اعرابي ما تقول في الجائزة ؟ أ تأخذها مني ام لا ؟

الطرماح : آخذها ، فو الله أنا اريد استقباض روحك من جسدك ، فكيف باستقباض مالك من خزانتك ؟

فامر له معاوية بعشرة الاف درهم ثم قال معاوية : أ تحب ان أزيدك ؟ ؟

الطرماح : زدنا ، فانك لا تعطيه من مال أبيك ، و ان الله تعالى ولي من يزيد معاوية : اعطوه عشرين الفا .

الطرماح : اجعلها وترا ، فان الله تعالى هو الوتر ، و يحب الوتر .

معاوية : اعطوه ثلاثين الفا .

[303]

فمدّ الطرماح بصره إلى إيراده ، فأبطأ عليه ساعة فقال :

الطرماح : يا ملك : تستهزء بي على فراشك ؟

معاوية : لما ذا يا اعرابي ؟

الطرماح : انك امرت لي بجائزة لا اراها و لا تراها ؟ فانها بمنزلة الريح التي تهب من قلل الجبال . فاحضر المال ، فلما قبض المال سكت و لم يتكلم بشيء .

ابن العاص : يا اعرابي كيف ترى جائزة أمير المؤمنين الطرماح : هذا مال المسلمين ، من خزانة رب العالمين ، اخذه عبد من عباد الله الصالحين .

التفت معاوية الى كاتبه و قال : اكتب جوابه ، فو الله لقد اظلمت الدنيا علي ، و ما لي طاقة فاخذ الكاتب القرطاس و كتب .

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله و ابن عبده معاوية بن ابي سفيان ، الى علي بن ابي طالب . اما بعد فاني اوجه إليك جندا من جنود الشام ، مقدمته بالكوفة ، و ساقته بساحل البحر ، و لأرمينك بالف حمل من خردل تحت كل خردل مقاتل ، فان أطفأت نار الفتة ، و سلمت إلينا قتلة عثمان و إلا فلا تقل . غال ابن ابي سفيان . و لا يغرنك شجاعة اهل العراق و اتفاقهم ، فان إتفاقهم نفاق فمثلهم كمثل الحمار الناهق ، يميلون مع كل ناعق و السلام .

فلما نظر الطرماح إلى ما يخرج تحت قلمه قال .

الطرماح : سبحان الله لا ادري أيكما اكذب ؟ انت بادعائك ؟ او كاتبك فيما كتب ؟ لو اجتمع أهل الشرق و الغرب من الجن و الانس لم يقدروا به على ذلك معاوية : و الله لقد كتب من غير امري .

الطرماح : إن كنت كاذبا فقد استضعفك ، و إن كنت أمرته فقد استفضحك

[304]

إن كتب من تلقاء نفسه فقد خانك ، و إن أمرته بذلك فأنتما خائنان كاذبان في الدنيا و الآخرة . يا معاوية : أظنك تهدد البط بالشط .

فدع الوعيد فما وعيدك ضائر
أ طنين اجنحة الذباب تضير

و الله إن لأمير المؤمنين علي بن ابي طالب لديكا عليّ الصوت ، عظيم المنقار يلتقط الجيش بخيشومه و يصرفه إلى قانصته ، و يحطه إلى حوصلته .

معاوية : و الله كذلك ، هو مالك الاشتر النخعي ، إرجع بسلام مني ، خذ المال و الكتاب ، و انصرف فجزاك الله عن صاحبك خيرا . فأخذ الطرماح الكتاب و حمل المال ، و خرج من عنده و ركب مطيّته و سار .

التفت معاوية الى اصحابه قائلا . لو اعطيت جميع ما املك لرجل منكم لم يؤد عني عشر عشير ما ادى هذا الأعرابي من صاحبه .

عمر بن العاص : لو ان لك قرابة كقرابة امير المؤمنين علي بن ابي طالب و كان معك الحق كما هو معه لأدينا عنك افضل من ذلك اضعافا مضاعفة معاوية : فض الله فاك ، و قطع شفتيك ، و الله لكلامك علي اشد من كلام الاعرابي ، و لقد ضاقت عليّ الدنيا بحذافيرها .

الى هنا انتهى الجزء الثاني من كتاب شرح نهج البلاغة و الحمد لله اولا و آخرا و تم طبعه في 20 صفر عام 1381 من الهجرة في مطبعة عمر منيمنة في بيروت لبنان كربلاء المشرفة العراق السيد محمد كاظم القزويني 25 ذي الحجة 1380

القسم الثالث

و من هذه الخطبة

المتن

شغل من الجنّة و النّار أمامه ، ساع سريع نجا ، و طالب بطيء رجا ، و مقصّر في النار هوى ، اليمين و الشّمال مضلّة ، و الطّريق الوسطى هي الجادّة ، عليها باقي الكتاب و آثار النّبوة ، و منها منفذ السّنّة ، و إليها مصير العاقبة ، هلك من إدّعى ، و خاب من إفترى ،

من أبدى صفحته للحقّ هلك ، و كفى بالمرء جهلا أن لا يعرف قدره ، لا يهلك على التّقوى سنخ أصل ، و لا يظمأ عليها زرع قوم ، فاستتروا في بيوتكم ، و أصلحوا ذات بينكم ، و التّوبة من ورائكم ، و لا يحمد حامد إلاّ ربّه ، و لا يلم لائم إلاّ نفسه .

اللغة

الصفحة : الجانب . و السنخ من كل شيء : اصله

« شغل من الجنة و النار أمامه » كل فرد من افراد البشر حتى

[16]

الجنين اذا سقط عن بطن امه لا بد أن يؤول أمره و يكون مصيره اما الى الجنة و اما الى النار ، فالجنة و النار أمام كل احد ، فينبغي لكل من كان هكذا أن يكون مشغولا بهاتين المرحلتين الأخيرتين ، فيجد و يجتهد في انقاذ نفسه من النار ، و يسعى و يعمل في طلب الجنة ، فمن زحزح عن النار و أدخل الجنة فقد فاز « ساع سريع نجا ، و طالب للحق رجا ، و مقصر في النار هوى » قسم عليه السلام الناس الى ثلاثة اقسام : القسم الأول : هو الذي يسعى في تحصيل الجنة ،

و يسرع في النجاة من العذاب .

و القسم الثاني : هو الذي يطلب رضوان الله تعالى ، و لكنه بطيء في عمله و سيره ، و لكن يرجو رحمة ربه .

و القسم الثالث : هو المقصر الذي يعلم الحق و لا يتبعه ، و يعرف الباطل و لا يتركه فهو مقصر لا يقبل منه العذر ، فبسبب التقصير سقط في نار جهنم ،

و قد صرّح القرآن الكريم بهذا التقسيم ، و وردت الاحاديث ايضا في تفسير تلك الآيات الشريفة .

« اليمين و الشمال مضلة . و الطريق الوسطى هي الجادة » الجادة : الطريق المستقيم ، و السبيل : كل طريق و ان لم يكن مستقيما ، و المقصود أن الانسان اذا انحرف عن الطريق يمينا او شمالا يضل عن السبيل ، و لا يصل الى مطلوبه و مقصوده ، و الطريق الذي يوصل الانسان الى مراده هو الطريق المستقيم ، و اما قوله عليه السلام : و الطريق الوسطى . فقد ذكر الطريحي في مجمع البحرين : عن الأخفش : اهل الحجاز يؤنثون الطريق و الصراط و السبيل ، و السوق و الزقاق ،

و بنو تميم يذكرون هذا كله .

[17]

و يمكن ان يكون المراد بالطريق الوسطى هو طريق آل محمد و ولايتهم ،

و اليمين و الشمال طريق الغالين و القالين ، لأن طريق الولاية هو الوسط بين الجانبين : جانب الغلو و هم القائلون بألوهية علي عليه السلام ، و جانب العداوة و النصب ، و هم الخوارج و النواصب و أمثالهم من اعداء اهل البيت المنحرفين عن ولايتهم .

و الدليل على ان المقصود من الطريق الوسطى هو طريق آل محمد و ولايتهم قوله عليه السلام : « عليها باقي الكتاب » و في بعض النسخ . (عليها ما في الكتاب) اي على تلك الطريقة كل ما في القرآن ، و بناء على الأول عليها باقي الكتاب اي الكتاب الباقي بين الامة ، الذي تركه رسول الله صلى الله عليه و آله بين أمته ، و لا شك أن القرآن نزل في بيت آل محمد ، و اهل البيت ادرى بما في البيت ، فهم اعلم بجميع خصوصيات القرآن و علومه و فنونه و تفسيره و تأويله ،

و سائر أقسامه « و آثار النبوة » اي على تلك الطريقة آثار رسول الله صلى الله عليه و آله من الوصاية و الولاية و الوراثة و الخلافة ، و عندهم مواريث الانبياء كما تقدم في الجزء الاول .

« و منها منفذ السنة » أي من تلك الطريقة تخرج السنة النبوية ، و تطلع الشريعة الأحمدية الصحيحة ، و تنتشر الأحكام الاسلامية و التعليمات و القوانين الشرعية ، كما هو واضح ، فهذه مئآت الكتب مشحونة مملؤة باحاديثهم و

آثارهم من الروايات التي رويت عنهم في كل ما يتعلق بالأصول و الفروع ، من الواجبات و المحرّمات ، و المستحبات و المكروهات ، و المباحات ، و الأخلاقيات و الاجتماعيات و الاقتصاديات ، و جميع انحاء الحياة الاجتماعية و قد اشرنا إشارة اجمالية الى ذلك

[18]

في كتابنا الموسوم . (الاسلام و التعاليم التربوية) 1 و لعلنا نلتقى بالقراء الكرام بهذا الموضوع في غير هذا الكتاب ان شاء الله تعالى .

« و اليها مصير العاقبة » اي إلى آل محمد عليهم السلام مصير عواقب الخلق ،

فان الناس لا يدخلون الجنة الا بعد الاعتقاد بولاية آل محمد ، و عواقب الخلق و مصيرهم بيد آل محمد ، كما في الاحاديث المتواترة عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل أنه قال . . . اقول للنار . هذا عدوي فخذيه ، و هذا وليي فذريه ، و قال رسول الله صلى الله عليه و آله . كأني بك يا علي و بيدك عصا عوسج تسوق قوما الى الجنة و قوما الى النار . و لعلك تظن أن هذا مما تفردت به الشيعة و سلكت سبيل الغلو و المغالاة في حق أهل البيت ؟ فهذا ابن أبي الحديد صرّح بهذا الاعتقاد في قصيدته العلوية التي يقول فيها مخاطبا لأمير المؤمنين عليه السلام .

(لي فيك معتقد سأكشف سره
فليصغ ارباب النهى و ليسمعوا

و الله لو لا حيدر ما كانت الد
نيا و لا جمع البرية مجمع

و اليه في يوم المعاد حسابنا
و هو الملاذ لنا غدا و المفزع

هذا اعتقادي قد كشفت غطائه
سيضر معتقدا له أو ينفع)

و الأحاديث المروية عن رسول الله صلى الله عليه و آله و عن أهل بيته الطاهرين المذكورة في كتب الفريقين كثيرة جدا ، و لا مجال لذكرها الآن .

« هلك من ادّعى و خاب من افترى » لما كان هذا الكلام مسوقا في ما يتعلق بالخلافة و الخلفاء ، و كلامه عليه السلام كله كنايات عن الامامة ، لا عن

____

(1) صدر في سلسلة منابع الثقافة الاسلامية التي تصدر في كربلاء المقدسة بإشراف جماعة من رواد العلم و الفضيلة

[19]

غيرها ، و لهذا يمكن ان نقول : ان المقصود من (هلك من ادعى) اي هلك من ادعى الامامة بغير استحقاق ، و خاب من افترى في ادعاء الخلافة لنفسه كذبا .

فهذا دعاء منه عليه السلام على متقمّصي الخلافة كذبا و زورا ، دعاء عليهم بالهلاك و الخيبة و الحرمان من ثواب الآخرة ، او اخبار منه عليه السلام على مدعي الامامة و الخلافة من غير استحقاق .

« من أبدى صفحته للحق هلك » و في بعض النسخ : عند جهلة الناس .

أي من اظهره جانبه للحق هلك عند جهال الناس ، و المقصود من هذا الكلام نفسه عليه السلام ، و المعنى ان الانسان اذا اراد اظهار الحق في مقابلة الباطل ،

و مكافحة الجهال ، بأن يكلفهم الحق ، و يحمّلهم على صعوبته و مرارته ، يكون معرضا للهلاك ، لأن الناس لا يسكتون عمن يزاحمهم في منافعهم ، و يعاملهم بما لا تشتهي انفسهم لانهم العامة و فيهم الكثرة الا اذا عجزوا عن المقاومة بسبب ضعفهم و قوة خصمهم ، كل حكومة او أمة اذا تجردت لاظهار الحق و العدل لا يستقيم امرها ، و تكثر فيها الفتن و المؤامرات .

و كذلك كل حكومة او دولة اذا تجرّدت للباطل و الظلم فان مصيرها الانقراض و الانهيار ، الا اذا كانت ذات قوة قاهرة تقضي على كل مخالف معارض ، و انما يستقيم الامر و يتم اذا كان الحق ممزوجا بالباطل ، و العدل مشوبا بالظلم ،

و اليك الحديث المفسر لما نحن فيه :

في زهر الربيع للجزائري ره : سئل الامام الصادق عليه السلام ، عن الخلفاء الاربعة بعد رسول الله صلى الله عليه و آله : ما بال الشيخين قد انتظمت لهما امور الخلافة ، و جرت على أيديهم فتوح البلاد من غير معارضة احد من المسلمين ؟ و ما بال عثمان و أمير المؤمنين عليه السلام لم ينتظم لهما امور الخلافة ؟ بل قامت المسلمون

[20]

على عثمان و حصروه في داره ، و قتلوه في وسط بيته ، و أما أمير المؤمنين عليه السلام فثارت الفتن في زمن خلافته حتى قتل الناكثين و القاسطين و المارقين ؟ ؟

فاجاب عليه السلام : أن امور الدنيا و الخلافة فيها لا يجري بباطل بحت محض و لا بحق خالص ، بل يجري بحق و باطل ممزوجين فاما عثمان فاراد ان يجري امور الخلافة بمحض الباطل فلم يتم له الأمر .

و اما أمير المؤمنين عليه السلام فأراد ان يجري احكامها على الطريقة المستقيمة و السنن النبوية فلم يحصل له ما اراد و اما الشيخان فأخذا قبضة من الحق و قبضة من الباطل فجرت لهما الأمور كما أرادا .

و يحتمل ان يكون المعنى : من خاصم الحق و عارضه هلك « و كفى بالمرء جهلا ان لا يعرف قدره » لهذه الجملة احتمالان : الاول : كفى بالمرء جهلا ان يطلب فوق قدره و درجته ، كالجاهل يعرف نفسه عالما و الفاسق مؤمنا ، و الوضيع شريفا و هلمّ جرا الى ان يعرف الانسان نفسه خليفة و هو لا يعرف معنى الأب و هكذا .

و الثاني ان ينزل نفسه دون ما هي . فالشريف يجالس الأوباش ، و المؤمن يعاشر الفساق و لكن الظاهر ان المقصود هو الاحتمال الاول ، فيكون المراد الاشخاص الذين تقمّصوا الخلافة و هم يعلمون انهم ليسوا بأهلها ، و الذين ادّعوا الامامة و هم يعرفون انفسهم بعدم لياقتهم و كفائتهم لها « لا يهلك على التقوى سنخ اصل » اي كل عمل كان بناؤه و اساسه على

[21]

التقوى لا يهلك و لا يضمحل ما دام بنيانه قائما على أصول الموازين الشرعية و الأحكام الالهية .

« و لا يظمأ عليها زرع قوم » لما كان الزرع انما يبقى بالماء ، فاذا لم يصل إليه الماء الكافي فسد و ذبل و اصفرّ ، كذلك مشروع اذا تأسس على التقوى لا يحتاج الى الماء لادامة حياته و ابقائه ، و كذلك كل عمل و بناء و

مشروع تأسس على الظلم و الجور ، او المعصية لا يدوم ذلك البناء بل لا تنقضي الأيام و الليالي أو الاعوام إلا و تنهدم و تنهار ، و اليك مثالا من القرآن الكريم شاهدا لما نحن فيه .

قال المفسرون : ان بني عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قباء بضم القاف و هو موضع بقرب المدينة المنورة من جهة الجنوب ، فلما فرغوا من بنائه بعثوا الى رسول الله صلى الله عليه و آله ان يأتيهم ، فأتاهم النبي ، و صلى في مسجدهم ،

فحسدهم جماعة من المنافقين من بني غنم بن عوف فقالوا : نبني مسجدا فنصلي فيه ،

و لا نحضر جماعة محمد ، و كانوا اثنى عشر رجلا ، و قيل . خمسة عشر ، فبنوا مسجدا الى جنب مسجد قباء ، فلما فرغوا منه اتوا رسول الله صلى الله عليه و آله و هو يتجهز الى تبوك ، فقالوا : يا رسول الله : إنا قد بنينا مسجدا لذي العلة و الحاجة و الليلة المطيرة و الشاتية ، و انا نحب أن تأتينا فتصلي فيه لنا ، و تدعو بالبركة .

فقال رسول الله صلى الله عليه و آله . اني على جناح السفر ، و لو قدمنا اتيناكم ان شاء الله ، و صلينا لكم فيه « فلما انصرف رسول الله من تبوك نزلت

عليه الآيات في شأن المسجد : و الذين اتخذوا مسجداً ضراراً و كفراً و تفريقاً بين المؤمنين ، و إرصاداً لمن حارب اللّه و رسوله من قبل ، و ليحلفن إن أردنا إلا الحسنى و اللّه يشهد انهم لكاذبون . لا تقم فيه أبداً ، لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق ان تقوم فيه ، فيه رجال يحبّون ان يتطهروا و اللّه يحب المطهّرين ، أ فمن أسس بنيانه على تقوى من اللّه و رضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار ؟ فانهار في جهنم و اللّه لا يهدي القوم الظالمين 1 فبعث رسول الله صلى الله عليه و آله عمارا و وحشيا و قال لهما : إنطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدما و حرّقاه . و أمر ان يتخذ كناسة يلقى فيه الجيف فالمستفاد مما تقدم : أن عمل المؤمن المتقي ثابت مستقيم مبني على أصل صحيح ثابت و عمل المنافق ليس بثابت بل ساقط في نار جهنم ، و المقصود : ان أمير المؤمنين عليه السلام يقول هنا : إن أعمالي و افعالي على أسس التقوى العدالة الالهية ، فلا اخاف من المخالفين المعارضين ، و خاصة اذا علمت و تيقنت أن تلك الافعال هي ما أمر الله تعالى بها .

« فاستتروا في بيوتكم ، و اصلحوا ذات بينكم ، و التوبة من ورائكم حيث ان هذه الخطبة هي اول خطبة خطب بها امير المؤمنين عليه السلام بعد ما بويع له بالخلافة بعد مقتل عثمان ، كما تقدم الكلام في صدر الخطبة في الجزء الاول ، و خاصة هذه الجملات فانها مسبوقة بقوله عليه السلام : (ان الله داوى هذه الامة بدوائين : السوط و السيف ، لا هوادة عند الامام فيها ، فاستتروا في بيوتكم و اصلحوا ذات بينكم و التوبة من ورائكم . . الخ) و هذا يمكن ان

----

(1) سورة التوبة

نقول : ان هذه الجملات إنذار و تهديد لكل من يخالف حكم الله عز و جل ،

فكأنه عليه السلام أمرهم بالهدوء و مراعات النظام و عدم الاخلال بالامن العام و الاعتزال من إثارة الفتن و المشاغبات فيما بين المسلمين ، و حيث ان جماعة كانوا من المنحرفين عن أمير المؤمنين عليه السلام في ايام الخلفاء الثلاثة ، و لما تمت الخلافة للامام عليه السلام خافوا على أنفسهم من سطوة الامام و نقمته و لهذا رفع الامام لهم راية الأمن و الامان بقوله : (و التوبة من ورائكم) فكأنه يقبل التوبة و الندم و الاعتذار من اولئك

المنحرفين عنه « و لا يحمد حامد إلا ربه ، و لا يلم لائم الا نفسه » لعله عليه السلام يشير بكلامه إلى أن كل خير و سعادة فهو من الله تعالى ، فاذا حصل للانسان لا يحمد أحدا إلا ربه ، لان الله هو الذي بيده كل خير ،

و إذا اتفقت للانسان أمور غير مرضية من المعاصي و الذنوب ، فالسبب في ذلك نفسه فقط ، و لا يتوجه اللوم إلا الى نفسه .

و إلى هنا انتهت الخطبة السادسة عشر

الخطبة السابعة عشر

المتن

و من كلام له عليه السّلام في صفة من يتصدّى للحكم بين الأمّة و ليس لذلك بأهل .

إنّ أبغض الخلائق إلى الله رجلان : رجل وكله الله إلى نفسه ،

فهو جائر عن قصد السّبيل ، مشغوف بكلام بدعة و دعاء ضلالة ،

فهو فتنة لمن إفتتن به ، ضالّ عن هدى من كان قبله ، مضلّ لمن إقتدى به في حياته و بعد مماته ، حمّال خطايا غيره ، رهن بخطيئته .

و رجل قمش جهلا ، موضع في جهّال الأمّة ، عاد في أغباش الفتنة ، عم بما عقد الهدنة قد سمّاه أشباه الناس عالما و ليس به ،

بكّر فاستكثر من جمع ما قلّ منه خير ممّا كثر ، حتّى إذا إرتوى من آجن ، و اكتنز من غير طائل ، جلس بين النّاس قاضيا ، ضامنا لتخليص ما إلتبس على غيره ، فإن نزلت به أحدى المبهمات هيّأ لها حشوا رثّا من رأيه ثمّ قطع به ، فهو من لبس الشّبهات في مثل نسج العنكبوت ، لا يدري أصاب أم أخطأ ، و إن أخطأ ترجّا

[25]

أن يكون قد أصاب ، جاهل خبّاط جهالات ، عاش ركّاب ، عشوات لم يعضّ على العلم بضرس قاطع ، يذري الرّوايات إذراء الرّيح الهشيم ،

لا مليء و الله بإصدار ما ورد عليه ، و لا هو بأهل لما فوّض إليه ، لا يحسب العلم في شيء ممّا أنكره ، و لا يرى أنّ من ورآء ما بلغ مذهبا لغيره ، و أن أظلم عليه أمر إكتتم به لما يعلم من جهل نفسه ، تصرخ من جور قضائه الدّماء ، و تعجّ منه المواريث ، إلى الله أشكو من معشر يعيشون جهّالا ، و يموتون ضلّالا ، ليس فيهم سلعة أنفق بيعا و لا أغلى ثمنا من الكتاب إذا حرّف عن مواضعه ، و لا عندهم أنكر من المعروف و لا أعرف من المنكر .

اللغة

الجائر عن قصد السبيل : الضال عن الطريق المستقيم . الشغاف : غلاف القلب ، يقال : شغفه الحب : اذا بلغ شغافه . و اللهج : الولوع بالشيء . رهن بخطيئته : مرهون مأخوذ بها . و القمش بفتح القاف : جمع الشيء المتفرق عاد : من العدو أيّ المشي ، او من العدوان . أغباش جمع غبش . ظلمة الليل .

و الآجن : المتعفن المتغير . و الطائل : تقول : هذا لا طائل فيه : لا غنى و لا فيه مزية . الحشو : الكثير الذي لا فائدة فيه .

المعنى

لقد روى الطبرسي ره في الاحتجاج هذه الخطبة بصورة أخرى و هي :

روي انه عليه السلام قال : إن أبغض الخلائق إلى الله رجلان : رجل وكله الله إلى نفسه ، فهو حائر عن قصد السبيل سائر بغير علم و لا دليل ، مشغوف بكلام بدعة و دعاء ضلالة ، فهو فتنة لمن إفتتن به ، ضال عن هدى من كان قبله مضل لمن اقتدى به في حياته و بعد وفاته ، حمّال خطايا غيره رهن بخطيئته و رجل قمش جهلا فوضع في جهلة الامة ، عان ما غبّاش فتنة ، قد لهج منها بالصوم و الصلاة ، عم بما في عقد الهدنة ، قد سماه الله عاديا متسلخا ، و قد سماه الناس أشباه الرجال عالما و لما يغن في العلم يوما سالما ، بكر فاستكثر من جمع ما قل منه خير مما كثر ، حتى اذا ارتوى من آجن . و اكثر من غير طائل ، جلس بين الناس مفتيا قاضيا ، ضامنا لتخليص ما التبس على غيره ، إن خالف من سبقه لم يأمن من نقض حكمه من أتى بعده ، كفعله بمن كان قبله ، فان نزلت به إحدى المعضلات (المبهمات خ ل) هيأ لها حشوا من رأيه ثم قطع به ، فهو من لبس الشبهات في مثل نسج العنكبوت ، خباط جهالات ، و ركاب عشوات ، و مفتاح شبهات ، فهو و إن أصاب أخطأ ، و إن أخطأ رجا أن يكون قد أصاب ، فهو من رأيه مثل نسج العنكبوت الذي اذا مرت به النار لم يعلم بها ، لم يعض على العلم بضرس قاطع فيغنم ، يذري الروايات اذراه الريح الهشيم ، لا ملىء و الله باصدار ما ورد عليه ، لا يحسب العلم في شيء مما انكره ، و لا أن من وراء ما ذهب فيه مذهب ناطق ، و إن قاس شيئا بشيء لم يكذّب رأيه كيلا يقال له : لا يعلم

شيئا . و ان خالف قاضيا سبقه لم يأمن في صحته حين خالفه ، و إن أظلم عليه أمر إكتتم به لما يعلم من معشر يعيشون جهالا و يموتون ضلالا ، لا يتعذر مما لا يعلم فيسلم ، تصرخ منه الدماء ، و تولول منه الفتيا ، و تبكي منه المواريث ، و يحلل بقضائه الفرج الحرام و يحرم بقضائه الفرج الحلال ، و يأخذ المال من أهله و يدفعه إلى غير أهله .

و في رواية المفيد في الارشاد بعد ذكر الكلام نحوا مما تقدم : انه عليه السلام قال بعد ذلك :

ايها الناس : عليكم بالطاعة و المعرفة بمن لا تعذرون بجهالة ، فأن العلم الذي هبط به آدم عليه السلام ، و جميع ما فضلت به النبيّون إلى خاتم النبيين في عترة نبيكم محمد صلى الله عليه و آله فأنى يتاه بكم ؟ بل أين تذهبون ؟ يا من نسخ من أصلاب أصحاب السفينة ، هذه مثلها فيكم ، فاركبوها ، نجى في هاتيك من نجى ، فكذلك ينجو في هذه من دخلها ، انا رهين ، قسما حقا ، و ما انا من المتكلفين ،

و الويل لمن تخلف ، أما بلغكم ما قال نبيكم حيث يقول في حجة الوداع :

إني تارك فيكم الثقلين ، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي : كتاب الله و عترتي اهل بيتي ، إنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما ؟

هذا عذب فرات فاشربوا ، و هذا ملح أجاج فاجتنبوا .

و ذكر شيخنا المجلسي ره في الثامن من البحار هذه الخطبة بصورة اخرى ، مع زيادة و نقيصة نشير اليها في ضمن الشرح فنقول :

قال عليه السلام « ان ابغض الخلائق الى الله رجلان » كذا في النهج و بعض

الكتب ، و لكن المجلسي ذكر هكذا : « إن ابغض الخلائق الى الله رجل » و المقصود أن الامام عليه السلام قسّم علماء السوء و ائمة الضلالة الى قسمين : قسم إقتدي به الناس في اصول العقائد ، فأضلهم عن الحق و الهداية ، فوصفه الامام عليه السلام بأوصاف ثمانية :

الأول : (وكله الله إلى نفسه) أي تركه الله و نفسه ، لا يعصمه عن الذنوب و المعاصي ، لأن الانسان اذا توكل على ربه أحبه الله كما قال تعالى :

ان الله يحب المتوكلين . و على الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين . و على الله فليتوكل المتوكلون . و من يتوكل على الله فهو حسبه فالمقصود أن الله تعالى يكفي عبده المتوكل عليه في كل امر توكل فيه ، و هو تعالى يحب المتوكل ، فاذا أبغض عبدا سلب منه التوكل ، بل وكله الى نفسه ، و فوض أمره الى نفسه فيهلك ، كما قال عليه السلام : « و لا تكلني الى نفسي طرفة عين » فاذا انتفى التوكل من العبد انتقلت الكفاية من الله ، فيكون العبد موصوفا بهذه الاوصاف .

الوصف الثاني : « جائر عن قصد السبيل » و في رواية : حائر عن قصد السبيل . و النتيجة واحدة . و هي الضلالة ، و الجائر هو الضال عن الطريق المستقيم .

الوصف الثالث : « مشغوف بكلام بدعة و دعاء ضلالة » قد ذكرنا معنى الشغف و الشغاف في اللغة ، يقول عليه السلام : ان الرجل يحب البدعة حبا شديدا ، و يميل الى كلامه الذى لا أصل له ميلا مفرطا ، و يحب أيضا أن يدعو الناس الى الضلالة و الانحراف عن الحق ، كما قال رسول الله صلى الله عليه و آله « كل بدعة ضلالة و كل ضلالة في النار » و قال ايضا : « أبى الله لصاحب البدعة التوبة قيل يا رسول الله و كيف ذاك ؟ قال : انه اشرب قلبه حبها » و معنى البدعة في اللغة هو الابتداع و الاختراع ، يقال : ابتدع الامر أي أحدثه ، و معناها

في العرف . زيادة في الدين او نقصان منه ، أو ادخال ما ليس من الدين في الدين ،

و معناها فى الشرع : كل عبادة لم تكن مشروعة ثم احدثت بغير دليل شرعي ،

أو دل دليل شرعي على نفيها أو كل رأي او دين او حكم او عبادة لم يرد من الشارع حكم بخصوصها ، و لا في ضمن حكم عام .

و هناك تعاريف أخر في معنى البدعة اوسع مما تقدم ، ذكرها فقهاؤنا عليهم الرحمة ، و في هذا المقدار كفاية .

فهذا الرجل المبغوض يحب احداث القوانين في الدين من تلقاء نفسه ، من غير دليل شرعي او قيام دليل شرعي على خلافها ، فالذي يحب البدعة حبا جمّا يحب اضلال الخلق بالنتيجة .

الوصف الرابع : (فهو فتنة لمن افتتن به) للفتنة معاني كثيرة وردت في القرآن الكريم ، و لعلها تبلغ عشرة معان ، و لكن الظاهر ان المقصود من الفتنة هنا هو المعنى المتعارف .

الوصف الخامس : (ضال عن هدي من كان قبله) الهدى هنا السيرة و الطريقة ، أي ذلك الرجل منحرف عن طريقة من كان قبله من الائمة عليهم السلام و سيرتهم ، و يخالف من كان قبله من الذين اوجب الله طاعته ، كما في الكافي عن مولانا الامام الكاظم موسى بن جعفر عليهما السلام أنه قال : ان ابا حنيفة كان يقول : قال علي و قلت و قالت الصحابة و قلت هذا) و روي ايضا أنه قال :

« خالفت جعفر بن محمد الامام الصادق في جميع ما قاله ، و لم ادر انه يغمض عينيه في السجود او يفتحها ، ففتحت واحدة و غمضت اخرى لتكون مخالفة له على التقديرين » و في بعض النسخ (ضال عن هدى بضم الهاء و معنى الهدى الرشاد ، و الدلالة .

[30]

يعني انه يعرف الحق ثم يخالفه ، لأنه يتبع رأيه الفاسد و ذهنه الكاسد ، و هذا شأن المغتر بنفسه ، المعجب بكلامه ، المستبد برأيه ، المستغني بمخترعاته و مبتدعاته عن الرجوع الى أهل الشرع ، و قد حكي الزمخشري في ربيع الأبرار . قال : قال يوسف بن أسباط : « ردّ أبو حنيفة على النبي صلى الله عليه و آله أربعمائة حديث أو اكثر ؟

قيل : ما ذا ؟ قال : قال رسول الله صلى الله عليه و آله : للفرس سهمان و للراجل سهم واحد) 1 و قال ابو حنيفة : (لا أجعل سهم البهيمة اكثر من سهم المؤمن) ، و أشعر 2 رسول الله و اصحابه البدن في الحج و قال أبو حنيفة :

(الاشعار مثلة) و قال رسول الله صلى الله عليه و آله : البيّعان البائع و المشتري بالخيار ما لم يفترقا) و قال ابو حنيفة : (اذا وجب البيع لزم) و كان صلى الله عليه و آله يقرع بين نسائه إذا أراد سفرا . و قال ابو حنيفة :

القرعة قمار) » هذه رواية واحدة من مئات الروايات التى بهذا المضمون ، و قد ذكر بعضها الخطيب البغدادي في تاريخه في حرف النون ، في ترجمة هذا الرجل ، فهذا هو الاجتهاد في مقابل النص ، و مخالفة صريحة للنبي الأقدس ، مع العلم ان اطاعة النبي واجبة على المسلمين عامة بتصريح من القرآن الكريم ، فلعل ابا حنيفة كان مستثنى من هذا الحكم ، فلنقل تنازلا : ان جعفر بن محمد الذي كان اماما وحجة

----

(1) في غنيمة الجهاد

----

(2) إشعار الهدي هو ان يقلد بنعل و يطعن في شق سنامه الأيمن بحديدة حتى يدميه ليعرف بذلك أنه هدي .

[31]

على اهل زمانه و فيهم ابو حنيفة لم تكن إطاعته واجبة على ابي حنيفة ، و لكن هل كان يسوغ له أن يخالف أعلم اهل زمانه ؟ و من ورث الحكمة و العلم من اهل بيت النّبوة و الرسالة ؟ أو هل اوحى اليه الشيطان أن الرشد و الفلاح في خلاف اهل البيت ؟ ؟ أو أنه نظر الى كلام رسول الله صلى الله عليه و آله حيث قال : اني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله و عترتي أهل بيتي ، و إنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض .

و انه كان يعلم علم اليقين أنه ما بلغ إلي ما بلغ الا من بركات ما كان يطفح عليه من علوم الامام الصادق عليه السلام ، و هو الذي قال : كنا نكتب في درس جعفر بن محمد في كل يوم سبعمائة مسألة) . هذا و الكلام طويل ، و لكن رعاية للعواطف نترك بيان الحقائق الوصف السادس : « مضل لمن اقتدى به في حياته و بعد وفاته » و في نسخة أخرى : و بعد موته . اي ذلك الرجل يضل من تبعه و أخذ بقوله في حياته ،

و يضل أيضا من اقتدى به بعد موته ممن اتبعوا كلامه ، و أطاعوه في رأيه ، أ لا ترى الملايين من المسلمين في هذا اليوم من الذين ضلوا و أضلهم كلام بعض الدجالين من المخالفين لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه و آله . و لا نحتاج الى مثال الوصف السابع : « حمّال خطايا غيره » أي كما انه يحمل خطايا نفسه كذلك يحمل خطايا من اتبعه و اقتدى به ، كما قال تعالى : ليحملوا اوزارهم كاملة يوم القيمة و من أوزار الذين يضلونهم بغير علم الا ساء ما يزرون و هناك احاديث واردة من اهل بيت العصمة عليهم السلام في هذا الموضوع منها :

[32]

قال رسول الله صلى الله عليه : (ايها داع دعا الى الهدى فاتبع كان له مثل اجر من اتبعه ، لا ينقص من اجورهم شيء ، و ايها داع دعا الى ضلالة فاتبع كان عليه وزر من اتبعه ، لا ينقص من آثامهم شيء) و ما روي عنهم عليهم السلام : (من سنّ سنة حسنة فله اجرها و أجر من عمل بها ، و من سن سنة سيئة فعليه وزرها و وزر من عمل بها) .

و هذا أمر بديهي لا يحتاج الى دليل و برهان بان من أضل الناس او صار سببا لاضلالهم يعاقب عقابين ، و يعذب عذابين : عقابا لنفس الاضلال ، و عقابا لما صدر من تابعيه لأنه السبب في صدور تلك الاعمال .

الوصف الثامن : « رهن بخطيئته » يعني ان الرجل مرهون أي مأخوذ بخطاياه ، يعاقب و يعذب عليها ، لا يقبل منه التوبة ، و لا ينفعه الاستغفار الا بعد هداية الذين اضلهم ، و اراءة الطريق المستقيم لهم ، و هذا امر قل من ينجح فيه ، و هناك روايات و احاديث تؤيد ما نحن فيه ، و ذلك كما في البحار عن الامام الصادق عليه السلام قال : رجل في الزمن الاول طلب الدنيا من حلال فلم يقدر عليها ، و طلبها من حرام فلم يقدر عليها ، فاتاه الشيطان فقال : يا هذا انك طلبت الدنيا من حلال فلم تقدر عليها ، و طلبتها من حرام فلم تقدر عليها ، ا فلا ادّلك على شيء يكثر به تبعك ؟ قال : بلى . قال : تبتدع دينا جديدا و تدعو اليه الناس . ففعل ، فاستجاب له الناس و اطاعوه ، و أصاب من الدنيا ، ثم انه فكر ،

فقال : ما صنعت ؟ ابتدعت دينا و دعوت اليه الناس ؟ ما أرى لي توبة الا ان آتي من دعوته اليه فأرده عنه .

فجعل يأتي اصحابه الذين اجابوه فيقول لهم : ان الذي دعوتكم اليه

[33]

باطل ، و انما ابتدعته ، فجعلوا يقولون له : كذبت ، و هو الحق . و لكنك شككت في دينك فرجعت عنه .

فلما رأى ذلك عمد الى سلسلة فوتد لها وتدا ، ثم جعلها في عنقه ، و قال :

لا احلها حتى يتوب الله عز و جل علي . فاوحى الله عز و جل الى نبي من الانبياء : قل لفلان : و عزتي لو دعوتني حتى تنقطع اوصالك ما استجبت لك حتى ترد من مات على ما دعوته اليه فيرجع عنه قد ذكرنا ان الامام عليه السلام قسم علماء السوء و ائمة الضلالة على قسمين : قسم اقتدى به الناس في أصول العقائد ، و ذكرنا اوصافهم الثمانية ،

و القسم الثاني هم الذين اقتدى بهم الناس في فروع الدين ، و معالم الشرع ، و هم قضاة الجور و فقهاء السوء من اهل الفتاوى ، فوصفهم الامام عليه السلام باحدى و عشرين وصفا ، و قبل الخوض في هذا الموضوع لا بأس بذكر بعض الاخبار و الاحاديث التي تدل على خطر الفتيا ، و الاخطار المتوجهه الى المفتي و القاضي ، او كل من يسئل عن شيء من فروع الدين ، حتى يعرف القارىء الكريم اهمية هذا العمل فيعرف ضمنا ذنوب المفتي بغير علم ، و خطايا القاضي الجاهل الذي يلعب باموال الناس و دمائهم و اعراضهم ، و يجلس في مجلس الحكم و هو ليس بأهل لذلك فنقول :

في البحار : روى الامام الرضا عليه السلام عن آبائه عن امير المؤمنين عليهم السلام انه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و آله : (من افتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السموات و الارض) و عن الامام الصادق عليه السلام انه قال : (اياك و خصلتين مهلكتين :

ان تفتى الناس برأيك و تقول ما لا تعلم)

ايضا عن الامام الصادق عليه السلام ان قال : (من افتى الناس بغير علم و لا هدى من الله لعنته ملائكة الرحمة و ملائكة العذاب و لحقه وزر من عمل بفتياه .

و عن عبد الله بن شبرمه قال : ما اذكر حديثا سمعته من جعفر بن محمد عليهما السلام إلا كاد أن ينصدع قلبي : قال : قال ابي عن جدي عن رسول الله صلى الله عليه و آله قال ابن شبرمه : و أقسم بالله ما كذب ابوه و لا جده ، و لا كذب جده على رسول الله فقال : قال رسول الله صلى الله عليه و آله : (من عمل بالمقاييس هلك 1 و من أفتى الناس و هو لا يعلم الناسخ من المنسوخ ، و المحكم من المتشابه فقد هلك و أهلك) .

و قال امير المؤمنين عليه السلام : (القضاة اربعة ، ثلاثة منهم في النار ،

و واحد في الجنة : قاض يقضي بالباطل و هو يعلم أنه باطل فهو في النار ، و قاض يقضي بالباطل و هو لا يعلم أنه باطل فهو في النار ، و قاض يقضي بالحق و هو لا يعلم أنه حق فهو في النار ، و قاض يقضي بالحق و هو يعلم أنه حق فهو في الجنة) .

هذه أحاديث إقتطفناها من البحار و هي كثيرة جدا ، و لكنا إكتفينا بهذا المقدار ففيه تبصرة لمن تبصر ، و عبرة لمن إعتبر ، فلنشرع في شرح الكلمات :

الوصف الأول : و رجل قمش جهلا » اي جمع من أفواه الناس و من الروايات التي لا أصل لها و لا صحة ، اشياء متفرقة و لقطات مختلفة من هيهنا و هيهنا فهذه الاشياء لا يقال لها علم ، بل هي جهل مركب ، و في نسخة الامالى للمفيد ره (قد قمش علما من اغمار غشوة و أوباش فتنة ، فهو في عمى من الهدى الذي أتى به من عند ربه ، و ضال عن سنة نبيه صلى الله عليه و آله ، يظن ان الحق في صحفه ، كلا و الذي نفس ابن ابي طالب بيده ، قد ضل و اضل من افترى)

----

(1) المقاييس :

و الأحسن ان نذكر لك مثالا و شاهدا لتعرف كيف أخذ بعض الجهلة السفلة من الناس الأخبار ؟ ممن أخذوها ؟ و كيف جمعوا الروايات المزيفة و آمنوا بها ؟ :

روى المامقاني ره في رجاله في ترجمة سفيان الثوري رواية طويلة نذكرها بتمامها :

عن ميمون بن عبد الله : قال : اتى قوم ابا عبد الله الصادق عليه السلام يسألونه الحديث من اهل الامصار و انا عنده ، فقال الامام لي : ا تعرف احدا من القوم ؟ قلت : لا . قال . كيف دخلوا علي ؟ قلت . هؤلاء يطلبون الحديث من كل وجه ، لا يبالون ممن اخذوا الحديث . فقال عليه السلام لرجل منهم . هل سمعت من غيري من الحديث ؟

الرجل . نعم .

الامام . فحدثني ببعض ما سمعت .

الرجل . انما جئت لا سمع منك ، و لم اجيء احدثك .

الامام يلتفت الى رجل اخر ذلك ما يمنعه ان يحدثني بما سمع ؟

ثم التفت الى الرجل مستفهما ؟ . تتفضل ان تحدثني بما سمعت ، اجعل الذي حدثك حديثه امانه لا تحدث به أحدا ؟

الرجل : لا الامام . فأسمعنا بعض ما إقتبست من العلم نقتدي بك ان شاء الله تعالى الرجل : حدثني سفيان الثوري عن جعفر بن محمد الصادق قال . (النبيذ كله حلال إلا الخمر) ثم سكت

[36]

الامام : زدنا الرجل : حدثني سفيان الثوري عمن حدثه عن محمد بن علي الباقر انه قال : (من لا يمسح على خفيه في الوضوء فهو صاحب بدعة ، و من لم يشرب النبيذ فهو مبتدع ، و من لم يأكل الحريث و طعام اهل الذمة و ذبائحهم فهو ضال ، اما النبيذ فقد شربه عمر ، نبيذ زبيب فرشحه بالماء ، و اما المسح على الخفين فقد مسح عمر علي الخفين ثلاثا في السفر ، و يوما و ليلة في الحضر ، و اما الذبائح فقد اكلها علي و قال : كلوها ، فان الله تعالى يقول : اليوم احل لكم الطيبات ، و طعام الذين اوتوا الكتاب حلّ لكم و طعامكم حل لهم . ثم سكت .

الامام : زدنا الرجل : قد حدثتك بما سمعت .

الامام : ا كل الذي سمعت هذا ؟

الرجل : لا .

الامام : زدنا .

الرجل : حدثنا عمرو بن عبيد عن الحسن لعله البصرى قال : (اشياء صدقوا الناس بها ، و اخذوا بها ، و ليس في الكتاب لها اصل ، منها :

عذاب القبر ، الميزان ، الحوض ، الشفاعة ، و منها : النية . ينوي الرجل من الخير و الشر فلا يعمله فيثاب عليه و لا يثاب الرجل الا بما عمل ، ان خيرا فخيرا ، و ان شرا فشرا .

قال الراوي : فضحكت من حديثه ، فغمزني ابو عبد الله الصادق ان

[37]

اسكت حتى نسمع . فرفع الرجل رأسه الى و قال : ما يضحكك ؟ أ من الحق أم من الباطل ؟ قلت اصلحك الله ، و أبكي ؟ انما يضحكني منك تعجبا كيف حفظت هذه الاحاديث فسكت .

الامام : زدنا .

الرجل : حدثنا سفيان الثوري عن محمد بن المكندري انه رأى عليا على منبر الكوفة و هو يقول : (لئن اوتيت برجل يفضلني على ابي بكر و عمر لأجلدنه حدّ المفتري) الامام : زدنا الرجل : حدثنا سفيان الثوري عن جعفر بن محمد يعني الصادق انه قال : (حب أبي بكر و عمر ايمان ، و بغضهما كفر) الامام . زدنا الرجل . حدثني يونس بن عبيد عن الحسن : ان علي بن ابي طالب ابطأ عن بيعة أبي بكر فقال له عتيق . ما خلفك يا علي عن البيعة ؟ و الله لقد هممت ان اضرب عنقك فقال علي : يا خليفة رسول الله لا تثريب فقال ابو بكر .

ا لا تثريب .

الامام : زدنا الرجل : حدثني سفيان الثوري عن الحسن : ان أبا بكر أمر خالد إبن الوليد أن يضرب عنق علي اذا سلم من صلاة الصبح ، و أن أبا بكر سلم بينه و بين نفسه ثم قال : يا خالد لا تفعل .

الامام . زدنا

[38]

الرجل : حدثني نعيم بن عبد الله عن جعفر بن محمد الصادق انه قال : ودّ علي بن ابي طالب أنه بنخيلات ينبع ، يستظل بظلّهن ، و يأكل من حشفهن ، و لم يشهد يوم الجمل و لا النهروان . و حدثني به سفيان عن الحسن .

الامام : زدنا الرجل : حدثنا عباد عن جعفر بن محمد : انه قال : لما رأى علي بن ابي طالب يوم الجمل كثرة الدماء قال لابنه الحسن : يا بني هلكت . فقال الحسن له :

يا أبة ا ليس قد نهيتك عن هذا الخروج ؟ قال علي : يا بني لم ادر أن الأمر يبلغ هذا المبلغ الامام : زدنا الرجل : حدثنا سفيان الثوري عن جعفر بن محمد : أن عليا لما قتل أهل صفين بكى عليهم ، و قال : جمع الله بيني و بينهم في الجنة قال الراوي : فضاق بي البيت ، و عرقت ، و كدت أن أخرج من مسكي ،

فأردت أن اقوم اليه فأتوطأه ، ثم ذكرت غمز أبي عبد الله عليه السلام فكففت .

الامام : من أي البلاد أنت ؟

الرجل : من البصرة .

الامام : هذا الذي حدثت عنه و تذكر اسمه جعفر بن محمد هل تعرفه ؟

الرجل : لا .

الامام : فهل سمعت منه شيئا قط ؟

الرجل : لا .

الامام : فهذه الاحاديث عندك حق ؟

[39]

الرجل . نعم .

الامام . فمتى سمعتها ؟

الرجل . لا احفظه ، الا انها أحاديث اهل مصرنا منذ دهرنا ، لا يمترون فيها الامام . لو رأيت هذا الرجل الذي تحدث عنه يعني نفسه فقال لك :

هذه التي ترويها عني كذب ، و قال : لا اعرفها ، و لم احدث بها . هل كنت تصدقه ؟

الرجل : لا .

الامام : و لم ؟

الرجل : لأنه شهد على قوله رجال لو شهد احدهم على عتق رجل لجاز قوله .

الامام : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، حدثني ابي عن جدي . . .

الرجل . ما اسمك ؟

الامام : ما تسأل عن إسمي ؟ إن رسول الله صلى الله عليه و آله قال : خلق الله الأرواح قبل الاجساد بألفي عام ، ثم أسكنها الهواء ، فما تعارف منها ائتلف هيهنا ، و ما تناكر ثمة اختلف هيهنا ، و من كذب علينا اهل البيت حشره الله يوم القيامة اعمى يهوديا ، و إن ادرك الدجال آمن به ، و إن لم يدرك آمن به في قبره .

يا غلام : ضع لي ماء ، و غمزني فقال : لا تبرح : فقام القوم و انصرفوا و قد كتبوا الحديث الذي سمعوه منه ، ثم انه عليه السلام خرج و وجهه منقبض قال : ا ما سمعت ما يحدث به هؤلاء ؟ قلت : اصلحك الله ما هؤلاء و ما حديثهم ؟ . . . الخ

[40]

ايها القارىء قد ظهر لك المقصود من ذلك الوصف السابق ،

و هو الذي يجمع الأشياء المتفرقة من أفواه الناس بلا تحقيق و لا تأمل ، بحيث انه يروي هذه الأحاديث عن سفيان الثوري : الكذاب الوضاع المدلس ، و حينما يسأله الامام الصادق عليه السلام : « لو رأيت هذا الرجل الذي تحدث عنه يعني الامام نفسه فقال : هذه التي ترويها عنى كذب ، و لا أعرفها ، و لم احدث بها هل كنت تصدقه ؟ » فاجاب الرجل الأحمق : لا .

فما قيمة هذا العالم ؟ أ فلا يكون هذا الرجل من ابغض الخلائق الى الله تعالى ؟ .

الوصف الثاني : « موضع في جهال الأمة » و في نسخة اخرى : فوضع في جهلة الأمة . الموضع (بكسر الضاد) الذي يوضع الأحاديث اي يخترعها و ينسبها إلى النبي او الأئمة عليهم السلام كأبي هريرة و سمرة بن جندب و سفيان الثوري الذي تقدم ذكره و أمثالهم و إليك مثالا : روى ابن ابي الحديد و غيره : ان معاوية بن ابي سفيان بذل لسمرة بن جندب مائة الف درهم ، على أن يروي أن هذه الآية نزلت في علي عليه السلام : و من الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا و يشهد الله على ما قلبه و هو ألد الخصام ، و إذا تولي سعى في الأرض ليفسد فيها و يهلك الحرث و النسل و الله لا يحب الفساد .

و أن هذه الآية نزلت في ابن ملجم : و من الناس من يشري نفسه إبتغاء مرضات الله و الله رؤف بالعباد . فلم يقبل ، فبذل مأتي الف درهم فلم يقبل ،

فبذل ثلثمائة الف درهم فلم يقبل ، فبذل أربعمائة الف درهم فقبل .

و لأن يوضع في جهال الناس ، لأن العلماء لا يوافقون على كلامه ، و الموضع

[41]

(بفتح الضاد) هو الوضيع الذي لا شرف له عند الناس فهو ذليل ، و لعل الامام عليه السلام كان يقصد بهذا الوصف شخصا معينا ، و في نسخة اخرى . قمش جهلا فوضعه في جهال الأمة . فعلى هذا يكون الوصفان وصفا واحدا الوصف الثالث . « عاد في أغباش الفتنة » عاد إسم فاعل من العدو ، اي السعي ، و أغباش الفتنة . ظلماتها . و في نسخة . غار في اغباش الفتنة . اي الغافل في ظلمات الخصومات ، لا يهتدي الى الحق سبيلا ، لانه غفل و اغتر بسبب ظلمة الفتن و الجهالات ، و في نسخة الكافي . عان (بالعين و النون) تقول . اسير عاني أي مقيم على الاسر و محبوس ، و العاني ايضا . من اتعب نفسه ، و اشتغل بالأمر و اهتم به .

و في نسخة اخرى مكان غباش اغطاش . و الغطش ايضا . الفتنة ، و على جميع التقادير فالنتيجة واحدة ، و هي كونه جاهلا ، لا يدري الحكم القطعي .

الوصف الرابع . « عم بما في عقد الهدنة » بضم الهاء . السكون و المعاقدة على ترك الحرب مدة معلومة ، و الصلح بين كل متجادلين ، اي ذلك الرجل لا يبصر شيئا من منافع المعاقدة على اصلاح المتجادلين ، و بعبارة اخرى . لا يعرف ما في الفتنة من الشر ، و لا ما في السكون و المصالحة من الخير ، و في نسخة اخرى . (عم بما في غيب الهدنة) اي في ضمنها و طيها ، فاذا جاءه المترافعان فالأصلح ان يصلح بينهما ، لأن الصلح خير ، و لا ينبغي ان يحكم بحكم يؤول الى الفساد و العداوة و البغضاء .

الوصف الخامس . « قد سماه اشباه الناس عالما و ليس به » المقصود من اشباه الناس هم الهمج الرعاع ، و العوام من الجهال ، فهؤلاء ينخدعون بكل من تزيا

[42]

بزي العلماء و تكلم بكلام الفقهاء ، فيزعمون انه عالم ، و ليس بعالم ، و هؤلاء الناس لا قيمة لكلامهم ، و لا أساس لقولهم .

و في نسخة اخرى : سمّاه رعاع الناس عالما و لم يكن في العلم يوما سالما .

و في نسخة اخرى . قد سماه اشباه الناس عالما و لم يغن فيه يوما سالما . و في نسخة : يوما تاما : و لم يغن فيه : أي لم يقم بالعلم يوما سالما من النقص .

الوصف السادس : « بكر و استكثر من جمع ما قل منه خير مما كثر » اي اسرع و بادر في صباح كل يوم ، و لعل المقصود من اول العمر ، و خرج الى جمع شيء ، و استكثر من ذلك الشيء الذي قليله خير من كثيره ، و في نسخة :

فكر و استكثر . . .

الوصف السابع : « حتى إذا ارتوى من آجن ، و اكتنز من غير طائل جلس بين الناس قاضيا » يعني لم يزل ذلك الرجل الموصوف بتلك الأوصاف المذكورة يسعى في طلب ما لا ينفع ، حتى اذا إرتوى امتلأ من شرب الماء الآجن ، و هو الماء الفاسد المتعفن ، المتغير لونه و طعمه ، و في نسخة : ارتوى من غير حاصل .

و اكتنز اي اتخذ له العلوم الفاسدة المفسدة كنزا من غير طائل ، اي بلا نفع و فائدة و مزية ، و المقصود من الماء الآجن استعارة بالكناية هي الآراء الباطلة ،

و النظريات الفاسدة ، و العلوم الحاصلة من القياس و الاستحسان ، كما ذكر عليه السلام في آخر هذه الخطبة المروية من الطبرسي و المفيد : « هذا عذب فرات فاشربوه ، و هذا ملح اجاج فاجتنبوه » فاستعار عليه السلام لعلوم آل محمد عليهم السلام و هي العلوم التي تلقوها عن جدهم عن جبرئيل عن الباري بالعذب الفرات ، و استعار لعلوم غيرهم بالملح الاجاج ،

[43]

و حاصل الكلام أن ذلك الرجل لما حصلت له هذه الاشياء جلس بين الناس قاضيا ، اي بينهم ، و يحكم فيهم فيما اختلفوا فيه . و في نسخة . جلس بين الناس مفتيا .

الوصف الثامن : « ضامنا لتخليص ما إلتبس على غيره » يعني ان ذلك القاضي الذي عرفت أوصافه ، و ظهر لك مقدار معرفته ، و مدارك علومه جلس للفتيا ،

و هو يضمن و يتكفل بيان ما اشتبه على غيره من المترافعين او المتخاصمين ، لوثوقه و أطمينانه بعلومه الحاصلة له ، فيزعم أن تلك الآراء و المقائيس كاملة كافية لقطع النزاع و حل المشاكل مع انه ليس كذلك .

الوصف التاسع : « فان نزلت به إحدى المبهمات هيأ لها حشوا رثا من رأيه ثم قطع به » . و في نسخة : احدى المهمات اي ذلك القاضي اذا اتفقت له قضية مبهمة تحتاج الى تفكر و تروي ، و لا يعلم وجه فصلها ، و طريق قطعها لابهامها و التباسها ، هيأ لحل تلك المسألة حشوا اي فضل الكلام رثا اي خلقا عتيقا ، اي وجها ضعيفا ، ثم قطع بذلك الرأي و حكم به ، و هذا شأن أكثر القضاة .

الوصف العاشر : فهو من لبس الشبهات في مثل نسج العنكبوت » هذا مثل ذكره القرآن الكريم بقوله تعالى : و ان اوهن البيوت لبيت العنكبوت للأمور الواهية الضعيفة التي لا قوام لها و لا دوام ، يعني : أن ذلك القاضي اذا فكر و راجع ذهنه لتحصيل حل تلك القضية المعروضة عليه لا يحصل له الحق و الصواب ، و ذلك من ضعف ذهنه و قلة علمه ، و لعل وجه الشبه هنا شيء آخر : و هو كما ان الذباب اذا جلس على نسج العنكبوت لا يتمكن من الخلاص من شباك العنكبوت لضعفه ، كذلك ذهن ذلك الرجل القاضي لا يمكن له الخلاص و النجاة من الشبهات الفاسدة .

[44]

و هنا وجه آخر ذكره المجلسي ره قال : و يحتمل ايضا ان يكون المراد تشبيه ما تلبس على الناس من الشبهات بنسج العنكبوت لضعفها ، و ظهور بطلانها فاذا وقع فيها ضعفاء العقول لا يقدرون على التخلص منها لجهلهم و ضعف نفوسهم .

الوصف الحادي عشر : « لا يدري اصاب أم أخطأ ، فان اصاب خاف ان يكون قد اخطأ ، و ان اخطأ رجا ان يكون قد أصاب » هذا شأن من جهل حكما و افتى به مع جهله ، فهو و ان اصاب الحقيقة كان على شك من ذلك لعدم الدراية و ان أفتى بخلاف ما انزل الله كان يرجو انه اصاب الواقع ، و هذا وصف كل حاكم جاهل شاك .

و في نسخة الارشاد هكذا . فهو من لبس الشبهات في مثل غزل العنكبوت لا يدري اصاب الواقع ام اخطأ ، و لا يرى ان من وراء ما بلغ مذهبا ، ان قاس شيئا بشيء لم يكذب رأيه ، و ان اظلم عليه امر اكتتم به لما يعلم من نفسه من الجهل و النقص و الضرورة ، كيلا يقال : انه لا يعلم ثم اقدم بغير علم فهو خائض عشوات ، ركاب شبهات ، خباط جهالات .

الوصف الثاني عشر . « جاهل خباط جهالات » الخبط هنا . الحركة على غير الطبيعة ، و على غير اتساق ، او المشي على غير الطريق ، و خبط الناقة هو الضرب بيديها في المشي . يقول عليه السلام : (ان ذلك الرجل جاهل و يسير في الجهالة و خباط للمبالغة ، أي كثير الخبط ، و هذا مثل يضرب لمن لا بصيرة له في الامور .

الوصف الثالث عشر . « عاش ركاب عشوات » عاش : الذي في بصره ضعف ، فلا يبصر جيدا ، بل الظلمة مستولية على عينه ، و العشوات : جمع عشوة و هي الامر الملتبس الذي لا يعرف وجهه ، من عشوة الليل اي ظلمته ، و هذا

مبالغة في الوقوع في الاشتباه . يقول عليه السلام . ان ذلك القاضي اعشى لا يبصر الأشياء كما هي ، فهو يرتكب الامور المشتبة و يحكم بما يريد .

الوصف الرابع عشر : « لم يعض على العلم بضرس قاطع » يقال : عض عليه بالنواجذ . يضرب مثلا لشدة الاستمساك : فالمقصود أن الرجل لم يتمسك بعلم من العلوم ، أو بقاعدة من القواعد ، أو رواية أو حديث ، بل يفتي بما تميل نفسه ،

و يأمره هواه ، و يقال : فلان لم يعض على العلم بضرس قاطع . اذ لم يحكمه و لم يتقنه ، و هو ماخوذ من عدم جودة المضغ ، فلا ينتفع البدن بذلك انتفاعا تاما ،

بل ربما يضر . و في نسخة : لا يعتذر مما لا يعلم فيسلم ، و لا يعض في العلم بضرس قاطع فيغنم الوصف الخامس عشر . « يذري الروايات إذراء الريح الهشيم » الهشيم : كل نبت يابس متكسر ، و كل كلاء و كل شجر ، فكلما ان الريح تمر على الهشيم و تذهب به ، و لا يعود لها نفع و لا فائدة من ذلك الهشيم ، كذلك المفتي المذكور يمر بالروايات اي يتصفحها ، و ليس له بصيرة و لا شعور بوجه العمل بها ، و الاستفادة منها و في نسخة . « يذرو الريح » و المعنى متحد .

الوصف السادس عشر و السابع عشر . « لا ملئي و الله باصدار ما ورد عليه ،

و لا هو اهل لما فوض اليه » الملي . هو الثقة ، الغني ، يقول عليه السلام . انه لا يثق بنفسه باصدار أجوبة ما يرد عليه من الفتاوى و المسائل الشرعية ، و قيل : معناه :

غير موثوق بين الملا ، قال ابن ابي الحديد . « و في كتاب ابن قتيبة تتمة هذا الكلام : و لا اهل لما فرط به . و قال : اي ليس بمستحق للمدح الذي مدح به .

و الذي رواه ابن قتيبة من تمام كلام امير المؤمنين عليه السلام هو الصحيح الجيد ،

لأنه يستقبح في العربية ان تقول : لا زيد قائم . حتى تقول : و لا عمرو . او تقول : و لا قاعد : فقوله عليه السلام : لا مليئي . اي لا هو مليئي و هذا يستدعي

[46]

(لا) ثانية ، و لا يحسن الاقتصار على الأولى .

و في نسخة اخرى : لا يسلم بإصدار ما عليه ورد ، و لا يندم على ما منه فرط . اي لا يسلم من الخطأ في إرجاع ما عليه ورد من المسائل ، اي في جوابها و قيل معناه : لا يستحق ذلك و لا يقوى عليه ، و معنى ما منه فرط . اي لما قصر فيه .

و في الكافي : و لا هو أهل لما منه فرط ، اي ليس هو اهلا للسبق على الناس و التقدم عليهم بسبب ما ادعاه من العلم .

الوصف الثامن عشر . « لا يحسب العلم في شيء مما انكره » اي لا يحسب جهله علما ، كأنه يعتقد ان ما له من العلم هو العلم كله ، فهو يعلم كل شيء ،

و اما ما جهله فليس بشيء يعتني به ، و لا يدخله تحت الحساب .

الوصف التاسع عشر . « و لا يرى ان من وراء ما بلغ منه مذهبا لغيره » اي يعتقد انه ليس هناك من يخالفه في رأيه و حكمه و فتواه ، و في نسخة الاحتجاج و لا يرى ان من وراء ما ذهب فيه مذهب ناطق ، و ان قاس شيئا بشيء لم يكذب رأيه كيلا يقال له : لا يعلم شيئا ، و إن خالف قاضيا سبقه لم يأمن في صحته حين خالفه .

و حاصل الكلام : ان ذلك الشخص يظن أنه بلغ غاية العلم بكماله ، و لم يبق مجال لغيره ، و ليس لأحد مذهب صحيح و رأي حق غيره .

الوصف العشرون : « و إن أظلم عليه أمر اكتتم به لما يعلم من جهل نفسه » أي إذا جهل حكما من الاحكام ، و لم يعرفه كتم جهله ، و لم يسأل غيره ليتعلم مخافة أن يظهر جهله عند الناس ، و قد صرح أمير المؤمنين عليه السلام في بعض كلماته : . . . و لا يستحينّ احدكم اذا سئل عما لا يعلم أن يقول : لا اعلم .

الوصف الحادي و العشرون : « تصرخ من جور قضائه الدماء ، و تعج منه

[47]

المواريث » يشين الى القضاة و أصحاب الفتاوي من الحكام الذين وضعوا القوانين ،

و حكموا بالشنق و القتل على من لا يستحق ذلك فكم من رجل عالم قتل في العهد الأموي و العباسي ظلما و جورا ؟ و كم من علماء سوء ، أفتوا بهدر دماء الشيعة و نهب أموالهم و اباحة أعراضهم ، و ان أردت زيادة الايضاح فراجع كتاب : اجوبة موسى جار الله . و الى الآن فان علماء بعض البلاد الاسلامية يحكمون بالكفر و الشرك على الشيعة ، فكم رقى خطيبهم على المنبر و سب الشيعة سبا شنيعا و نسب اليهم الكفر و الشرك ، و أباح دمائهم و أموالهم ، و الحكم لله ، و الله المستعان و هو حسبنا .

و اما ما يتعلق بالمواريث : فان الله تعالى قد ذكر نصيب كل من الورثة على قدر سهامهم من الارث ، كما ذكر القرآن الكريم ، ثم مات رسول الله صلى الله عليه و آله فتبدلت احكام القرآن ، و تلاعبت بها الأيدي الخائنة الجانية ، فتارة قالوا : « ان رسول الله لا يورث » فغصبوا الأراضي و المقاطعات التي وهبها رسول الله لابنته فاطمة عليها السلام ايفاء لمهر خديجة الى ابنتها ، فاختلوا تلك الاراضي و قطعوا منها يد بنت رسول الله و زوجها و اولادها ، و لم تزل ولائد تلك الايدي الجانية تلعب بأحكام القرآن و تبدل و تغيّر و تحرف و تأول كما شائت الأهواء و الأنفس ، كأنهم لم يسمعوا كلام الله تعالى حيث يقول : و من لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الفاسقون ، و من لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون ، و من لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون .

اضف الى الآيات الشريفة ، كيف يسمح الايمان بالله للمسلم ان يغير و يبدّل حكم الله فهل يعتقد أنه أعرف بمصالح العباد من الله الذي خلقهم ؟ ام يظن ان الدين الاسلامي ناقص معيب فاراد اصلاحه و اكماله برأيه ؟ ، ام هل يعتبر نفسه

[48]

أعقل من رسول الله صلى الله عليه و آله و هل و هل ؟ ؟ علاوة على ذلك : قد ثبت بالتجربة ان تغيير احكام الله في عباده فيما يتعلق بالاحوال الشخصية كالنكاح و الطلاق و المواريث و الديات و غيرها لا يزيد في الناس الا مشاكل و عراقيل ، فاذا صلح من جانب فسد من جانب آخر ،

و لسنا الآن في صدد بيان هذا الموضوع ،

و قد فرغنا من شرح الخطبة السابعة عشر

[49]

الخطبة الثامنة عشر

المتن

و من كلام له عليه السّلام في ذمّ إختلاف العلماء في الفتيا :

ترد على أحدهم القضيّة في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه ، ثمّ ترد تلك القضيّة بعينها في حكم من الأحكام فيحكم فيها بخلافه ،

ثمّ يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الّذي إستقضاهم فيصوّب آرائهم جميعا ، و إلههم واحد ، و نبيّهم واحد ، و كتابهم واحد ،

أ فأمرهم الله بالإختلاف فأطاعوه ؟ أم نهاهم عنه فعصوه ؟ أم أنزل الله سبحانه دينا ناقصا فاستعان بهم على إتمامه ؟ أم كانوا شركاء له فلهم أن يقولوا و عليه أن يرضى ؟ أم أنزل الله دينا تامّا فقصّر الرّسول صلى الله عليه و آله عن تبليغه و أدآئه ؟ و الله سبحانه يقول : مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيءٍ و قال : فِيهِ تِبْيَانُ كُلّ شَيءٍ و ذكر أنّ الكتاب يصدّق بعضه بعضا ، و أنّه لا إختلاف فيه ، فقال سبحانه : وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ إِخْتِلافاً كَثِيراً و أنّ القرآن ظاهره أنيق ، و باطنه عميق ، لا تفنى عجائبه ، و لا تنقضي غرائبه ، و لا تكشف الظّلمات إلاّ به .

لا خلاف بين اهل القبلة المسلمين حسب الممكن في التخطئة في العقليات بمعنى عدم مطابقة الآراء في العقليات للواقع ، فلو ذهب احد بالوحدة و آخر بالتعدد كالثنوية فلا اشكال في خطأ أحدهما ، لأنه لا يعقل الجمع بينهما ، و كذلك اذا ذهب احد الى نبوة موسى عليه السلام و عيسى عليه السلام فعلا ، و الآخر الى نبوة محمد صلى الله عليه و آله ، و كذلك اذا ذهب احد الى المعاد الجسماني او الروحاني ، و الآخر إلى الروحاني فقط ، و هكذا في كل فرع من فروع الاعتقاديات ، و هكذا في غير الاصول و الفروع الاعتقادية ، من سائر العقليات : من الرياضيات الفلسفيات و غيرها ،

نعم وقع الاختلاف في ان المخطىء في الاعتقادات آثم ام لا ؟ و قد كثر فيه الكلام ، و الحق الموافق لمذهب الامامية ان المقصر آثم و القاصر غير آثم ، و لا يستحق العقاب ، فإن خرج من الدنيا و هو على إعتقاده الباطل امتحن في القيامة او نحو ذلك ، اذ ان العقاب على غير المقدور محال .

و قد خالف في الاثم الجاحظ ، و ابو عبد الله العنبري ، و هو شاذّ مخالف للعقل و النقل ، ان كان مرادهما ما يظهر من كلامهما ، فلا حاجة الى تفصيل الكلام في هذا الموضوع .

و اما المختلفون في الاحكام الشرعية الفرعية من المجتهدين كالاختلاف في خصوصيات الصلاة و الصوم و الحج و الزكاة و الجهاد و غيرها فهو ينقسم الى قسمين :

[51]

الاول : ما كان عليه دليل قاطع من عقل او نقل ، و لا شبهة في خطإ المخالف ، و مسألة العقاب تابعة للتقصير ، و الثاني : ما ليس عليه دليل قاطع ، فقد اختلف في ذلك العامة و الخاصة .

فالخاصة الشيعة إلامامية بأجمعهم قديمهم و حديثهم اتفقوا على اصابة الكل فيها و قالوا . (ان لله تعالى في كل واقعة حكما واحدا لا يتغير و لا يتبدل ،

و المتفحص عنه ان اصابه كان منجزا عليه ، و ان اخطأه بدون تقصير كان معذورا) .

و استدلوا لذلك بالاجماع القطعي الكاشف عن قول المعصوم الذي هو حجة قطعا و بالاخبار المروية عن الأئمة الاطهار صلوات الله عليهم اجمعين الدالة على ان لله تعالى في كل واقعة حكما معينا ، بينه لرسوله ، و بينه النبي لوصيه ، و بينه الوصي للأوصياء من بعده ، فكلامهم عن جدهم عن جبرئيل عن الباري .

فجميع الأحكام محفوظة عنده ، مخزونة لديه حتى ارش الخدش فما دونه ،

كما ذكرت جملة منها في كتب الاخبار ، و قد ذكرنا منها شيئا في أوائل الجزء الاول من كتابنا ، و قد يضاف الى هذين الدليلين دليل ثالث هو .

ان الاحكام كما قد تقرر في محله تابعة للمصالح و المفاسد الكامنة ، و الا لزم اللغو ، و قد دلت على تبعية الاحكام للمصالح جملة من الاخبار ، و على هذا فلا يعقل مطابقة حكمين للواقع ، بأن يكون في صلاة الجمعة مصلحة ملزمة لمطابقتها لنظر احد الفقهاء ، و في تركها مصلحة ملزمة لمطابقتها لنظر فقيه آخر .

و أما العامة فقد ذهبوا الى التصويب ، و ان كل مجتهد مصيب في رأيه ، بمعنى ان لله احكاما بعدد آراء المجتهدين ، فما يؤدي اليه الاجتهاد فهو حكمه تعالى و استدلوا لذلك بأدلة واهية ليس لها قيمة علمية اصلا

[52]

قالوا : لو كان لله تعالى في الواقعة المبحوث عنها حكم معين لكان ما انزل الله فيها ذلك الحكم ، فيكون الحاكم بغيره عند الخطأ في الاجتهاد فاسقا كافرا ،

لقوله تعالى . و من لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الفاسقون ، و قوله تعالى شأنه .

و من لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون ، و التالي باطل للاجماع على عدم كفره و فسقه ، فيبطل المقدم ايضا ، و اما اذا تجردت الواقعة عن الحكم لم يصدق عليه انه لم يحكم بما انزل الله ، اذ لم ينزل في الواقعة ما يغاير فتواه بالنسبة اليه ليصدق انه لم يحكم به .

و الجواب : ان الله تعالى حيث عيّن مدارك الاحكام ، فحكم المجتهد الناشي عن تلك المدارك حكم الله تعالى ، و تفصيل الكلام موكول الى الكتب الاصولية ،

اذا تمهدت هذه المقدمة فنقول . ان أمير المؤمنين عليه الصلوة و السلام يريد خطأ العامة القائلين بالتصويب ، لا الخاصة الشيعة المختلفين في بعض الفروع الفقهيّة ، و يدل على ما ذكرنا قوله عليه السلام في آخر هذا الكلام . « ثم يجتمع القضاة بذلك عند الامام الذي استقضاهم فيصوب ارائهم جميعا » و من المعلوم ان هذا يلائم شأن المختلفين من مجتهدي المصوبة الذين اذا اجتمعوا عند امامهم يصوبهم ، و اما المخطئة فانهم اذا اجتمعوا عند إمامهم عليه السلام يخطئهم جميعا ، او بعضهم ، و لهذا اذا اختلفوا راجعوا الى الامام عليه السلام كما في بعض الاخبار .

و لا يتوهم ان الجمل الدالة على الذم في كلام الامام عليه السلام شامل لمجتهدي المخطئة لاتحاد المناط في الاختلاف ، لانا نقول : قد وقع كثير من الاختلافات بين علماء الشيعة في عصر الائمة عليهم السلام ، لأن كل واحد منهم كان يستفيد من كلام الامام شيئا ، بل كان الامام يفتي لاحدهم بحكم التقية ، او

[53]

نحوها ، و يفتي للاخر بالحكم الواقعي ، او لأحدهما بحكم الاختيار ، و للآخر بحكم الاضطرار ، فقد تختفي القرائن ، و كل يقول بحسب فهمه و مسموعه ، حتى سألوا الامام عن علاج الأخبار المختلفة ، فبين عليه السلام وجه العلاج في أخبار كثيرة ، أفردها العلماء ببحث يسمى « التعادل و التراجيح » و على كل حال فهذا الاختلاف غير ذلك الاختلاف ، خصوصا ، و إختلافهم كان اجتهادا في مقابل باب أحكام الله تعالى ، و مستقى علوم النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلّم فهل ترى عذرا في ذلك ؟ و هو نص في مقابل الاجتهاد و كيف يقبل العذر عمن زغى عن الحق بحضرة الامام الأعلم ، وصى رسول الله : أمير المؤمنين عليه السلام ، و الكلام حول المقام كثير ، إكتفينا بهذا المختصر . و لا حاجة إلى شرح الكلمات لوضوحها .

قد تمت الخطبة الثامنة عشر

الخطبة التاسعة عشر

المتن

و من كلام له عليه السلام قاله للأشعث بن قيس ، و هو على منبر الكوفة يخطب ، فمضى في بعض كلامه شيء إعترضه الأشعث : فقال : يا أمير المؤمنين :

[54]

هذه عليك لا لك ، فخفض عليه السلام إليه بصره ثم قال :

ما يدريك ما عليّ ممّا لي ؟ عليك لعنة الله و لعنة اللاّعنين ،

حائك ابن حائك ، منافق إبن كافر ، و الله لقد أسرك الكفر مرّة و الإسلام أخرى ، فما فداك من واحدة منهما مالك و لا حسبك ،

و إنّ امرء دلّ على قومه بالسّيف و ساق إليهم بالحتف لحريّ أن يمقته الأقرب ، و لا يأمنه الأبعد . قال الرضى رحمه الله : يريد عليه السلام أنه اسر في الكفر مرة ، و في الاسلام مرة ، و أما قوله عليه السلام : (دلّ على قومه بالسيف) فأراد به حديثا كان للاشعث مع خالد بن الوليد باليمامة ، غرّ فيه قومه ، و مكر بهم ، حتى اذا وقع بهم خالد ، و كان قومه يسمونه : (عرف النار) و هو اسم للغادر عندهم .

اللغة

الفداء : فكاك الأسير ، و استنقاذه بالمال .

المعنى

الأشعث بن قيس اسمه معدي كرب ، و ابوه قيس الأشج ، و امه كبشة بنت يزيد بن شرحبيل .

[55]

كان الأشعث ابدا اشعث الرأس ، فسمّي بالأشعث و غلب عليه ، و كان له اخت يقال لها : فتيلة . تزوجها رسول الله صلى الله عليه و آله ، و لكنه توفّي قبل الوصول اليها .

كان أمير المؤمنين عليه السلام على منبر الكوفة يذكر قضية الحكمين سيأتيك شرحها و حاصل الكلام : أن معاوية لما رأى آثار الظفر و النصرة قد لاحت و ظهرت على أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام في صفين نصب المصاحف على الرماح ، و طلب من اصحاب الامام التحاكم الى القرآن بزعمه حفظا لدماء العرب ، فهجم أصحاب الامام على خيمته عليه السلام و الجأوه الى قبول المحاكمة فأبى عليهم ، و لكنه اضطرّ الى ذلك ، لأنّهم هددوه بالقتل و قالوا :

« نقتلك كما قتلنا عثمان بالامس » فوافق الامام على ذلك بشروط ، و لكنهم طلبوا منه أن يكون الحكم ابا موسى الأشعري حمار بن منافق ، الذي قد عرفت نفسيته و انحرافه في الجزء الأول من كتابنا ، فامتنع الامام عن ذلك ،

فأجبروه فوافقهم قهرا و كرها ، و كان الحكم من ناحية معاوية هو عمر بن العاص فكانت نتيجة التحكيم خلع امير المؤمنين عليه السلام عن الخلافة ، و ابقاء معاوية على رتبته ، فكانت الخسارة على أصحاب الامام ، فجرى ما جرى هناك .

و هؤلاء الذين اكرهوا الامام على التحكيم هم خرجوا عليه و حاربوه لقبوله التحكيم في النهروان ، و هم الخوارج ، و هذه صورة اجمالية مختصرة ملخصة من قضية التحكيم .

كان إمامنا يتكلم حول هذه المأساة ، إذ قام إليه رجل من الخوارج ، من

[56]

اولئك الذين أجبروه على التحكيم ثم لم يرضوا به و قال : « نهيتنا عن الحكومة ، ثم أمرتنا بها ، فما ندري أي الأمرين أرشد ؟ » فصفق عليه السلام بإحدى يديه على الاخرى و قال : « هذا جزاء من ترك العقدة » كان قصد الامام من هذه الكلمة : أن هذا جزاؤكم حيث تركتم الرأي و الحزم ، و أصررتم على إجابة القوم إلى التحكيم .

و لكن الأشعث من سوء فهمه ظن ان الامام يقصد بكلامه : أن هذا جزائي حيث تركت الحزم و الرأي السليم ، و وافقتكم على التحكيم .

و لهذا قال الاشعث : « يا أمير المؤمنين : هذه عليك لا لك » يعني : هذه الكلمة ضررها عليك لا نفع لك ، و حيث أن الأشعث كان جالسا بالقرب من المنبر خفض عليه السلام اليه بصره ، أي طأطأه و قال : « ما يدريك ما علي مما لي » أي أين تدري أنت المصالح الشخصية للامام ؟ و كيف يجوز لك أن تعترض على إمام زمانك ؟ ، ثم لعنه و قال : عليك لعنة الله و لعنة اللاعنين » لم يلعنه أمير المؤمنين لأجل إعتراضه عليه بتلك الكلمة ، بل كان مستحقّا للعن لنفاقه و كفى بكلام الامام شاهدا على نفاقه ، و إن الله تعالى قد لعن المنافقين حيث قال جل ذكره : ان الذين يكتمون ما انزلنا من البينات و الهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب ، اولئك يلعنهم الله و يلعنهم اللاعنون .

و هذه صفة المنافقين ، و الاشعث أحدهم ، و كان هذا اللعين بايع ضبّا مع جماعة : منهم عمرو بن حريث ، و شبث بن ربعي ، خارج الكوفة و سموه الضب أمير المؤمنين و ذلك أنه رأى في جبانة الكوفة ضبا يعدو ، فنادى : يا ابا الحسن هلمّ يدك نبايعك بالخلافة .

فبلغ ذلك أمير المؤمنين عليه السلام فقال : إنهما يحشران و إمامهما الضب

[57]

و ستعرف في المستقبل أن كل فساد كان في أيام خلافة الامام عليه السلام ،

و كل إضطراب حدث من تحكيم الحكمين و واقعة النهروان ، و تلك الفتن و المخالفات و غير ذلك فالسبب الوحيد هو اللعين الأشعث بن قيس ، و كان هو و اهل بيته منحرفين عن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه و آله ، فإنه الاشعث إشترك في قتل الامام امير المؤمنين عليه السلام و اعان إبن ملجم عليه اللعنة و سوء العذاب على ذلك ، و كذلك إبنته جعدة دست السم إلى مولانا الامام الحسن المجتبى عليه السلام و كانت زوجته ، و أما إبنه محمد بن الاشعث فهو سبب ألقاء القبض على سيدنا مسلم بن عقيل ، و سلبه سيفه ، و سلمه بيد الطاغي العهر بن العهر عبيد الله إبن زياد ، و إشترك ايضا في قتل الامام ابي عبد الله الحسين عليه السلام .

و هذا المنافق الاشعث اراد الدخول على أمير المؤمنين عليه السلام فرده قنبر ، فأدمى الاشعث أنف قنبر ، فخرج علي عليه السلام و هو يقول : ما لي و لك يا أشعث ؟ أ ما و الله لو بعبد ثقيف تمرست لاقشعرت شعيراتك . . . الخ ثم عيّره الامام عليه السلام بقوله : « حائك ابن حائك » الحائك هنا على معنيين : احدهما المعنى الحقيقي ، و هو الناسج ، و روي : أن الاشعث و اباه كانا ينسجان برود اليمن .

و أما ما قيل : أن أهل اليمن كلهم كانوا ينسجون البرود ، و أن هذا الذم لا يختص بالاشعث . فغير وجيه ،

أما أولا : فان أهل اليمن ما كانوا كلهم ينسجون البرود و يحوكونها ، نعم كانت الحياكة و النسج في اليمن اكثر من سائر البلاد ، كما قال خالد بن صفوان :

ما أقول في قوم ليس فيهم إلا حائك برد أو دابغ جلد ، أو سائس قرد

[58]

سلمنا أن اهل اليمن كلهم أجمعين كانوا ينسجون و يحوكون . فهل الكثرة ترد عنهم الذم و تزيل قبح هذا العمل ؟

و المعنى الثاني : هو حائك الكذب على الله و رسوله أو وليّه ، كما وردت الرواية باطلاق الحائك على من يحوك الكذب ، و هذا المعنى صحيح في غير هذا المكان قصد الامام عليه السلام بذكر حرفته و مهنته بيان نقصان عقله و قلة تدبيره ، كما وردت اخبار و أحاديث تشعر بقلة عقول الحوكة 1 كما قال الصادق عليه السلام : لا تستشيروا . . . و لا الحوكة ، فان الله قد سلبهم عقولهم .

و هذا مبالغة في قصور العقل ، لان ذهن الحائك عامة وقته منصرف إلى اوضاع الخيوط و تنظيمها و ترتيبها ، و يحتاج إلى حركة يديه و رجليه ، فهو اذا اشتغل فكره بالعمل ينسى كل شيء لتوجه معظم فكره إلى عمله ، و هذا العمل ينتج قصور العقل ، و يمنع العقل من التوسع و إدراك سائر الاشياء ، كما و أن الجزارة تورث القسوة و تسلب الخشوع و الرحمة من القلب ، و لهذا ورد الذم من الشرع في اتخاذ هذه المهنة .

« منافق ابن كافر » كان هذا من جملة المشتركين في قتل الامام كما سبق و هو الذي قال لابن ملجم : النجا ، النجا ، فقد فضحك الصبح . و مات هذا اللعين بعد مقتل الامام عليه السلام بأربعين ليلة .

ثم اشار عليه السلام الى بعض سوابقه السيئة و صفحته السوداء المظلمة فقال :

« و الله لقد اسرك الكفر مرة » و ذلك أن قبيلة مراد قتلت قيسا أبا الاشعث فخرج الاشعث طالبا ثار ابيه ، فخرجت قبيلة كنده و هم عشيرته معه ، و عليهم امراء ثلاثة و ألوية ثلاثة متعاضدين ، و لكنهم ما ادركوا مرادا ، و حاربوا فقتل

----

(1) جمع حائك

[59]

منهم اميران ، و هما : كبش بن هاني ، و القشعم . و اما الامير الثالث و هو الاشعث فانه أسر ، ففدى نفسه بثلاثة الآف بعير ، لم يفد بها عربي قبله و لا بعده كما قال معدي كرب :

فكان فداؤه الفي بعير

و ألفا من طريفات و تلد .

« و الاسلام أخرى » اما الاسر الثاني : فان رسول الله صلى الله عليه و آله لما كان في مكة في اوائل بعثته ، كان يعرض نفسه على الحجاج ، أي يخبرهم بنبوّته ، و يأمرهم باتباعه ، و من جملة اولئك الحجاج بنو وليعه من قبيلة كنده فانهم دفعوه و لم يقبلوا منه صلى الله عليه و آله ، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه و آله من مكة إلى المدينة ، و شاع صيته في العرب و طار خبره في العالم و ازدادت قوته و قويت شوكته ، كانت وفود العرب تأتي اليه و تسلم على يديه ، و من جملة الوفود وفد كندة ، فانهم جاؤوا و معهم الاشعث و بنو وليعة ، فأسلموا على يديه صلى الله عليه و آله ، فاطعم رسول الله بني وليعة من صدقات حضر موت ، و كان زياد ابن لبيد عامل رسول الله صلى الله عليه و آله على حضر موت ، فأمره رسول الله صلى الله عليه و آله أن يدفع صدقات حضر موت إلى بني وليعة ، فدفعها زياد اليهم ، فأبوا أن يقبلوها ، و قالوا :

لا ظهر دواب لنا ، فابعث الى بلادنا على ظهر من عندك .

فأبى زياد ، و حدث بينهم و بين زياد شرّ كاد ان يكون حربا ، فرجع منهم قوم الى رسول الله صلى الله عليه و آله ، و كتب زياد اليه يشكوهم ، فعند ذلك قال رسول الله صلى الله عليه و آله : لتنتهن يا بني وليعة ، أو لابعثن اليكم رجلا عديل نفسي ، يقتل مقاتليكم ، و يسبى ذراريكم .

قال عمر بن الخطاب : فما تمنيت الامارة إلا يومئذ ، و جعلت انصب له صدري رجاء أن يقول : هو هذا . فأخذ بيد علي و قال هو : هذا

[60]

ثم كتب لهم رسول الله الى زياد ، فوصلوا اليه الكتاب و قد توفّى رسول الله صلى الله عليه و آله و طار الخبر بموته إلى قبائل العرب ، فارتدت بنو وليعة ،

و غنّت بغاياهم ، و خضبن له ايديهن فأمرّ أبو بكر زيادا على حضرموت ، و أمره ان يأخذ البيعة على اهلها ، و استيفاء صدقاتهم فبايعوه الا بني وليعة ، فلما خرج زياد ليقبض الصدقات من بني عمرو بن معاوية اخذ زياد ناقة لغلام منهم اسمه .

شيطان بن حجر ، و كانت الناقة صفية نفيسة اسمها : شذره ، فمنعه الغلام عنها و قال : خذ غيرها ، فأبى زياد ذلك ولج ، فاستغاث الشيطان بأخيه الفداء بن حجر ، فقال الفداء لزياد : دعها . فابى ذلك ، و لج الغلامان في أخذها ، و لج زياد ، فهتف الغلامان مسروق بن معدي كرب ، فقال مسروق : أطلقها . فابى ثم قام فاطلقها .

فاجتمع الى زياد بن لبيد اصحابه ، و اجتمع بنو وليعة ، و اظهروا امرهم الارتداد فبيتهم زياد و هم غارون ، فقتل منهم جمعا كثيرا ، و نهب و سبى و لحق اكثرهم بالاشعث بن قيس فاستنصروه ، فقال . لا انصركم حتى تملكوني .

فملكوه و توجوه كما يتوج الملك من قحطان ، فخرج الى زياد في جمع كثيف ،

و كتب ابو بكر الى مهاجر بن ابي أمية و هو على صنعاء . ان يسير بمن معه الى زياد . فسار مهاجر الى زياد فلقوا الاشعث ، و قتل مسروق ، و لجأ الاشعث و الباقون الى الحصن المعروف ب (النجير) فحاصرهم المسلمون حصارا شديدا حتى ضعفوا ، و نزل الاشعث ليلا الى مهاجر و زياد ، فسألهما الامان على نفسه و لعشرة من أهله ، حتى يقدما به الى ابي بكر ، فيرى فيه ، رأيه ، على ان يفتح لهم باب الحصن ، و يسلم اليهم من فيه .

فامناه ، و امضيا شرطه ، ففتح لهم الحصن فدخلوه ، و استنزلوا كل من فيه ،

[61]

و اخذوا أسلحتهم ، و قالوا للاشعث : إعزل العشرة . فعزلهم فتركوهم ، و قتلوا الباقين ، و كانوا ثمانمائة . و قطعوا أيدي النساء اللواتي شتمن رسول الله صلى الله عليه و آله ، فأسروا الاشعث و حملوه الى ابي بكر موثقا في الحديد هو و العشرة و قيل : انه بعث الى زياد يطلب الامان لاهله ، و لبعض قومه ، و كان من غفلته انه لم يطلب لنفسه بالتعيين . فلما نزل من الحصن اسره زياد و بعث به الى ابي بكر ، فقال له ابو بكر : ما ذا تراني أصنع بك ؟ فانك قد فعلت ما علمت .

فقال : تمن علي ، فتفكني من الحديد ، و تزوجني أختك فاني قد راجعت و اسلمت فقال أبو بكر : قد فعلت . فزوجه ام فروة بنت ابي قحافة ، و كانت عوراء او عمياء ، فخرج الاشعث من مجلس العقد ، و اخترط سيفه و دخل سوق الابل فجعل لا يرى جملا و لا ناقة إلا عرقبه ، فصاح الناس : كفر الاشعث . فلما فرغ طرح سيفه ، و قال : إنني و الله ما كفرت ، و لكن زوجني هذا الرجل اخته ، و لو كنا في بلادنا كانت وليمة غير هذه ، يا اهل المدينة كلوا . و يا اصحاب الابل :

تعالوا و خذوا شرواها ثمنها فكان ذلك اليوم قد شبه بيوم الاضحى ، و في ذلك يقول وبرة ابن قيس الخزاعي :

لقد أولم الكندي يوم ملاكه
وليمة حمال لثقل الجرائم

لقد سل سيفا كان مذ كان مغمدا
لدى الحرب منها في الطلى و الجماجم

فأغمده في كل بكر و سابح
و عير و بغل في الحشا و القوادم

فقل للفتى الكندي يوم لقائه
ذهبت بأسنى مجد اولاد آدم

و قال الاصبغ بن حرملة متسخطا لهذه المصاهرة :

اتيت بكندي قد ارتد و انتهى
إلى غاية من نكث ميثاقه كفرا

[62]

فكان ثواب النكث إحياء نفسه
و كان ثواب الكفر تزويجه البكرا

و لو أنه يأبى عليك نكاحها
و تزويجها منه لأمهرته مهرا

و لو أنه رام الزيادة مثلها
لأنكحته عشرا و أتبعته عشرا

فقل لأبي بكر : لقد شنت بعدها
قريشا ، و أخملت النباهة و الذكرا

أ ما كان في تيم بن مرة واحد
تزوجه لو لا أردت به الفخرا ؟

و لو كنت لما أن أتاك قتلته
لأحرزتها ذكرا و قدمتها ذخرا

فأضحى يرى ما قد فعلت فريضة
عليك فلا حمدا حويت و لا فخرا .

و بعد ذلك تندم ابو بكر مما فعل : من قبول توبة الأشعث المرتد ، و تزويجه أخته ام فروة و أظهر الندم لعبد الرحمن بن عوف ، لما جاءه عبد الرحمن عائدا له فقال في كلام طويل : (اجل انني لا آسي على شيء من الدنيا الاّ على ثلاث فعلتهن وددت اني تركتهن ، و ثلاث تركتهن وددت اني فعلتهن ، و ثلاث وددت اني سألت عنهن رسول الله صلى الله عليه و آله :

فاما الثلاث اللاتي وددت اني تركتهن : فوددت أني لم اكشف بيت فاطمة على شيء و إن كانوا قد اغلقوه للحرب و وددت اني لم اكن احرقت فجأة السلمي ، و اني كنت قتلته سريحا ، او خليته صحيحا و ودت اني في يوم سقيفة بني ساعدة كنت قذفت الأمر الخلافة في عنق أحد الرجلين : عمر ، و أبي عبيدة و اما الثلاث اللاتي تركتهن : فوددت اني يوم اتيت بالأشعث بن قيس اسيرا كنت ضربت عنقه ، فانه تخيّل لي أنه لا يرى شرا إلا أعان عليه . . . الخ 1 « فما فداك من واحدة منهما مالك و لا حسبك » قد ذكرنا آنفا ، ان الأشعث

----

(1) الطبرى و ابن ابي الحديد

[63]

لما اسر فدى نفسه بثلاثة آلاف بعير لم يفد بها عربي قبله و لا بعده ، إذن فما معنى كلام الامام عليه السلام : « فما فداك من واحدة منهما مالك » ؟

الظاهر : أن معنى هذا الكلام : أن مالك و حسبك ما منعا و ما دفعا الأسر عنك ، و ما نجاك من الوقوع في الأسر شيء منهما ، و ليس المقصود الفداء الحقيقي .

ثم اشار عليه السلام إلى سابقة من سوابقه السيئة المخزية فقال : « و إن امرءا دلّ على قومه بالسيف ، و قاد اليهم الحتف لحري بأن يمقته الأقرب ، و لا يأمنه الأبعد » إشارة إلى الأسر الثاني الذي تقدم ذكره آنفا : أنه سلم قومه إلى القتل بل صار سببا لابادتهم ، و قاد اليهم الموت ، و هذا الأشعث مثال الغدر و رمز الخيانة ، و صورة الفساد و الفتنة ، و هو حري أي حقيق و جدير بأن يبغضه قومه الأقربون لافعاله ، و يخالفه سائر الناس و لا يأمنوا شره و مكره و خدعته .

و لهذا قال ابن جرير : كان المسلمون يلعنون الأشعث ، و يلعنه الكافرون ايضا و سبايا قومه ، و سماه نساء قومه : عرف النار . و هو اسم للغادر عندهم .

و اما ما ذكره سيدنا الرياضي : « و اما قوله عليه السلام : دل على قومه بالسيف . فأراد به حديثا كان للأشعث مع خالد بن الوليد باليمامة غر فيه قومه و مكر بهم حتى اوقع بهم خالد . . الخ » فانه خفي وجهه على شراح نهج البلاغة ،

فقال ابن ابي الحديد : . . . فانا لم نعرف في التواريخ ان الأشعث جرى له باليمامة مع خالد هذا و لا شبهه ، و اين كندة و اليمامة ؟ كندة باليمن ، و اليمامة لبني حنيفة . و لا أعلم من أين نقل الرضي رحمه الله تعالى هذا .

و قال ابن ميثم : فأما ما حكاه السيد (ره) من أنه أراد حديثا كان للاشعث مع خالد بن الوليد باليمامة و أنه غرّ قومه و مكر بهم حتى اوقع بهم خالد فلم أقف

[64]

على شيء من ذلك في وقائع خالد باليمامة ، و حسن الظن بالسيد يقتضي تصحيح نقله ، و لعل ذلك في وقعة لم أقف على أصلها .

يقول مؤلف هذا الكتاب و إني بحمد الله ظفرت بما خفي هنا ، و بعد التحقيق و التدقيق ظهر لي الوجه في ذلك :

في السادس من البحار في باب غزوة عمرو بن معدى كرب ما هذا لفظه :

لما عاد رسول الله من تبوك إلى المدينة قدم إليه عمرو بن معدي كرب . فقال له النبي صلّى الله عليه و آله : أسلم يا عمرو : يؤمنك الله من الفزع الأكبر ؟ فقال : يا محمد و ما الفزع الاكبر فاني لا أفزع فقال يا عمرو : إنه ليس كما تظن و تحسب ،

إن الناس يصاح بهم صيحة واحدة ، فلا يبقى ميت إلا نشر ، و لا حي الا مات ما شاء الله ، ثم يصاح بهم صيحة اخرى فينشر من مات ، و يصفون جميعا ،

و تنشق السماء و تهد الأرض و تخر الجبال هدا ، و ترمي النار بمثل الجبال شررا ، فلا يبقى ذو روح الا انخلع قلبه ، و ذكر ذنبه ، و شغل بنفسه الا من شاء الله ،

فأين أنت يا عمرو من هذا ؟

قال : أ لا اني اسمع امرا عظيما . فآمن بالله و رسوله ، و آمن من معه من قومه ،

و رجعوا الى قومهم ثم ان عمرو بن معدي كرب نظر الى ابي بن عثعث الخثعمي فأخذ برقبته ثم جاء به الى النبي فقال : اعدني على هذا الفاجر الذي قتل والدي . فقال رسول الله صلّى الله عليه و آله : أهدر الاسلام ما كان في الجاهلية . فانصرف عمرو مرتدا ،

فأغار على قوم من بني الحرث بن كعب ، و مضى إلى قومه ، فاستدعى رسول الله علي بن ابي طالب عليه السلام و أمره على المهاجرين و انفذه الى بني زبيد ،

و ارسل خالد بن الوليد في طائفة من الاعراب ، و أمره أن يعمد لجعفى فاذا التقيا

[65]

فأمير الناس أمير المؤمنين ، و استعمل على مقدمته خالد بن سعيد بن العاص ،

و استعمل خالد على مقدمته أبا موسى الاشعري ، فاما جعفى فانها لما سمعت بالجيش إفترقت فرقتين ، فذهبت فرقة الى اليمن ، و انضمت الفرقة الاخرى الى بني زبيد ، فبلغ ذلك أمير المؤمنين عليه السلام ، فكتب الى خالد بن الوليد : أن قف حيث أدركك رسولي . فلم يقف ، فكتب عليه السلام الى خالد بن سعيد بن العاص : تعرّض له حتى تحبسه . فاعترض له خالد حتى حبسه ، و ادركه أمير المؤمنين عليه السلام فعنّفه على خلافه ، ثم سار حتى لقي بني زبيد بواد يقال له :

(كش) فلما رآه بنو زبيد قالوا لعمرو : كيف أنت يا أبا ثور : إذا لقيت هذا الغلام القرشي فاخذ منك الأناوة ؟ فقال : سيعلم ان لقيني . قال :

و خرج عمرو فقال : من يبارز ؟ فنهض اليه أمير المؤمنين عليه السلام فقام اليه خالد بن سعيد و قال له : دعني يا أبا الحسن بأبي أنت و امي ابارزه ، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام : ان كنت ترى أن لي عليك طاعة فقف في مكانك . فوقف ثم برز اليه أمير المؤمنين فصاح به صيحة ، فانهزم عمرو ، و قتل أخاه و ابن أخيه ، و . . . الخ .

فقد عرفت ما جرى بين عمرو بن معدي كرب و بين خالد بن الوليد ، و قد ذكرنا في اول المعنى : أن الأشعث ابن قيس اسمه معدي كرب . و لهذا التشابه بين الاسمين و الواقعتين التبس الامر على سيدنا الرضي عليه الرحمه و سبق الى ذهنه ،

و لا ينجو من السهو إلى المعصومون عليهم السلام .

و الى هنا انتهت الخطبة التاسعة عشر

[66]

الخطبة العشرون

المتن

و من خطبة له عليه السلام فإنّكم لو عاينتم ما قد عاين من مات منكم لجزعتم و وهلتم ،

و سمعتم و أطعتم ، و لكن محجوب عنكم ما قد عاينوا ، و قريب ما يطرح الحجاب ، و لقد بصّرتم إن بصرتم ، و أسمعتم إن سمعتم ،

و هديتم إن اهتديتم ، و بحق أقول لكم : لقد جاهرتكم العبر ، و زجرتم بما فيه مزدجر ، و ما يبلّغ عن الله بعد رسل السّماء إلا البشر .

اللغة

وهل . خاف و فزع . و مزدجر : متعظ . و يذكر الباقي في الشرح .

من جملة حكم الله تعالى ان اخفى على خلقه ما يجرى عليهم حين الموت و بعده ،

و في عالم البرزخ ، لمصالح لا يعلمها إلا هو ، و لا يعلم الانسان ما يجري عليه غدا

[67]

في حياته ، فكيف يعلم ما يجري عليه بعد موته ؟ و الموت إنتقال من هذا العالم الى عالم آخر ، و شتّان بين العالمين ، و الاخبار و الاحاديث الواردة عن اهل البيت عليهم السلام تبين و تشير إشارة اجمالية الى ما يشاهده الانسان حين الاحتضار ،

و بعد الموت من التجهيز و التغسيل و التكفين و الدفن سؤال منكر و نكير ، و اين تذهب الارواح ؟ و تنعم او تعذب ، و اين تجتمع الارواح ، و هل تشعر الروح و تعقل و تسمع و تبصر ؟ و هل لها علاقة بالبدن بعد ان صار ترابا ، و استحال الى مادة اخرى ؟

و لنا مجال في المستقبل لبيان هذا السرّ و شرحه على ضوء الاخبار و الاحاديث .

و الآن نقول : إن الموت هو انتقال إلى عالم غير مرئي ، و هذا الانتقال مخوف مرعب ، و هو مفارقة الروح للبدن بصورة موقتة ، و مفارقة الانسان عن كل ما يحب من الاهل و الاولاد و المال فاذا انتقل إلى ذلك العالم و رأى ارواح ملايين الملايين من البشر كيف تعذّب و كيف تنعّم و رأى أرواح الانبياء و الاولياء ،

و ارواح الفراعنة و الكفار و المشركين ، و ما هناك من صياح و صراخ و بكاء و عويل ، و غير ذلك غلب عليه الخوف و الفزع ، و لهذا يقول عليه السلام :

« فانكم لو قد عاينتم ما قد عاين من مات منكم لجزعتم و وهلتم » كما هو شأن الانبياء و الأولياء ، فانهم بسبب علمهم و إطلاعهم على ذلك العالم كانوا يبكون ذلك البكاء الشديد ، و يبيتون ليالهم خائفين وجلين ، و يسهرون الليل بالبكاء و التضرع و الناس لو كانوا يعلمون ذلك لما وجد إنسان عاصي ، و لكان الناس كلهم مؤمنين متّقين ، و لهذا قال عليه السلام : « و سمعتهم و أطعتم » و لو كان الناس كلهم يعلمون و يطلعون على ذلك العالم لاختل النظام الاجتماعي ، و لما زرع الزارع ، و ما اتجر التاجر ، و صارت الأشغال معطلة و الحالة مضطربة ، « لكن محجوب عنكم ما قد

[68]

عاينوا ، و قريب ما يطرح الحجاب » فان الروح اذا خرجت من البدن ، و طارت من قفص الجسد ظهر لها كل ما كان محجوبا مخفيا ، ثم قال عليه السلام : « و لقد بصّرتم إن أبصرتم » أي صيّرتم مبصرين ، اي لكم عيون إن نظرتم بها « و اسمعتم ان سمعتم » أي جعل لكم السمع ان كنتم تسمعون كلام الله و مواعظ الانبياء و الاوصياء « و هديتم ان اهتديتم » أي علمتم الطريق ان وصلتم الى المطلوب و المقصود ، و مشيتم في الطريق المؤدي الى رضوان الله « بحق اقول : لقد جاهرتكم العبر » اي العبر جمع عبرة و هي ما يعتبر به الانسان قد اعلنت لكم بشأن الدنيا بما جرى على الامم السالفة و الفراعنة و القياصرة و العمالقة و سائر الملوك و السلاطين ، و أجهرت العبر بما حل بآبائكم و بسائر الناس من المصائب و النوائب و الشدائد « و زجرتم بما فيه مزدجر » كل ما كان فيه زجر كالنهي الاكيد عن المعاصي و الامر الشديد بالواجبات قد زجركم الله به « و ما يبلغ عن الله بعد رسل السماء الا البشر » كل تبليغ و إنذار و تبشير و حكم و امر من عند الله فلا يبلغها الى الناس بعد الملائكة ملائكة الوحي و رسل السماء الا الانبياء و الأوصياء و من سلك طريقتهم ، و بلغ عنهم ،

و اما الاخبار و الاحاديث الواردة عن اهل بيت النبوة عليهم السلام فكثيرة جدا ، و نقتصر هنا على شيء يسير منها :

في البحار : عن الامام العسكري عن آبائه عليهم السلام : قال : قيل للصادق عليه السلام : صف لنا الموت . قال عليه السلام : للمؤمن كأطيب ريح يشمّه ،

فينعس لطيبه ، و ينقطع التعب و الالم كله ، و للكافر كلسع الافاعي و لدغ العقارب أو اشد . قيل : فان قوما يقولون : انه اشد من نشر بالمناشير و قرض بالمقاريض ، و رضخ بالاحجار و تدوير قطب الارحية على الاحداق احداق

[69]

العين قال عليه السلام : كذلك ، هو على بعض الكافرين و الفاجرين ، أ لا ترون منهم من يعاني تلك الشدائد ؟ فذلكم الذي هو أشد من هذا ، إلا من عذاب الآخرة فانه اشد من هذا ،

قيل فما لنا نرى كافرا يسهل عليه النزع نزع الروح فينطفي بعد أن كان يحدّث و يضحك و يتكلم ، و في المؤمنين ايضا من يكون كذلك ، و في المؤمنين و الكافرين من يقاسي عند الموت من هذه الشدائد ؟

فقال عليه السلام : ما كان من راحة للمؤمن فهو عاجل ثوابه ، و ما كان من شديدة فتمحيصه من ذنوبه ليرد الآخرة نقيا نظيفا مستحقا لثواب الأبد ، لا مانع له دونه ، و ما كان من سهولة هناك على الكافر فليوفّى أجر حسناته في الدنيا ، ليرد الآخرة و ليس له الا ما يوجب عليه العذاب ،

و ما كان من شدة على الكافر فهو إبتداء عذاب الله له ذلكم بان الله عدل لا يجور .

و عن الامام الجواد عن آبائه عليهم السلام قال : قيل لأمير المؤمنين عليه السلام : صف لنا الموت . فقال عليه السلام : على الخبير سقطتم : هو احد ثلاثة امور يرد عليه : اما بشارة بنعيم الأبد ، و إما بشارة بعذاب الأبد ، و اما تحزين و تهويل امره منهم لا يدري من اي الفرق هو ؟

فأما وليّنا المطيع فهو المبشر بنعيم الأبد ، و اما عدونا المخالف علينا فهو المبشر بعذاب الابد ، و اما المبهم أمره ، الذي لا يدري ما حاله و هو المؤمن المسرف على نفسه ، لا يدري ما يؤول اليه ، يأتيه الخبر مبهما مخوفا ، ثم لن يسويه الله عز و جل بأعدائنا ، و لكن يخرجه من النار بشفاعتنا ، فاعملوا و أطيعوا

[70]

و لا تتكلوا و لا تستصغروا عقوبة الله عز و جل ، فان من المسرفين من لا تلحقه شفاعتنا الا بعد عذاب ثلثمائة الف سنة و قال الامام السجاد عليه السلام لما قيل له : ما الموت ؟ للمؤمن كنزع ثياب وسخة قملة ، و فك قيود و اغلال ثقيلة ، و الاستبدال بأفخر الثياب و أطيبها روائح ، و أوطىء المراكب و آنس المنازل ،

و للكافر كخلع ثياب فاخرة ، و النقل من منازل أنيسة ، و الاستبدال بأوسخ الثياب و اخشنها ، و اوحش المنازل و أعظم العذاب .

و قيل للامام الباقر عليه السلام : ما الموت ؟ قال : هو النوم الذي يأتيكم كل ليلة ، الا انه طويل مدته ، لا ينتبه منه الا يوم القيامة . . . الخ و قال رسول الله صلى الله عليه و آله : فو الذي نفس محمد بيده : لو يرون مكانه و يسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم ، و لبكوا على نفوسهم ، حتى اذا حمل الميت على نعشه رفرفت روحه فوق النعش ، و هو ينادي : يا أهلي و يا ولدي لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي ، فجمعت المال من حله و غير حله ، ثم خلفته لغيري ، فالمهنا له و التبعة عليّ ، فاحذروا مثل ما حل بي .

سئل الامام الصادق عليه السلام عن المؤمن : أ يستكره على قبض روحه ؟

قال : لا و الله . قلت : و كيف ذاك ؟ قال : لأنه اذا حضر ملك الموت جزع الميت فيقول له ملك الموت : لا تجزع ، فو الله لانا أبر بك و اشفق من والد رحيم لو حضرك ، افتح عينيك و انظر . قال : و يتهلل له رسول الله و أمير المؤمنين علي بن ابي طالب و الحسن و الحسين و الائمة من بعدهم ، و الزهراء عليهم السلام ،

قال : فينظر اليهم فيستبشرهم ، فما رأيت شخوصه ؟ قلت : بلى . قال : فانما ينظر اليهم . قال : قلت : جعلت فداك ، قد يشخص المؤمن و الكافر . قال :

[71]

ويحك ان الكافر يشخص الى خلفه ، لان ملك الموت انما يأتيه ليحمله من خلفه ،

و المؤمن من أمامه ، و ينادي روحه مناد من قبل رب العزة ، من بطنان العرش فوق الافق الاعلى و يقول : يا ايتها النفس المطمئنة الى محمد و آله ارجعي الى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي و ادخلي جنتي .

فيقول ملك الموت . اني قد امرت ان اخيّرك الرجوع الى الدنيا و المضى .

فليس شيء احب اليه من اسلال روحه .

و هذا حديث آخر ، و هو حديث الحارث الهمداني نذكره تيّمنا ، و نظرا لطول الحديث نقتطف منه جزءا . . .

قال أمير المؤمنين عليه السلام في ذيل كلامه مع الحارث : و ابشرك يا حارث لتعرفني عند الممات و عند الصراط ، و عند الحوض ، و عند المقاسمة . قال الحارث و ما المقاسمة ؟ قال : مقاسمة الجنة و النار ، أقاسمهما قسمة صحيحة ، أقول : هذا وليّي فاتركيه ، و هذا عدويّ فخذيه .

ثم اخذ أمير المؤمنين عليه السلام بيد الحارث . و قال يا حارث : اخذت بيدك كما اخذ رسول الله صلى الله عليه و آله بيدى فقال لي و قد شكوت اليه حسد قريش و المنافقين لي . إنه اذا كان يوم القيامة اخذت بحبل الله و بحجزته يعني عصمته من ذي العرش و اخذت انت يا علي بحجزتي و اخذ ذريتك بحجزتك ، و اخذ شيعتكم بحجزتكم فما ذا يصنع الله بنبيه ؟ و ما ذا يصنع نبيه بوصيه ؟ خذها اليك يا حارث قصيرة من طويله . انت مع من احببت ، و لك ما اكتسبت (يقولها ثلاثا) فقام الحارث يجرّ ردائه و يقول . ما ابالي بعدها متى لقيت الموت او لقيني .

و السيد اسماعيل الحميرى الشاعر في القرن الثاني ضمن هذا الحديث في شعره حيث يقول :

[72]

قول علي لحارث عجب
كم ثم أعجوبة له حملا

يا حار همدان من يمت يرني
من مؤمن او منافق قبلا

يعرفه طرفه و اعرفه
بعينه و اسمه و ما عملا

و انت عند الصراط تعرفني
فلا تخف عثرة و لا زللا

اسقيك من بارد على ظمأ
تخاله في الحلاوة عسلا

اقول للنار حين توقف
لل . . . . عرض : دعيه لا تقربي الرجلا

دعيه لا تقربيه ان له
حبلا بحبل الوصي متصلا

قد ذكرنا هذه الاخبار الشريفة بمناسبة المقام ، و لكن المستفاد من الكافي ان هذا الخطاب من الخطبة كان لاصحابه عليه السلام ، و انذارا لهم . و المقصود من : « من مات منكم » هم الذين خالفوه و نابذوه .

فلقد روى الكليني ره في الكافي رواية عن الامام الصادق عليه السلام قال :

قال أمير المؤمنين عليه السلام . لا تختانوا ولاتكم ، و لا تغشوا هداتكم ، و لا تجهلوا ائمّتكم ، و لا فتفشلوا و تذهب ريحكم ، و على هذا فليكن تأسيس اموركم ،

و الزموا هذه الطريقة ، فانكم لو عاينتم ما عاين من قد مات منكم ممن خالف قد تدعون اليه لبدرتم و خرجتم ، و أسمعتم ، و لكن محجوب عنكم ما قد عاينوا ،

و قريب ما يطرح الحجاب .

و الى هنا تم الكلام عن الخطبة العشرون

الخطبة الحادية و العشرون

المتن

و من خطبة له عليه السلام :

فإنّ الغاية أمامكم ، و إنّ وراءكم الساعة تحدوكم ، تخفّفوا تلحقوا ، فإنّما ينظر بأوّلكم آخركم . قال الرضي رحمه الله . اقول . إن هذا الكلام لو وزن بعد كلام الله سبحانه و كلام رسول الله صلى الله عليه و آله بكل كلام لمال به راجحا ، و برز عليه سابقا ،

فأما قوله عليه السلام . تخفّفوا تلحقوا . فما سمع كلام أقل منه مسموعا ،

و لا اكثر محصولا ، و ما ابعد غورها من كلمة ، و انقع نطفتها من حكمة ، و قد نبّهنا في كتاب الخصائص على عظم قدرها و شرف جوهرها .

المعنى

قال سيدنا الرضى عليه الرحمة في كتاب خصائص أمير المؤمنين عليه السلام في شرح هذه الكلمات . و قال : تخففوا تلحقوا . قال الشريف الرضي ابو الحسن

[74]

رضي الله عنه . ما اقل هذه الكلمة و اكثر نفعها ، و أعظم قدرها ، و ابعد غورها و اسطع نورها ، و بعد هذه الكلمة قوله عليه السلام . فخلفكم الساعة تحدوكم ،

و انما ينتظر بأولكم آخركم .

قال عليه السلام : « فان الغاية أمامكم ، و أن ورائكم الساعة تحدوكم » الغاية :

انتهاء الشيء ، و العلة التي يقع لأجلها الشيء ، و بناء على ما ذكرنا فالمقصود من الغاية هنا : الموت كما في الحديث : (الموت غاية المخلوقين) او المقصود الجنة و النار ، و الثواب و العقاب ، او الآخرة بصورة عامة ، و لا شك أن هذه الاشياء كلها أمام كل احد .

و أما المقصود من الساعة هنا فهو قيام القيامة كما في تفسير الآيات التي ذكرت فيها الساعة كقوله تعالى : أ فأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة و هم لا يشعرون و يا ايها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم و لا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة و يوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون و يوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة و حتى اذا جائتهم الساعة بغتة و قال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل : بلى و ربي لتأتينكم و يوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب و إليه يرد علم الساعة و أ لا ان الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد و اذا قيل : ان وعد الله حق و الساعة لا ريب فيها . قلتم : ما ندري ما الساعة ؟ إن نظن إلا ظنا و لله ملك السموات و الأرض و يوم تقوم الساعة يخسر المبطلون و اقتربت الساعة و انشق القمر و بل الساعة موعدهم و الساعة أدهى و امر .

الى غير ذلك من الآيات التي ذكرت فيها الساعة ، كما عليه المفسرون أضف الى ذلك الاخبار و الأحاديث التي تعبّر عن القيامة بالساعة .

[75]

و يمكن أن نقول : ان المراد بالساعة هو الزمان ، و قد ورد إسناد الحداء الى الزمان ، كما في بعض كلمات الامام عليه السلام : و ان غائبا يحدوه الجديدان الليل و النهار لحريّ بسرعة الأوبة .

و انما الكلام في كلمة : (ورائكم) فان الظاهر من الوراء هو الخلف ،

و لهذا وقع الشراح في حيرة و إشتباه و مخمصة ، فتارة استدلوا ببعض الايات الكريمة التي فيها ذكر الوراء ، كقوله تعالى : و من ورائهم جهنم ، و كان ورائهم ملك ياخذ كل سفينة غصباً فقد ورد في تفسير الآيتين الشريفتين أن المقصود من الوراء هنا . القدام و الأمام .

كل ذلك لتوضيح و بيان ان الآخرة في الأمام فلا ينبغي بل لا يصح التعبير به ب (ورائكم) و اقول : سبحان الله ، و ما الحاجة الى اطالة الكلام هنا ،

و التشبث بالأقوال النادرة المخالفة لظاهر كلام امير المؤمنين عليه السلام ، فان الوراء هنا : بمعنى الخلف ، و المعنى صحيح ، لأن القيامة تأتي بعدنا ، فتكون ورائنا ، فيتم المعنى بلا تكلف و تعسف .

و كيف كان : فان القيامة تحدو بالناس اي تبعثهم و تسوقهم الى الآخرة كالحادي يحدو الابل ، و يغني لها لتسير الى مقصدها ،

و اما قوله عليه السلام : « تخفّفوا تلحقوا » فان المسافر اذا كان ثقيل الحمل كثير المتاع يتأخر عن السابقين المتقدمين ، فاذا أراد أن يلحقهم لا بدّ له أن يطرح زائد متاعه ليخف رحله ، فيلتحق بصحبه كما قال الشاعر :

القى العمامة كي يخفف رحله

و الزاد حتى نعله ألقاها

فكذلك الانسان اذا كان مشغول الفكر بالدنيا و ما فيها يثقل حمله ، فلا يستطيع أن يلحق بأولياء الله الذين كانوا لا يملكون اكثر من قوت يومهم ، و كانوا

[76]

الليل في قيام ، و النهار في صيام الذين ما حازوا من هذه الارض الوسيعة شبرا ،

و لا جمعوا و ادّخروا من مال الدنيا فضة و تبرا ، و كانت أفكارهم مشغولة بتلك الدار الاخرة ، و جهودهم مبذولة لتحصيل المنازل و المقامات العالية الفاخرة لا يهتمون بالمأكل و الملبس و المسكن ، و انما همّهم انقاذ أنفسهم ، و هم العقلاء حقا ، لأن حياة الدنيا تنقضى ، فلا لذة تبقى ، و كل نعيم فيها يفنى ، و الاخرة هي الحياة التي لا انقضاء لها و لا انقطاع ، بل هي حياة دائمة مستمرة متصلة ، لا زوال فيها و لا فناء .

و الى هنا تم الكلام عن الخطبة الحادية و العشرون

[77]

الخطبة الثانية و العشرون

المتن

و من خطبة له عليه السلام :

فإنّ الغاية أمامكم ، و إنّ وراءكم الساعة تحدوكم ، تخفّفوا تلحقوا ، فإنّما ينظر بأوّلكم آخركم . قال الرضي رحمه الله . اقول . إن هذا الكلام لو وزن بعد كلام الله سبحانه و كلام رسول الله صلى الله عليه و آله بكل كلام لمال به راجحا ، و برز عليه سابقا ،

فأما قوله عليه السلام . تخفّفوا تلحقوا . فما سمع كلام أقل منه مسموعا ،

و لا اكثر محصولا ، و ما ابعد غورها من كلمة ، و انقع نطفتها من حكمة ، و قد نبّهنا في كتاب الخصائص على عظم قدرها و شرف جوهرها .

المعنى

قال سيدنا الرضى عليه الرحمة في كتاب خصائص أمير المؤمنين عليه السلام في شرح هذه الكلمات . و قال : تخففوا تلحقوا . قال الشريف الرضي ابو الحسن

[74]

رضي الله عنه . ما اقل هذه الكلمة و اكثر نفعها ، و أعظم قدرها ، و ابعد غورها و اسطع نورها ، و بعد هذه الكلمة قوله عليه السلام . فخلفكم الساعة تحدوكم ،

و انما ينتظر بأولكم آخركم .

قال عليه السلام : « فان الغاية أمامكم ، و أن ورائكم الساعة تحدوكم » الغاية :

انتهاء الشيء ، و العلة التي يقع لأجلها الشيء ، و بناء على ما ذكرنا فالمقصود من الغاية هنا : الموت كما في الحديث : (الموت غاية المخلوقين) او المقصود الجنة و النار ، و الثواب و العقاب ، او الآخرة بصورة عامة ، و لا شك أن هذه الاشياء كلها أمام كل احد .

و أما المقصود من الساعة هنا فهو قيام القيامة كما في تفسير الآيات التي ذكرت فيها الساعة كقوله تعالى : أ فأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة و هم لا يشعرون و يا ايها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم و لا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة و يوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون و يوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة و حتى اذا جائتهم الساعة بغتة و قال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل : بلى و ربي لتأتينكم و يوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب و إليه يرد علم الساعة و أ لا ان الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد و اذا قيل : ان وعد الله حق و الساعة لا ريب فيها . قلتم : ما ندري ما الساعة ؟ إن نظن إلا ظنا و لله ملك السموات و الأرض و يوم تقوم الساعة يخسر المبطلون و اقتربت الساعة و انشق القمر و بل الساعة موعدهم و الساعة أدهى و امر .

الى غير ذلك من الآيات التي ذكرت فيها الساعة ، كما عليه المفسرون أضف الى ذلك الاخبار و الأحاديث التي تعبّر عن القيامة بالساعة .

[75]

و يمكن أن نقول : ان المراد بالساعة هو الزمان ، و قد ورد إسناد الحداء الى الزمان ، كما في بعض كلمات الامام عليه السلام : و ان غائبا يحدوه الجديدان الليل و النهار لحريّ بسرعة الأوبة .

و انما الكلام في كلمة : (ورائكم) فان الظاهر من الوراء هو الخلف ،

و لهذا وقع الشراح في حيرة و إشتباه و مخمصة ، فتارة استدلوا ببعض الايات الكريمة التي فيها ذكر الوراء ، كقوله تعالى : و من ورائهم جهنم ، و كان ورائهم ملك ياخذ كل سفينة غصباً فقد ورد في تفسير الآيتين الشريفتين أن المقصود من الوراء هنا . القدام و الأمام .

كل ذلك لتوضيح و بيان ان الآخرة في الأمام فلا ينبغي بل لا يصح التعبير به ب (ورائكم) و اقول : سبحان الله ، و ما الحاجة الى اطالة الكلام هنا ،

و التشبث بالأقوال النادرة المخالفة لظاهر كلام امير المؤمنين عليه السلام ، فان الوراء هنا : بمعنى الخلف ، و المعنى صحيح ، لأن القيامة تأتي بعدنا ، فتكون ورائنا ، فيتم المعنى بلا تكلف و تعسف .

و كيف كان : فان القيامة تحدو بالناس اي تبعثهم و تسوقهم الى الآخرة كالحادي يحدو الابل ، و يغني لها لتسير الى مقصدها ،

و اما قوله عليه السلام : « تخفّفوا تلحقوا » فان المسافر اذا كان ثقيل الحمل كثير المتاع يتأخر عن السابقين المتقدمين ، فاذا أراد أن يلحقهم لا بدّ له أن يطرح زائد متاعه ليخف رحله ، فيلتحق بصحبه كما قال الشاعر :

القى العمامة كي يخفف رحله

و الزاد حتى نعله ألقاها

فكذلك الانسان اذا كان مشغول الفكر بالدنيا و ما فيها يثقل حمله ، فلا يستطيع أن يلحق بأولياء الله الذين كانوا لا يملكون اكثر من قوت يومهم ، و كانوا

[76]

الليل في قيام ، و النهار في صيام الذين ما حازوا من هذه الارض الوسيعة شبرا ،

و لا جمعوا و ادّخروا من مال الدنيا فضة و تبرا ، و كانت أفكارهم مشغولة بتلك الدار الاخرة ، و جهودهم مبذولة لتحصيل المنازل و المقامات العالية الفاخرة لا يهتمون بالمأكل و الملبس و المسكن ، و انما همّهم انقاذ أنفسهم ، و هم العقلاء حقا ، لأن حياة الدنيا تنقضى ، فلا لذة تبقى ، و كل نعيم فيها يفنى ، و الاخرة هي الحياة التي لا انقضاء لها و لا انقطاع ، بل هي حياة دائمة مستمرة متصلة ، لا زوال فيها و لا فناء .

و الى هنا تم الكلام عن الخطبة الحادية و العشرون

[77]

الخطبة الثانية و العشرون

المتن

و من خطبة له عليه السلام :

أ لا و إنّ الشّيطان قد ذمّر حزبه ، و استجلب جلبه ليعود الجور إلى أوطانه ، و يرجع الباطل إلى نصابه ، و الله ما أنكروا عليّ منكرا ، و لا جعلوا بيني و بينهم نصفا ، و إنّهم ليطلبون حقّا هم تركوه و دماهم سفكوه ، فلئن كنت شريكهم فإنّ لهم لنصيبهم منه ، و لئن كانوا ولّوه دوني فما التّبعة إلاّ عندهم ، و إنّ أعظم حجّتهم لعلى أنفسهم ، يرتضعون أمّا قد فطمت ، و يحيون بدعة قد أميتت ،

يا خيبة الدّاعي ، من دعا ؟ و إلام أجيب ؟ و إنّي لراض بحجّة الله عليهم ، و علمه فيهم ، فإن أبوا أعطيتهم حدّ السّيف ، و كفى به شافيا من الباطل و ناصرا للحقّ ،

و من العجب بعثهم إليّ أن أبرز للطّعان ، و إن أصبر للجلاد هبلتهم الهبول ، لقد كنت و ما أهدّد بالحرب ، و لا أرهب بالضّرب ، و إنّي لعلى يقين من ربّي ، و غير شبهة من دينى .

اللغة

ذمر بالتخفيف و التشديد : الحث على الفعل . و الجلب بفتح الجيم و اللام : كل ما يجلب ، و جماعة الرجال تجلب و تؤلف . و النصف بكسر النون و فتحها الانصاف . و التبعة : ما يتبع شيئا ، و اختصت بالذنوب لأنها تابعة للفعل . و الجلاد : الضرب بالسيف . و الهبول من النساء : من لا يبقى لها ولد .

المعنى

قد ذكرنا في الجزء الأول مقطوعة من هذه الخطبة في ص 227 ، و ذكرنا أن هذه الخطبة وردت بطرق كثيرة ، بزيادة و نقصان ، و ذكرنا ايضا بعض تلك الصور ، و نقلنا : أن امير المؤمنين عليه السلام خطب بهذه الخطبة في المدينة عند ما تحقق مسيره الى البصرة كما ذكره الكليني ره و لكن ابا مخنف ذكر هذه الخطبة مع زيادة و نقصان قال : لما رجعت رسل امير المؤمنين عليه السلام من عند طلحة و الزبير و عائشة يؤذنونه بالحرب قام ،

فحمد الله تعالى . . . الخ فيمكن انه نقول : انه عليه السلام خطب بهذه الخطبة في البصرة . و ذكر ابو مخنف ايضا عن زيد بن صوحان قال : شهدت عليا عليه السلام بذي قار ،

و هو معمّم بعمامة سوداء ، ملتف بساج يخطب فقال في خطبته : الحمد لله . . . الى آخر الخطبة .

[79]

و لكن الاصح عندي أنه عليه السلام خطب بها في البصرة بعد اتمام الحجة على طلحة و الزبير . بدليل قوله : « و من العجب بعثهم إلي أن ابرز للطعان » لانهم ما هدّدوا أمير المؤمنين بالحرب الا في البصرة و الله العالم .

و الآن نذكر الخطبتين اللتين ذكرهما ابو مخنف بما فيهما من الاختلاف ، فنقول قال ابو مخنف : حدثنا مسافر بن عفيف بن ابي الاخنس قال : لما رجعت رسل أمير المؤمنين عليه السلام من عند طلحة و الزبير يؤذنونه بالحرب ، قام فحمد الله و اثنى عليه ، و صلى على رسوله صلى عليه ثم قال :

ايها الناس : إني قد راقبت هؤلاء القوم كي يرعووا ، و يرجعوا ، و وبختهم بنكثهم بيعتهم فلم يستحيوا ، و قد بعثوا إلي : ان ابرز للطعان و أن اصبر للجلاد ،

و انما تمنّيك نفسك أماني الباطل ، و تعدك الغرور .

أ لا هبلتهم الهبول ، لقد كنت و ما اهدد بالحرب ، و لا ارهب بالضرب ، و لقد نصف القارة من راماها ، فليرعوا و ليبرقوا ، فقد رأوني قديما ، و عرفوا نكايتي فكيف رأوني ؟

أنا أبو الحسن الذي فللت حدّ المشركين ، و فرقّت جماعتهم ، و بذلك القلب القى عدوي اليوم ، و إني لعلى ما وعدني ربي من النصر و التأييد ، و على يقين من امر ربي و في غير شبهة من ديني .

ايها الناس : ان الموت لا يفوته المقيم ، و لا يعجزه الهارب ، ليس من الموت محيد و لا محيص ، لم يقتل مات ، ان افضل الموت القتل ، و الذي نفس علي بيده الف ضربة بالسيف أهون من موتة واحدة على الفراش اللهم إن طلحة نكث بيعتي و ألبّ على عثمان حتى قتله ، ثم عهضني و رماني ،

اللهم فلا تمهله ، اللهم : إن الزبير قطع رحمي ، و نكث بيعتي ، و ظاهر على عدوي ،

فاكفنيه اليوم بما شئت . ثم نزل

[80]

و اما الرواية التي ذكرها ابو مخنف ، فهي : عن زيد بن صوحان قال : شهدت عليا عليه السلام بذي قار ، و هو معمّم بعمّامة سوداء ، ملتف بساج ، يخطب فقال :

الحمد لله على كل أمر و حال ، في الغد و الآصال ، و اشهد ان لا إله إلا الله ،

و ان محمدا عبده و رسوله ، إبتعثه رحمة للعباد ، و حياة للبلاد ، حين امتلأت الأرض فتنة ، و اضطرب حبلها ، و عبد الشيطان في اكنافها ، و اشتمل عدو الله ابليس على عقائد اهلها ، فكان محمد بن عبد الله بن المطلب الذي أطفأ الله به نيرانها ، و أخمد به شرارها ، و نزع به اوتارها ، و اقام به ميلها ، إمام الهدى ، و النبي المصطفى صلى

الله عليه و آله ، فلقد صدع بما امر به ، و بلغ رسالات ربه ، أصلح الله به ذات البين ، و أمّن به السبل ، و حقن به الدماء ، و ألف به بين ذوي الضغائن الواغرة في الصدور ، حتى أتاه اليقين ،

ثم قبضه الله حميدا ، ثم استخلف الناس أبا بكر ، فلم يأل جهده ، ثم استخلف ابو بكر عمر ، فلم يأل جهده ، ثم استخلف الناس عثمان فنال منكم و نلتم منه ، حتى اذا كان من امره ما كان ، أتيتموني ، لتبايعوني ، فقلت : لا حاجة لي في ذلك . و دخلت منزلي ، فاستخرجتموني ، فقبضت يدي فبسطتموها ،

و تداككتم عليّ حتى ظننت أنكم قاتلي ، و أن بعضكم قاتل بعض ، فبايعتموني و أنا غير مسرور بذلك و لا جذل ، و قد علم الله سبحانه : أني كنت كارها للحكومة بين أمة محمد صلى الله عليه و آله ، و لقد سمعته صلى الله عليه و آله يقول :

ما من وال يلي شيئا من أمر أمتي إلا أتي به يوم القيامة مغلولة يداه الى عنقه ،

على رؤوس الخلائق ، ثم ينشر كتابه ، فان كان عادلا نجى ،

حتى اجتمع عليّ ملؤكم ، و بايعني طلحه و الزبير و انا أعرف الغدر في أوجههما ،

و النكث في أعينها ، ثم استأذناني في العمرة ، فأعلمتهما : أن ليس العمرة يريدان

فسارا إمكه و استخفّا عائشة و خدعاها ، و شخص معهما أبناء الطلقاء ، فقدموا البصرة ، فقتلوا بها المسلمين و فعلوا المنكر و يا عجبا لاستقامتهما لأبي بكر و عمر ، و بغيهما عليّ ، و هما يعلمان أني لست دون أحدهما ، و لو شئت أن أقول لقلت ، و لقد كان معاوية كتب إليهما من الشام كتابا يخدعهما فيه ، فكتماه عني ، و خرجا يوهمان الطغام : أنهما يطلبان بدم عثمان ،

و الله ما أنكرا عليّ منكرا ، و لا جعلوا بيني و بينهم نصفا ، و إن دم عثمان لمغصوب بهما ، و مطلوب منهما يا خيبة الداعي : إلى م دعا ؟ و بما ذا أجيب ؟ و الله أنهما لعلى ضلالة صمّاء ،

و جهالة عمياء ، و أن الشيطان قد ذمّر لهما حزبه ، و استجلب منهما خيله و رجله ،

ليعيد الجور إلى أوطانه ، و الباطل إلى نصابه .

ثم رفع عليه السلام يديه و قال : اللهم : إن طلحة و الزبير قطعاني و ظلماني ،

و ألبّا عليّ ، و نكثا بيعتي ، فأحلل ما عقدا ، و انكث ما أبرما ، و لا تغفر لهما ابدا ، و أرهما المسائة فيما عملا و أملا .

فقام اليه الأشتر فقال : الحمد لله الذي منّ علينا فأفضل ، و أحسن إلينا فأجمل قد سمعنا كلامك يا أمير المؤمنين ، و لقد أصبت ، و وفقت ، و أنت إبن عم نبينا و صهره و وصيه ، و اول مصدق به و مصل معه ، شهدت مشاهده كلها ، و كان لك الفضل فيها على جميع الامة ، فمن اتبعك أصاب حظه ، و استبشر بفلجه ،

و من عصاك و رغب عنك فإلى أمه الهاوية لعمري يا أمير المؤمنين : ما أمر طلحة و الزبير و عائشة علينا بمخيل ، و لقد دخل الرجلان فيما دخلا ، و فارقا على غير حدث أحدثت ، و لا جور صنعت ،

فان زعما أنهما يطلبان بدم عثمان فليقيدا من أنفسهما ، فانهما أول من ألب عليه ،

و أغرى الناس به ، و أشهد الله لئن لم يدخلا فيما خرجا منه لنلحقنهما بعثمان ،

فإن سيوفنا على عواتقنا ، و قلوبنا في صدورنا ، نحن اليوم كما كنا أمس . ثم قعد .

أقول : ذكر ابن ميثم ره هذه الخطبة بصورة أخرى ، و هي أحسن الصور و أوجهها ، و قد ذكرناها في الجزء الأول ، لان سيدنا الرضي جامع نهج البلاغة ذكر شيئا من هذه الخطبة فيما تقدم ، كما أشار إلى ذلك في مقدمة الكتاب حيث قال ره :

« و ربما جاء في أثناء هذا لاختيار اللفظ المردد ، و المعنى المكرر ، و العذر في في ذلك : أن روايات كلامه عليه السلام تختلف إختلافا شديدا ، فربما اتفق الكلام المختار من رواية فنقل على وجهه ، ثم وجد بعد ذلك في رواية اخرى موضوعا غير وضعه الاول ، إما بزيادة مختارة ، او بلفظ أحسن عبارة ، فتقضى الحال أن يعاد ، إستظهارا للاختيار ، و غيرة على عقائل الكلام ، و ربما بعد العهد ايضا فاختير أولا ، فأعيد بعضه سهوا و نسيانا ، لا قصدا و اعتمادا . . . الخ » و الآن نشرح في شرح الخطبة : قال عليه السلام : « أ لا و ان الشيطان قد ذمر حزبه ، و استجلب جلبه » لا شك : أن كل فتنة تحدث بين المسلمين ، أو فساد لا بد و أنها تكون من وساوس الشيطان و إغوائه ، كما أقسم ابليس لرب العزة سبحانه ، حيث قال : فوعزتك لاغوينهم اجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين كذلك نهضة طلحة و الزبير و عائشة ما كانت إلا بتحريك من الشيطان المغوي و إضلال منه ، و قد بلغ الى ما اراد من إغوائه الناس و إلقائهم في التهلكة ،

و إيصالهم الى عذاب جهنم ، و أي ذنب أعظم بعد الشرك بالله من الخروج على إمام الزمان ، الذي وجبت طاعته على جميع الناس ؟ و اي ظلم اكبر من شق عصا المسلمين و أراقة دماء الوف من الناس ؟

[83]

و حاصل الكلام : أن اصحاب الجمل ، بل و كل فرقة تظاهرت على اهل بيت العصمة و الرسالة في كل عصر و مصر ، بل كل شخص شهر سيفه في وجههم ، و اطال لسانه في طعنهم ، او اجال قلمه مسّا بكرامتهم و قداستهم كما نرى و نشاهد نظائرهم من ذوي الاقلام المسمومة المأجورة في بعض البلاد الاسلامية كل هؤلاء من عملاء الشيطان ، و خيله و رجله الذين يميت الشيطان بهم الحق ، و يحيي بهم الباطل ، و يموّه على الناس الحق و الحقيقة ، فويل لهم مما كتبت أيديهم و ويل لهم مما يكسبون . و لا يقصد الشيطان من إغواء الناس إلا تضعيف جانب الحق ،

و تقوية الباطل و أهله .

« و الله ما أنكروا عليّ منكرا ، و لا جعلوا بيني و بينهم نصفا » المنكر هنا : القبيح و الحرام . و ما انكروا عليّ اي ما عابوني على شيء قبيح و عمل حرام . و لا جعلوا بيني و بينهم احدا يحكم بالانصاف ، او ما عاملوني بالانصاف و العدالة ، و بيان ذلك : « و إنهم ليطلبون حقا هم تركوه ، و دما هم سفكوه » ستعرف ايها القارىء عن قريب ان عليا عليه السلام كان بريئا من دم عثمان ، و انه كان بمعزل عن قتله ، و ما كان مباشرا و لا مسببا ، و ستعرف ايضا ان عائشة و طلحة و الزبير هم الذين اججوا نار الثورة و اثاروا الفتنة على عثمان حتى قتلوه ، و هم الذين سبّبوا قتل عثمان و هيجوا الناس عليه ، و قد عرفت شيئا من الموضوع في الجزء الاول من الكتاب فيقول امير المؤمنين عليه السلام : إن الطلب بثار عثمان إن كان حقا يجب عليهم ان يقتصوا من انفسهم ، و يجعلوا أنفسهم عند اختيار ورثة عثمان ، لانهم خذلوه و قتلوه بالتسبيب ، و لكنهم تركوا انفسهم و جاؤوا يطلبون ذلك الحق المتروك من غيرهم

[84]

و دما هم سفكوه . هذا تصريح منه عليه السلام بارتكاب هؤلاء ، قتل عثمان ،

و بأنهم سفكوه دمه عمدا ، إما مباشرة أو تسبيبا ، ثم تنازل عليه السلام ، و فرض فرضا محالا كما يقال : فرض المحال غير محال فقال : سلمنا أني كنت شريكهم في القتل ، فوقعت الجريمة بالشركة ، أ فلا يجب المطالبة بالدم من جميع المشتركين ؟

فقال : « و لئن كنت شريكهم فيه فان التبعة لهم لنصيبهم منه » لأنه على كلا التقديرين لا يجوز عقلا للقاتل ان يطلب الثأر ، سبحان الله ، و ممن يطلب الثأر و هو القاتل ؟ فقال عليه السلام : لئن كنت شريكهم وجب عليهم أن يبدئوا بأنفسهم ، ثم يطالبوا الشريك . هذا بناء على الفرض الأول .

« و لئن كانوا ولوه دوني فما التبعة إلا عندهم أي إذا كانوا قتلوه وحدهم ،

و لم اشاركهم في قتله فالتبعة المسؤلية عليهم و حدهم ، و هم المخصوصون بالجريمة ،

و هذا على الفرض الثاني ، و على كلا الفرضين لا يجوز لعائشة و طلحة و الزبير أن يطلبوا ثار عثمان من أمير المؤمنين عليه السلام و من غير امير المؤمنين ، اضف إلى ذلك : أن الطلب بالدم هو حق لولي المقتول لا للأجنبي ، و لم تكن أية قرابة بين عثمان و بين هؤلاء الثلاثة بالرغم من أن أولاد عثمان كانوا في قيد الحياة يومذاك .

ثم قال عليه السلام : « و ان اعظم حجتهم لعلى انفسهم » الحجة هنا ما يحتج به الانسان . اي هذه المطالبة المطالبة بدم عثمان ضررها عائد عليهم ،

لأن الحجة قد قامت على ارتكابهم قتل عثمان ، كما اعترف و اقره كل واحد منهم بارتكابه قتل عثمان بالتسبيب ، كما مر في الجزء الأول من الكتاب .

ثم قال عليه السلام : « يرتضعون اما قد فطمت ، و يحيون بدعة قد اميتت » لهاتين الجملتين ثلاث احتمالات :

الاحتمال الأول : انهم يطلبون شيئا بعد فوات وقته ، كما ان الطفل يطالب باللبن من امه بعد الفطام ، أي بعد إنقضاء ايام الرضاع .

الاحتمال الثاني : اشارة الى عادات اهل الجاهلية ، حيث انهم كانوا يثيرون الحروب و الفتن بحجة المطالبة بالثار ، يقول عليه السلام : ان تلك العادات زالت و اضمحلت بوجود الاسلام ، و ان الله تعالى جعل لولي المقتول قتل ظلما و عمدا .

الاحتمال الثالث : ان هذه التهمة التي توجهت الى امير المؤمنين من هؤلاء انما كانت نتيجة منع الامام اياهم من أن يأخذا من بيت مال المسلمين اكثر من استحقاقهم ، و لأنه لم يفضلهم على غيرهم ، كما كان عثمان يعطيهم العطايا الجزيلة من بيت مال المسلمين ، فاستعار عليه السلام للخلافة لفظة (الام) فبيت المال لبنها ، و المسلمون اولادها المرتضعون .

و خلاصة القول : ان هؤلاء يطلبون العطايا الجزيلة و الصلات الباهظة من خلافتي التي لا تفضل احدا من المسلمين على غيرهم .

و الجملة الثانية يحيون بدعة قد اميتت ، تفسير الجملة الاولى : يرتضعون اما قد فطمت فالمقصود من البدعة اما المطالبة بالثار كما قلنا ، أو التفضيل في العطية كما ذكرنا ، و احياء البدعة : اعادتها و العمل بها ، و اماتتها : تركها .

« يا خيبة الداعي من دعا ؟ و الى م اجيب ؟ » الخيبة : الحرمان و الخسران و فوات الظفر بالمطلوب ، كأنه عليه السلام ينسب دعائهم أي دعوتهم الى الخيبة ،

و الداعي : احد الثلثة : طلحة أو الزبير او عائشة أو جميعهم ، يقول عليه السلام ان الذي دعا بطلب دم عثمان ، و اثار الفتنة كتبت له الخيبة ، فلا يصل الى مراده و مطلوبه ، و ذكر هذا الكلام على سبيل التعجب و التحقير ، و معناه : تحقير الذين اجابوه و تحقير امرهم الذي نهضوا له .

[86]

« و اني لراض بحجة الله عليهم و علمه فيهم » أي انا ارضى بقيام البيّنة و البرهان على انهم ارتكبوا الجريمة دوني ، فان كان هذا الأمر خفي على الناس فهو غير خفي على الله تعالى ، و الله يعلم حقائق الأمور ، و يعرف القاتل من البرىء و لعل المقصود من الحجة هنا هذه الآية الشريفة : فأن بغت احديها على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيئي الى امر الله فهذه الآية كافية بجواز قتالهم بل وجوبه ، أضف الى ذلك أمر النبي الأقدس صلى الله عليه و آله حيث قال : يا علي ستقاتل بعدي الناكثين و القاسطين و المارقين .

« فأن أبوا أعطيتهم حدّ السيف » أي ان امتنعوا عن اطاعتي و الملازمة على بيعتي مع قيام تلك الحجة قاتلتهم بالسيف ، و حاربتهم امتثالا لأمر الله تعالى ،

و طلبا لمرضاته (و كفى به شافيا من الباطل ، و ناصرا للحق) شبّه عليه السلام الباطل بالمرض و العلة ، و شبه الحق بالمظلوم . فقال : كفى بالسيف أن يشفى العلة اي الباطل ، و ينصر الحق و يؤيده .

« و من العجب بعثهم إليّ : أن ابرز للطعان ، و ان أصبر للجلاد » يتعجب الأمام عليه السلام من افعال هؤلاء و أقوالهم ، و تهديدهم اياه ، و حق له ان يتعجب من انذارهم الأنزع البطين قتّال العرب ، ان يستعد للمحاربة و السيف ،

لأن هؤلاء قد عرفوا شجاعة الامام و بأسه ، و علموا حروبه و غزواته ، و مواقفه و مواطنه ، و هو الذي دخل الحرب و هو لم يبلغ العشرين من العمر ، و كان يوم ذاك في حوالي الستين ، و هو الذي كان يخوض غمرات الحرب ، و بيده صحيفة يقطر منها الموت ، فترى الرووس تطير و الايدي تسقط ، و الأرض ترتوي و تختضب من الدماء .

أ فلا يتعجب أمير المؤمنين عليه السلام من تهديد هؤلاء إياه و هو هو و هم هم ؟

[87]

ثم دعا عليهم فقال : « هبلتهم الهبول لقد كنت و ما اهدّد بالحرب و لا أرهب بالضرب » أي ثكلتهم امهاتهم ما زلت أنا غير مهدد بالحرب ، و غير خائف من الضرب ، لأن التهديد هو الانذار بالمخاوف ، و كيف اخاف من الحرب او الشهادة في سبيل الله ؟ و انا افضل الضربة بألف سيف على الموت في الفراش .

« و إني لعلى بينة من ربي و غير شبهة من ديني » لأن من كان على بصيرة من امر دينه بأن يعلم حكم القتال ، و يعرف حكم من يجوز قتاله و من لا يجوز قتاله ،

لا يخاف و لا يتزلزل من التهديد ، لأنه إما يغلب او يقتل ، و على كلا التقديرين له الفلج و الفلاح ، فيعطى اجر المجاهد المحتسب ، الناصر لدين الله ، و ان استشهد يعطى مضافا إلى ما مر أجر الشهيد ، و ليس عمل برّ خير من الشهادة .

انتهت الخطبة الثانية و العشرون

الخطبة الثالثة و العشرون

و من خطبة له عليه السلام :

أمّا بعد : فإنّ الأمر ينزل من السّماء كقطرات المطر إلى كلّ

[88]

نفس بما قسّم لها : من زيادة أو نقصان ، فإذا رأى أحدكم لأخيه غفيرة في أهل أو مال أو نفس فلا تكوننّ له فتنة ، فإنّ المرء المسلم ما لم يغش دنائة تظهر فيخشع لها إذا ذكرت ، و تغرى بها لئام النّاس كان كالفالج الياسر الّذي ينتظر أوّل فوزة من قداحه توجب له المغنم ، و يرفع بها عنه المغرم ، و كذلك المرء المسلم ، البريء من الخيانة ينتظر من الله إحدى الحسنيين : إمّا داعي الله ، فما عند الله خير له ، و إمّا رزق الله فاذا هو ذو أهل و مال ، و معه دينه و حسبه ،

إنّ المال و البنين حرث الدّنيا ، و العمل الصالح حرث الآخرة ،

و قد يجمعهما الله لأقوام ، فاحذروا من الله ما حذّركم من نفسه ،

و اخشوه خشية ليست بتعذير ، و اعملوا في غير رياء و سمعة ، فإنّه من يعمل لغير الله يكله الله لمن عمل له .

نسأل الله منازل الشّهداء ، و معايشة السّعداء ، و مرافقة الأنبياء أيّها الناس : إنّه لا يستغني الرّجل و إن كان ذا مال عن عشيرته ،

و دفاعهم عنه بأيديهم و ألسنتهم ، و هم أعظم النّاس حيطة من ورائه ،

[89]

و ألمّهم لشعثه ، و أعطفهم عليه عند نازلة إذا نزلت به ، و لسان الصّدق يجعله الله للمرء خير له من المال يورّثه غيره ،

أ لا : لا يعدلنّ أحدكم عن القرابة ، يرى بها الخصاصة أن يسدّها بالّذي لا يزيده إن أمسكه ، و لا ينقصه إن أهلكه ، و من يقبض يده عن عشيرته فإنّما يقبض عنهم يد واحدة ، و تقبض منهم عنه أيد كثيرة ، و من تلن حاشيته يستدم من قومه المؤدّة . قال الرضي رحمه الله : أقول : الغفيرة هنا : الزيادة و الكثرة . من قولهم للجمع الكثير : الجم الغفير ، و الجماء الغفير و يروى : عفوة من اهل او مال . و العفوة :

الخيار من الشيء يقال : اكلت عفوة الطعام . اي خياره .

و ما احسن المعنى الذي أراده عليه السلام بقوله : « و من يقبض يده عن عشيرته الى تمام كلامه » فان الممسك خيره عن عشيرته انما يمسك نفع يد واحدة ،

فاذا احتاج إلى نصرتهم ، و اضطر الى مرافدتهم قعدوا عن نصره ، و تثاقلوا عن صوته ، فمنع ترافد ، الأيدي الكثيرة ، و تناهض الأقدام الجممة . و الفالج :

هو الظافر الفائز ، و الياسر : اللاعب بالايسار اي الأقداح .

المعنى

هذه الخطبة الشريفة قد احتوت على المواعظ الكافية و النصائح الشافية ،
و الأمر باقتناء الفضائل و الاشتمال على المكارم ، و النهي عن الاخلاق الرذيلة ،
و تسلى الفقير و تأديب الغني ، فان الله تعالى خلق الخلق و جعل فيهم القوي و الغرائز و الطبائع التي تربو و تنمو بنموّ الانسان ، و لا تفارقه الا حين الموت .

فمن تلك الطبائع : الشهوة ، الغضب ، حب الحياة ، حب الاستقلال ، حب الاستطلاع ، حب الترقّي و التعالي و هو الحسد : و معنى الحسد أن الأنسان من حيث غريزته لا تطيب نفسه بأن يرى قرينه او شخصا مثله قد وصل الى مقامات مشكورة مذكورة من المال و الولد و الجاه و غيرها ، فيحب أن يسهّل لنفسه الوصول الى تلك الدرجات حتى يعادل ذلك الشخص ، و يسلبه إختصاص تلك الفضيلة ، فاذا لم يتمكن من ذلك تمنيّ زوال تلك النعمة عن صاحبها ، حتى يزول الامتياز و هذا هو الحسد .

و هذه الغريزة موجودة في كل فرد من افراد الناس : من الرجال و النساء و الاطفال ، و لكن هناك موانع تحول بين بعض الاشخاص و بين اظهار تلك الغريزة و الطبيعة ، و تلك الموانع إمّا شرعية كالاخبار الواردة في ذم الحسد ، أو موانع عرفية كالمحافظة على شخصية المتكلم ، او الخوف المحسود أو غير ذلك من الموانع ،

و النواهي الواردة عن الشرع في هذا الموضوع إنما تنهي عن اظهار الحسد و إبرازه ، و لا تنهي عن وجوده ، لأنه تكليف فوق الطاقة ، إذ الانسان مجبّل على هذه الطبيعة ، فلا يمكن تركها ، فذكر أمير المؤمنين عليه السلام مقدمة لبيان النهي عن الحسد ، حتى يكون ذو المقدمة أوقع في النفوس و آثر ، و المقدمة هذه :

[91]

« أما بعد فانّ الأمر ينزل من السماء كقطرات المطر إلى كل نفس بما قسّم لها من زيادة أو نقصان » أي جميع المقدرات و الوقائع ، و كل ما يجري على الناس من الحياة و الممات ، و الصحة و المرض ، و العزة و الذله ، و الغنى و الفقر ، و غير ذلك من الأحوال التي يراها الانسان كلها بأمر الله تعالى و تقديره و تدبيره و حكمه ، و بعبارة أخرى : لا مؤثّر في الكون إلاّ الله تعالى ، و المقدرات تنزل من السماء إلى أهل الأرض كقطرات الأمطار من حيث الكثرة إلى كل فرد و كل نفس من الناس ، من الأشياء المقسومة لها من زيادة في العمر أو الرزق ،

أو نقصان في المال أو الأولاد و حاصل الكلام : أن الامور الواقعة الحادثة الكائنة لا تقع و لا تكون لا بعد إرادة الله و إذنه و تقديره و أمره « فإذا رأى أحدكم لأخيه غفيرة في أهل أو مال أو نفس فلا تكونن له فتنة » لا شك ان الناس في الدنيا على طبقات و درجات من جميع النواحي ، فاذا رأى الانسان عند أخيه المؤمن زيادة نعمة من نعم الله تعالى كالعزة و الشرف و زيادة الأهل و المال و الولد و غير ذلك لا يحسده على تلك النعم ، لأنّ الله هو الذي أنعم على عبده بتلك النعمة ، كما قال تعالى : أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله . و هذا تأديب للفقراء بعدم وقوعهم في الفتنة بسبب الحسد ، لأن الحسد معناه الغضب من أمر الله تعالى و إرادته ، و عدم الرضا بذلك ، و هذا الحسد هو الذين يوقع الانسان في العذاب و الفتنة ، و لا يناله الاّ الحرمان و الندم ، كاخوة يوسف الذين طرحوا أخاهم في البئر كي تتوجه اليهم عاطفة ابيهم يعقوب عليه السلام ، فانتقض الغرض .

و الشواهد كثيرة من الآيات و الاخبار و الاحاديث و القضايا و الوقائع

[92]

و الابيات قد تكون مذكورة في محالها ، نضرب عن ذكرها صفحا ، حفظا الاسلوب الكتاب .

« فان المرء المسلم ما لم يغش دناءة تظهر فيخشع لها اذا ذكرت ، و تغرى بها لئام الناس كان كالفالج الياسر الذي ينتظر اول فوزة من قداحة ، توجب له المغنم ، و يرفع بها عنه المغرم » المسلم اذا لم تظهر منه نقيصة أو معصية ، أو دنائة نفسية فيخجل اذا ذكّر بها و يستحيي منها ، و لا يكون امله اشد شيء في الخارج بحيث يحتج لئام الناس و عوامهم بفعله ، كالرجل اذا كان من ذوي البيوت و الشرف و تظاهر بالمعصية علنا كاللعب بالقمار أو سائر المعاصي فان عمله هذا يكون سببا لبعض اللئام و السفلة من الناس ، و كأنهم يعتبرون عمله هذا حجة عليهم ،

و جائزا و مستوفيا و يستدلون به .

و المسلم اذا كان سليم العرض و المقصود من العرض : هو موضع المدح و الذم من الانسان ، سواء كان في نفسه او سلفه ، او من يلزمه امرء ، كالزوجة و الولد و الأهل و لم تكن له صحيفة سوداء ، و لا سابقة سيئة من المعايب الاخلاقية ، و النقائص النفسية كان كالفالج ، و هو المقامر الفائز في قماره .

و توضيحا لهذه التشبيه لا بد من ذكر الميسر اي القمار الذي كان متداولا في زمن الجاهلية ، حتى يظهر وجه الشبه ، و يتضح الكلام فقد ذكر ابن ميثم ،

و غيره من الشراح و المفسرين و اللغويين ما هذا مضمونه : ان كان يجتمع عشرة رجال ، و يشترون جذورا بعيرا نسيئة ، ثم ينحرون و يقسمون لحمه عشرة جزاء متساوية ، ثم يأتون بخشبات كالسهام ، الا انها لا رويش لها و لا نصل ، يقال لها القداح و الازلام .

و لكلّ واحدة من تلك الخشبات اسم و فرض ، أي من فاز بخشبة معينة فله نصيب واحد ، و النصيب العشر من اجزاء الجزور ، و من فاز بخشبة اخرى فله

[93]

نصيبان ، و هكذا و هذه اسماء القداح و مقدار فروضها :

1 الفذ : و فيه نصيب واحد 2 التوأم : و فيه نصيبان 3 المسبل : و فيه ثلاثة حصص 4 النافس : و فيه اربعة حصص 5 الحلس : و فيه خمسة حصص 6 الرقيب : و فيه ستة حصص 7 المعلى : و فيه سبعة حصص فهذه خشبات سبعة بأسمائها و مقدار حصصها ، و كانوا يضيفون الى هذه القداح قداحا ثلاثة ، و أسماؤها : السفيح و المنيح و الوغد . و هذه الثلاثة لا نصيب لها ، فاذا إجتمع العشرة أخذ كل واحد منهم خشبة و كتب عليها إسمه ، او علمه ،

بعلامة ، ثم يأتون برجل قد اشتهر أنه لم يأكل لحما بثمن يقال له الحرضة .

فيدفعون اليه الخشبات ، فيضعها في حجره ثم يلقون عليها ثوبا كاللعب بالخاتم و يعصبون أصابع هذا الرجل كيلا يمس فيعرف الخشبات و مقدار سهامها ، ثم يأتي رجل آخر و يقف خلف الرجل الذي عنده القداح يقال له :

الرقيب . فيدخل (الحرضة) يده تحت الثوب ، و يخرج قدحا قدحا باسم اولئك العشرة ، مثلا : يخرج قدحا باسم زيد ، فينظر زيد الى مقدار حصته ، فيأخذ حصته من اجزاء الجزور ثم يخرج قدحا آخر باسم سعيد مثلا ، فينظر سعيد إلى مقدار نصيب القدح فيأخذ حقه ، و هكذا حتى تستوفي الاجزاء و السهام ،

و بعبارة اخرى : يخرج القداح بقدر الأعشار العشرة ، فاذا استوفت الأجزاء غرم الباقون ثمن الجزور ، فيدفعون الثمن إلى بائع الجزور بحسب سهامهم التي

[94]

في قداحهم المكتوبة عليها اسماؤهم كما تقدم .

و اكثر هذه السهام هو القدح المعلى الذي لا نصيب اكثر منه ، اذا عرفت هذا فاعلم أن أمير المؤمنين عليه السلام شبه المؤمن التقي ، الطاهر الثوب باللاعب الذي ينتظر الحظ الأوفر و القدر الأكثر بغير غرامة .

و بيان ذلك كلامه عليه السلام : « و كذلك المسلم البريء من الخيانة ينتظر من الله إحدى الحسنيين : إما داعي الله فما عند الله خير له ، و اما رزق الله فاذا هو ذو أهل و مال و معه دينه » اي أن المسلم اذا رأى نعمة على أحد ، و مالت نفسه الى تلك النعمة ، فسأل من الله تعالى أن يرزقه تلك النعمة فهو بين امرين :

اما أن يقبضه الله بالموت ، فما عند الله خير و أبقى ، و لا شك ان الموت للمؤمن خير من الحياة ، لأن الموت عنده هو الانتقال من سجن الى قصر كما أسلفنا .

و اما ان يستجيب الله دعائه فيرزقه و يعطيه ما سأل و اراد من الرزق الواسع و الأهل و الولد و سائر لوازم الحياة مع سلامة دينه ، و بقاء شرفه و شخصيته ،

و صيانة ايمانه ، و حفظ معنوياته ، بعكس الحسد الذي يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، و الحسود دائما مهموم مغموم ، و لا يصل الى مقصوده و مطلوبه « ان المال و البنين حرث الدنيا ، و العمل الصالح حرث الآخرة » هاتان الجملتان مأخوذتان من الآية الشريفة : المال و البنون زينة الحياة الدنيا و الباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً و خير أَملا .

لأن كل ما يحتاج اليه الانسان في حياته لأجل المعيشة فهو حرث الدنيا ،

أي ما يكتسبه الانسان في الدنيا لدنياه ، كما قال تعالى : زين للناس حب الشهوات من النساء و البنين و القناطير المقنطرة من الذهب و الفضة ، و الخيل المسومة و الانعام و الحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا و اللّه عنك حسن المئآب

[95]

فهذه الاشياء المتقدمة بعض ما يحبه الانسان ، و لكنها لا تنفعه في آخرته لأن الآخرة يوم لا ينفع فيه مال و لا بنون الا من اتى الله بقلب سليم ، فالحرث الذي ينفع الانسان في آخرته هو العمل الصالح الذي عمله في حياته كما في الحديث : الدنيا مزرعة الآخرة .

و حرث الآخرة ايضا الصدقات الجارية الباقية بعد مماته ، كما قال رسول الله صلى الله عليه و آله اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا عن ثلاث : ولد صالح يستغفر له ، او صدقة جارية ، او علم ينتفع به الناس .

« و قد يجمعهما الله لاقوام » اي قد يعطي الله الدنيا و الآخرة لبعض عباده كما قال عز من قائل : فآتيهم الله ثواب الدنيا و حسن ثواب الآخرة و الله يحب المحسنين . و في الديوان المنسوب الى امير المؤمنين عليه السلام :

و واحد فاز بكلتيهما

قد جمع الدنيا مع الآخرة

« فاحذروا من الله بما حذركم من نفسه » هذه الكلمة مأخوذة من قوله تعالى :

و يحذركم اللّه نفسه ، و ذلك كما يقال : احذر الاسد . اي صولته و افتراسه ،

دون عينه ، فالمعنى الحذر من غضب الله و نقمته و عذابه . او مأخوذة من الآية الكريمة : فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب اليم .

« و اخشوه خشية ليست بتعذير » الخشية : هي الخوف ، و لكنها تفرق عن الخوف في اصطلاح اهل الحقائق ، كما قال شيخنا الطوسي (قدس سره) في بعض مؤلفاته ما حاصله : ان الخشية و الخوف و ان كانا في اللغة

بمعنى واحد ، الا ان بين خوف الله و خشيته في عرف ارباب القلوب فرقا : و هو ان الخوف تألم النفس من العقاب المتوقع بسبب ارتكات المنهيات ، و التقصير في الطاعات ،

[96]

و هو يحصل لأكثر الخلق ، و ان كانت مراتبه متفاوتة جدا ، و المرتبة العليا لا تحصل الا للقليل ، و الخشية تحصل عند الشعور بعظمة الحق و هيبته ، و خوف الحجب عنه ، و هذه حالة او لا تحصل الا لمن اطلع على حال الكبرياء ، و ذاق لذة القرب ، و لذا قال سبحانه : انما يخشى الله من عباده العلماء ، و اما قوله : خشية ليست بتعذير . فان المعصية و مخالفة حكم الله تعالى على قسمين : قسم يعتذر منه العبد الى الله عز و جل ، و القسم الثاني هي المعصية التي يرتكبها الشخص بلا عذر و هو يعلم ان الله يعذبه ، فهو يخاف و يخشى ، و خشيته ليست بتعذير ، فيأمر عليه السلام الناس ان يخشوا الله خشية بلا عذر .

« و اعملوا في غير رياء و سمعة ، فانه من يعمل لغير الله يكله الله لمن عمل له » ينهى امير المؤمنين عليه السلام عن العمل بقصد الرياء ، كأن يصلي الرجل صلاة فيطيل ركوعه و سجوده حتى يراه الناس فيمدحونه ، او يقوم بعمل كبناء مسجد يريد به السمعة ، اي يحب ان يسمع بعمله الذي عمله .

فان العمل اذا كان مشوبا بالرياء و السمعة اي لم يكن خالصا لوجه الله تعالى لا اجر فيه و لا ثواب بل هو نوع من انواع الشرك الخفي ، و معنى الشرك الخفي : ان الانسان يعبد ربه للناس فهو قد اشرك في عبادة ربه ، لأنه صلى الله و للناس ، و العبد يعاقب على الرياء في العمل . كما في الحديث : ينادى المرائي يوم القيمة باربعة اسماء : يا كافر يا فاجر يا غادر يا خاسر : ظل سعيك و بطل عملك ،

لا خلاق لك ، التمس اجرك ممن كنت تعمل له يا مخادع .

و هذا تصريح منه عليه السلام ان العمل اذا لم يكن خالصا لله لا يقبل ،

و يقال له : اطلب اجرك من الذي عملت . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا و لا يشرك بعبادة ربه احدا .

[97]

« نسأل الله منازل الشهداء و معايشة السعداء ، و مرافقة الانبياء » دعا عليه السلام ربه و سأله درجات أوليائه الصالحين و عباده المكرمين من الشهداء و السعداء ، و مصاحبة الانبياء و هي مراتب و درجات ، بعضها على بعض ، فالشهيد يكون سعيدا ، ثم يرافق الانبياء في الجنة .

إلى هنا كان كلامه عليه السلام في النهي عن الحسد ، و تأديب الفقراء و تسليتهم ،

فذكر ان مجاري الأمور بيد الله تعالى ، و أنه ينبغي ان يسأل العبد من ربه كل ما يريد من نعم الدنيا و الآخرة ، و لا ينبغي أن يحسد ارباب النعم ، و ختم كلامه بخطاب خاطب به الأغنياء و أصحاب الثروة ، و أمرهم بمساعدة ارحامهم و أقربائهم ، و لعلنا نذكر في المستقبل إنشاء الله بعض الأخبار و الاحاديث الواردة في فوائد صلة الرحم ، و مضار قطعه ، و لهذا قال عليه السلام :

« ايها الناس : لا يستغني الرجل و ان كان ذا مال عن عشيرته ، و دفاعهم عنه بأيديهم و السنتهم » لأن الانسان كلما ازداد مالا ازداد احتياجا ، و هذا شيء ضروري لا يحتاج الى برهان ، فاحتياج الغني الى الناس أكثر من احتياج الفقير ،

فالغني يحتاج الى : سائق لسيارته ، و بوّاب لداره ، و فلاح لحديقته ، و طباخ لطعامه ، و خادم لبيته ، و عامل في محل تجارته ، و محاسب لمصارفه ، و مترجم لمراسلاته الى غير ذلك من انواع الاحتياج ، و الفقير بمعزل عن

هذه الاشياء كلها ،

و الانسان اذا وجدت له شخصية مرموقة لا بد و أن الناس يحسدونه ، و يوجّهون اليه التهم ، و يتربصون به الدوائر ، فيحتاج الى مدافع يدفع عنه بيده و لسانه ، بأن يرد عنه الغيبة ، و يقوم في وجه من يذكره بسوء ، و يحامي عنه لدى الاحتياج ، و يذب عنه اعدائه ، و يساعده عند الشدائد و يعاونه في النوائب ،

و عشيرة الانسان أولى من غيرهم بالدفاع عنه ، و كلامهم فيه اصدق عند الناس

[98]

من غيرهم ، فالانسان مهما كان صاحب مال و ثروة مع ذلك فهو محتاج ، فلا ينبغي له ان يقطع إحسانه عن أفراد عشيرته الأقربين إن كانوا فقراء و لا يظن بأنه غني عنهم فلا يبالي أرضوا عنه ام غضبوا عليه ، فيطغى أن رأه استغنى .

« و هم أعظم الناس حيطة من ورائه و ألمهّم لشعثه ، و اعطفهم عليه عند نازلة اذا انزلت به » لما كان الانسان عبدا للاحسان ، فالاحسان يورث الحب و الوداد في القلوب ، و من دواعي الحب الدفاع عن الشخص المحسن ، و مساعدته لدى الاحتياج ،

و خاصة اذا كان اقارب الشخص و ارحامه فقراء مستحقين للاحسان ، فاذا أحسن اليهم ، و أشبع جائعهم ، و كسى عريانهم ، و آوى مسكينهم ، و أغناهم بالمال فان نتيجة ذلك اولا : الثواب الآلهي في الدنيا و الآخرة ، و ثانيا ان اذا دهمته بليّة ، او ابتلي بما يحتاج فيه إلى المساعدة فعشيرته اولى بان يجتمعوا حوله و يعاضدوه ، فان شفقة العشيرة و عاطفتهم جبليّة ، كما قيل : العرق دساس .

كمحبة الآباء و الامهات .

لأن العشيرة اعظم الناس حيطة و احاطة بالشخص ، و أجمعهم لأموره المتفرقة المتشتّتة ، و أعطفهم و أرأفهم به إذا نزلت به مصيبة ، او ابتلي بمرض او عدو ،

لان القرابة من دواعي الشفقة و المحبة بين ذوي الأرحام و الأقارب ، فلا ينبغي للغني ان يقطع و يمنع إحسانه عن فقراء عشيرته ، او يحبس عنهم لطفه و فضله إن لم يكونوا فقراء و على إي حال ينهي امير المؤمنين عن قطع الرحم و منع الشخص إحسانه عن عشيرته سواء كانوا فقراء او اغنياء ، و لا اقصد بالاحسان مطلق الانفاق عليهم حتى لا يتصور ذلك في أغنيائهم ، بل المقصود من الاحسان الانفاق على فقرائهم ، و عيادة مرضاهم ، و تشييع جنائزهم ، و التزاور و التبادل و غير ذلك من آداب الانسانية التي هي من مصاديق صلة الرحم ، ثم قال عليه السلام :

« و لسان الصدق يجعله الله للمرء في الناس خير له من المال يورّثه غيره » هذه نعمة

[99]

تفضل الله بها على خليله ابراهيم عليه السلام و اولاده لقوله تعالى : و وهبنا لهم من رحمتنا و جعلنا لهم لسان صدق علياً ، اي ثناء حسنا في الناس ، سائرا فيهم ،

فالمقصود من لسان الصدق هو الذكر الجميل ، و الحديث الحسن ، يجعله الله لعبده بسبب الاحسان على الناس ، و هذا الذكر الجميل يتركه الانسان من بعده حتى يذكره الناس بالخير ، و يترحمون عليه و يذكرونه بالجميل خير و أحسن له من ان يترك الانسان الاموال لغيره ، و يمنع عشيرته عنها ، لأن البخل انما يهدّد الانسان بالفقر و نفاد المال ، و لكن ليس الامر كذلك ففي الحديث : إن لله مناديا ينادي : اللهم اخلف لكل منفق خلفا و لكل ممسك تلفا .

و قال الشاعر :

اذا جادت الدنيا عليك فجد بها
على الناس طرا قبل ان تتقلّت

فلا الجود يفنيها إذا هي اقبلت
و لا البخل يبقيها اذا هي ولّت

ثم قال عليه السلام : « أ لا : لا يعدلن احدكم عن القرابة يرى بها الخصاصة ان يسدّها بالذي لا يزيده إن امسكه و لا ينقصه إن اهلكه » اي اذا رأى احدكم الخصاصة الفقر على اقاربه و أرحامه فلا يميل و لا يرغب عن سدّ فاقتهم ،

و إصلاح شأنهم و كفّ ماء وجههم بالمال ، ذلك المال الذي لا ينمو و لا يزيد بالامساك ، و لا يضره الانفاق ، لأنه زائد عن مقدار حاجته و فاضل معيشته ،

ثم بيّن عليه السلام بعض المضار الاجتماعية و الفردية لقطع الرحم فقال : « و من يقبض يده عن عشيرته فانما تقبض منه عنهم يد واحدة ، و تقبض منهم عنه أيد كثيرة » يعنى ان الانسان اذا قاطع عشيرته ، و منع إحسانه عن اقربائه فانه إنما يقطع عنهم احسان شخص واحد و يد واحدة ، و لكنه قطع بالنتيجة عن نفسه احسان الأشخاص الكثيرين ، و فوائد جماعة كبيرة ، تلك الفوائد التي مرّ ذكرها ،

و لقد شرح سيدنا الرضى هذا المعنى ، كما ذكرنا .

ثم قال عليه السلام : « و من تلن حاشيته يستدم من قومه المودة » عطفا على

ما سبق ، ان كل من حسن خلقه ، و تواضع للناس تدوم محبة الناس له ، لان حسن الخلق سبب للتآلف ، و التواضع ينتج المودة في القلوب ، كما ان التجبّر و التفرعن يورث التنفر و الانزجار كما قال تعالى : فبما رحمة من الله لنت لهم ، و لو كنت فظاً غليظ ، القلب لانفضوا من حولك .

و قد روى شيخنا الكليني في الكافي هذه المقطوعة من الخطبة بصورة اخرى ، نذكرها على عهدنا في أول الكتاب :

قال امير المؤمنين عليه السلام : لن يرغب المرء عن عشيرته و ان كان ذا مال و ولد و عن مودتهم و كرامتهم ، و دفاعهم بأيديهم و السنتهم ، هم اشدّ الناس حيطة من ورائه ، و اعطفهم اليه ، و المهم لشعثه ان اصابته مصيبة ، و انزل به بعض مكاره الامور ، و من يقبض يده عن عشيرته فانما يقبض عنهم يدا واحدة ، و يقبض عنه منهم ايدي كثيرة ، و من يلن حاشيته يعرف صديقه منه المودة ، و من بسط يده بالمعروف اذا وجده يخلف الله له ما انفق في دنياه ،

و يضاعف له في آخرته ، و لسان الصدق للمرء يجعله الله في الناس خير من المال يأكله و يورّثه .

لا يزدادنّ احدكم كبرا و عظما في نفسه ، ونأيا بعدا عن عشيرته أن كان موترا في المال ، و لا يزدادن احدكم في اخيه زهدا ، و لا منه بعدا اذا لم يرد منه مروة و كان معوزا في المال ، و لا يعقل أحدكم عن القرابة بها الخصاصة ان يسدّها بما لا ينفعه إن امسكه ، و لا يضره ان استهلكه .

و هنا انتهت الخطبة الثالثة و العشرون

الخطبة الرابعة و العشرون

المتن

و من خطبة له عليه السلام و لعمري ما عليّ من قتال من خالف الحقّ و خابط الغيّ من إدّهان و لا إيهان فاتّقوا الله عباد الله و فرّوا إلى الله من الله و امضوا في الذي نهجه لكم ، و قوموا بما عصبه بكم ، فعليّ ضامن لفلجكم آجلا إن لم تمنحوه عاجلا .

اللغة

الادهان : المصانعة و المجاملة . و الايهان : الاضعاف . و نهجه : أوضحه ، و عصبه : ربطه . و الفلج : الفوز و الظفر . و تمنحوه : تعطوه .

المعنى

لعلنا نذكر في المستقبل القريب الزمان و المكان الذي تكلم الامام عليه السلام بهذه الكلمات ، و كيف كان فانه عليه السلام يظهر تصلبه في الدين ،

[102]

و خشونته في ذات الله ، بلا خوف و لا خشية من الميول و الأهواء ، و بلا مجاملة و مدارة على العواطف ، فيقول : « و لعمري ما عليّ من قتال من خالف الحق و خابط الغي من ادهان و لا إيهان » أي كل من خالف الحق و الاسلام و الشريعة وجب علي جهاده و قتاله ، و لا يوجد عندي مساهلة و مسامحة في قتالهم ، او ضعف في جهاد المتمردين الضالين ، لأن مداهنة أهل المعاصي و مسامحتهم معصية كبيرة ،

و لا ينبغي للمسلم أن يتساهل في حكم الله و دينه و شريعته حفظا للسياسة فان حفظ الدين و متابعة الاسلام لا يعارض بشيء ابدا ، و لا يزاحمه عمال و لا منفعة « فاتقوا الله ، عباد الله ، و فرّوا إلى الله من الله » الفرار من الله تعالى كما ورد في القرآن الكريم قوله عز و جل : ففروا إلى الله . أي أهربوا من عقاب الله إلى رحمته و ثوابه باخلاص العبادة له ، و قيل : ففروا الى الله بترك ما يشغلكم عن طاعته و يقطعكم عما أمركم الله به ، و كما نرى الطفل اذا ضربته امه يلوذ بها و يستجير بها ، و كأنه يستجير من امه بأمه ، كذلك العبد و لا مناقشة في الأمثال ينبغي أن يفر من الله إلى الله كما مثّلنا .

« و امضوا في الذي نهجه لكم ، و قوموا بما عصبه لكم » أي امشوا في الطريق الذي اوضحه الله لكم ، و قوموا بما أوجب الله عليكم ، و ربطه بكم من الواجبات و سائر التكاليف الشرعية ،

ثم وعدهم عليه السلام بالفوز و الظفر و النجاح ، و ضمن لهم ذلك فقال : « فعلي ضامن لفلجكم آجلا ان لم تمنحوه عاجلا » أي أنا ضامن بفوزكم في الآخرة و الثواب في الجنة ، ان لم تعطوا الثواب و الفوز في الدنيا لبعض الموانع أو المصالح ، و للتقوى معاني كثيرة نذكرها في صفة المتقين انشاء الله .

انتهت الخطبة الرابعة و العشرون

[103]

الخطبة الخامسة و العشرون

المتن

و من خطبة له عليه السلام ، و هي من أواخر خطبه ، خطب بها بعد فراغه من صفّين ، و إنقضاء أمر الحكمين و الخوارج ،

و قد تواترت عليه الأخبار باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد و قدم عليه عاملاه على اليمن و هما : عبيد الله بن العباس ، و سعيد ابن نمران ، لما غلب بسر بن أرطاة ، فقام عليه السلام إلى المنبر ،

ضجرا بتثاقل أصحابه عن الجهاد ، و مخالفتهم له في الرأي فقال عليه السلام :

ما هي إلاّ الكوفة ، أقبضها و أبسطها ، إن لم تكوني إلاّ أنت ، تهبّ أعاصيرك ، فقبّحك الله ، ثمّ تمثّل بقول الشاعر :

لعمر أبيك الخير يا عمرو : إنّني

على وضر من ذا الإناء قليل

ثم قال : أنبئت بسرا قد اطّلع على اليمن ، و إنّي و الله لأظنّ أنّ هؤلاء القوم سيدالون منكم بإجتماعهم على باطلهم و تفرّقكم عن

[104]

حقّكم ، و بمعصيتكم إمامكم في الحقّ ، و طاعتهم إمامهم في الباطل ،

و بأدائهم الأمانة الى صاحبهم ، و خيانتكم ، و بصلاحهم في بلادهم و فسادكم ، فلو إئتمنت أحدكم على قعب لخشيت أن يذهب بعلاقته :

أللّهمّ : إنّي قد مللتهم و ملّوني ، و سئمتهم و سئموني ، فأبدلني بهم خيرا منهم ، و أبدلهم بي شرا منّي ، اللهم مث قلوبهم كما يماث الملح في الماء أ ما و الله لوددت أنّ لي بكم الف فارس من بني فراس ابن غنم

هنالك لو دعوت أتاك منهم

فوارس مثل أرمية الحميم

ثم نزل عليه السلام من المنبر . قال الرضي رحمه الله : اقول : الأرمية : جمع رمي و هو السحاب . و الحميم هنا : وقت الصيف . و انما خص الشاعر سحاب الصيف بالذكر لأنه أشد جفولا و أسرع خقوفا . لانه لا ماء فيه ، و انما أراد الشاعر وصفهم بالسرعة اذا دعوا ، و الاغاثة اذا استغيثوا ، و الدليل على ذلك قوله : هنالك لو دعوت أتاك منهم .

اللغة

هبّت الريح . هاجب . و الأعاصير : جمع إعصار و هي الريح المستديرة على نفسها ، و الوضر : الوسخ و بقية الدسم في الاناء .

[105]

المعنى

كان دأب الشراح في هذا المقام أن يبدئوا بترجمة حياة معاوية و نسبه و جناياته و مخازيه و ساير سيئاته ، تمهيدا لأعمال بسر بن أرطاة ، و لكن هذا بحث يطول بيانه ، و لنا مجال واسع في المستقبل القريب إن شاء الله و الآن نقول :

بسر بن أرطاة ، أو إبن أبي أرطاة عميل من عملاء معاوية ، و سيئة من سيئاته و سيف غدره الذي كان يريق به دماء الابرياء من أولياء الله الصالحين ، و هم شيعة الامام أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام ، او الابرار من عباد الله المؤمنين الذين ما كانوا يخضعون و لا يلوون جيدهم لابن آكلة الاكباد ، لابن هند ذات الاعلام في مكة ، لابن ابي سفيان رئيس المنافقين و المفسدين ذلك الذي عرفت شيئا يسيرا من جرائمه و موبقاته في الجزء الاول و إليك بعض الفجائع التي ارتكبها عميل معاوية ، عميل الشيطان ، أجير الكفر و الظلم ، وليد الجور و الطغيان ، ربيب القسوة و الفظاظة ، حليف الهمجية و الوحشية عدو الانسانية و الاسلامية ، اولئك الذين سوّدوا صحائف التاريخ ، و مما يؤسف له : ان هؤلاء المجرمين كانوا تحت ستار الاسلام ، و الاسلام يتبرأ منهم ، و الانسانية تتنفر عنهم ، و البشرية تستنكف أن تشملهم و لا غرو و لا عجب فهذه بركات معاوية على الاسلام و المسلمين و هؤلاء ولائد ابن هند الزانية الشهيرة ، و هذه جنايات بني امية على أمة رسول الله صلى الله عليه و آله ، تلك الجنايات التي يتجدد ذكرها ما دام التاريخ موجودا عند البشر ، و اليك الواقعة :

[106]

روى ابن ابي الحديد : أن قوما بصنعاء اليمن كانوا من شيعة عثمان يعظمون قتله ، لم يكن لهم نظام و لا رأس ، فبايعوا لعلي عليه السلام على ما في أنفسهم ، و عامل أمير المؤمنين على صنعاء يومئذ عبيد الله بن العباس ، و عامله على الجند سعيد بن نمران ، فلما اختلف الناس على علي عليه السلام بالعراق و قتل محمد ابن ابي بكر بمصر ، و كثرت غارات أهل الشام ، تكلموا و دعوا إلى الطلب بدم عثمان ، فبلغ ذلك عبيد الله بن العباس فأرسل إلى الناس من وجوههم ، فقال :

ما هذا الذي بلغني عنكم ؟ قالوا : إنا لم نزل نفكر في قتل عثمان ، و نرى مجاهدة من سعى عليه .

فحبسهم ، فكتبوا الى من في الجند من أصحابهم ، فساروا بسعيد بن نمران و اخرجوه من الجند ، و اظهروا امرهم ، و خرج اليهم من كان بصنعاء و انضم اليهم كل من كان على رأيهم ، و لحق بهم قوم لم يكونوا على رأيهم ، ارادة أن يمنعوا الصدقة ، فالتقى عبيد الله العباس بسعيد بن نمران و معهما شيعة علي عليه السلام ، فقال ابن عباس لابن نمران : و الله لقد اجتمع هؤلاء ، و انهم لنا لمقاربون و إن قاتلناهم لا نعلم على من تكون الدائرة ؟ فلهم لنكتب الى أمير المؤمنين عليه السلام بخبرهم .

فكتب الى أمير المؤمنين عليه السلام ، اما بعد ، فانا نخبر أمير المؤمنين أن شيعة عثمان وثبوا بنا ، و اظهروا أن معاوية قد شيد امره ، و اتسق له اكثر الناس و إنا سرنا إليهم بشيعة أمير المؤمنين ، و من كان على طاعته . . . الخ فلما وصل كتابهما ساء عليا عليه السلام و أغضبه ، و كتب اليهما .

من علي أمير المؤمنين الى عبيد الله بن العباس و سعيد بن نمران .

سلام الله عليكما ، فإني احمد إليكما الله الذي لا اله إلا هو ، أما بعد . فانه

[107]

لما أتاني كتابكما تذكران فيه خروج هذه الخارجة ، و تعظّمان من شأنها صغيرا و تكثران من عددها قليلا ، و قد علمت أن نخب جبن افئدتكما و صغر أنفسكما ، و شتات رأيكما و سوء تدبيركما هو الذي افسد عليكما من كان عن لقائكما جبانا ، فاذا قدم رسولي عليكما فامضيا إلى القوم حتى تقرئا عليهم كتابي اليهم ، و تدعواهم الى حظّهم ، و تقوى ربهم ، فان اجابوا احمدنا الله و قبلناهم ، و ان حاربوا استعنا بالله عليهم و نابذناهم على سواء ، إن الله لا يحب كيد الخائنين .

فكتب عليه السلام . من عبد الله علي أمير المؤمنين الى من شاق و غدر من أهل الجند و صنعاء اما بعد . فاني احمد الله الذي لا إله إلا هو الذي لا يعقب له حكم ، و لا يرد له قضاء ، و لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، و قد بلغني تجرؤكم و شقاقكم و إعراضكم عن دينكم بعد الطاعة ، و اعطاء البيعة ، فسألت أهل الدين الخالص و الورع الصادق و اللب الراجح عن بدء مخرجكم و ما نويتم به ، و ما أحمشكم له فحدّثت عن ذلك بما لم أر لكم في شيء منه عذرا مبينا ، و لا مقالا جميلا و لا حجة ظاهرة ، فاذا أتاكم رسولي فتفرقوا ، و انصرفوا الى رحالكم ، أعف عنكم و اصفح عن جاهلكم و احفظ قاصيكم ، و أعمل فيكم بحكم الكتاب ، فان لم تفعلوا فاستعدّوا لقدوم جيش جم الفرسان ، عظيم الاركان يقصد لمن طغى و عصى ، فتطحنوا كطحن الرحى ، فمن أحسن فلنفسه ، و من أساء فعليها و ما ربك بظلام للعبيد .

و ارسل الكتاب مع رجل من همدان ، فقدم عليهم بالكتاب ، فلم يجيبوه الى خير ، فقال لهم : اني تركت أمير المؤمنين يريد ان يوجه اليكم يزيد بن قيس الارحبي في جيش كثيف ، فلم يمنعه الا انتظار جوابكم . فقالوا : نحن سامعون إن عزل عنا هذين الرجلين . عبيد الله و سعيدا .

[108]

فرجع الهمداني الى علي عليه السلام فأخبره خبر القوم ، و كتبت تلك العصابة حينئذ الى معاوية يخبرونه ، فلما قدم كتابهم دعا معاوية بسر ابن ارطأة ، و كان قاسي القلب ، فظا سفاكا للدماء ، لا رأفة عنده و لا رحمة ، فأمره أن يأخذ طريق الحجاز و المدينة و مكة حتى ينتهي الى اليمن ، و قال له : لا تنزل على بلد على طاعة علي إلا بسطت عليهم لسانك حتى يروا أنهم لا نجاة لهم ، و انك محيط بهم ثم اكفف عنهم ، و ادعهم الى البيعة لي فمن ابى فاقتله ، و اقتل شيعة علي حيث كانوا .

سار بسر بن أرطاة في ثلاثة آلاف ، اذا وردوا ماء أخذوا إبل اهل ذلك الماء فركبوها ، و قادوا خيولهم حتى يردوا الماء الآخر فيردون تلك الابل ، و يركبون إبل هؤلاء لئلا يصل الخبر الى البلاد التي يقصدونها فلم يزل يصنع ذلك حتى قرب الى المدينة فاستقبلتهم قضاعة ينحرون لهم الجزر حتى دخلوا المدينة ، و عامل علي عليه السلام على المدينة أبو ايوب الانصاري صاحب منزل رسول الله صلى الله عليه و آله ، فخرج عنها هاربا ، و دخل بسر المدينة فخطب الناس و شتمهم ،

و تهددهم يومئذ و توعدهم ، و قال . شاهت الوجوه ، ان الله تعالى ضرب مثلا .

قرية كانت آمنة مطمئنه ، يأتيها رزقها رغدا فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع و الخوف . و قد أوقع الله تعالى ذلك المثل بكم و جعلكم أهله ، كان بلدكم مهاجر النبي و منزله ، و فيه قبره و منازل الخلفاء من بعده . فلم تشكروا نعمة ربكم و لم ترعوا حق نبيكم ، و قتل خليفة الله بين اظهركم ، فكنتم بين قاتل و خاذل ، و متربص و شامت ، ان كانت للمؤمنين قلتم . أ لم نكن معكم و ان كان للكافرين نصيب قلتم . أ لم نستحوذ عليكم و نمنعكم من المؤمنين .

ثم شتم الانصاري فقال . يا معشر اليهود و أبناء بني زريق و بني النجار و بني سالم و بني عبد الاشهل و الله لاوقعن بكم وقعة تشفي غليل صدور

[109]

المؤمنين ، و آل عثمان ، ا ما و الله لادعنّكم احاديث كالامم السالفة .

فتهددهم حتى خاف الناس أن يوقع بهم ، ففزعوا الى حويطب بن عبد العزى و يقال انه زوج امه . فصعد اليه المنبر و ناشده ، و قال : عترتك و انصار رسول الله ، و ليست بقتلة عثمان . فلم يزل به حتى سكن ، و دعا الناس الى بيعة معاوية فبايعوه و نزل ، فأحرق دورا كثيرة . منها دار زرارة بن حرون ، و دار أبي ايوب الانصاري ، و فقد جابر بن عبد الله الانصاري فقال : ما لي لا ارى جابرا ؟

يا بني سلمة . لا امان لكم عندي او تأتوني بجابر . فعاذ جابر بأم سلمة زوجة :

النبي ، فارسلت الى بسر بن ارطاة فقال . لا آمنه حتى يبايع : فقالت له ام سلمة اذهب فبايع . و قالت لابنها عمر . اذهب فبايع فذهبا فبايعاه .

ثم خرج الى مكة ، فلما قرب منها هرب قثم بن العباس ، و كان عامل علي عليه السلام و دخلها بسر ، فشتم أهل مكة و أنبّهم ، ثم خرج عنهم ، و استعمل عليهم شيبة بن عثمان ، و في طريقه من المدينة قتل رجالا و اخذ اموالا . ثم دخل الطائف و شتم و قتل ، ثم دخل نجران و شتم و قتل ، حتى دخل صنعاء ، و قد خرج عنها عبيد الله بن العباس و سعيد بن نمران ، و قد استخلف عبيد الله عليها عمرو بن اراكة ، فمنع بسرا عن دخولها ، و قاتله فقتله بسر و دخل صنعاء فقتل منها قوما ، و أتاه وفد مارب فقتلهم فلم ينج منهم الا رجل واحد .

ثم خرج بسر من صنعاء ، فأتى أهل جلسان و هم شيعة علي عليه السلام فقاتلهم و قاتلوه فهزمهم ، و قتلهم قتلا ذريعا ، ثم رجع الى صنعاء فقتل بها مأة شيخ من ابناء فارس . لأن ابني عبيد الله بن العباس كانا مستترين في بيت إمرأة من ابنائهم ، و ذبح بسر ابني عبيد الله بمدية كانت معه « و كانا طفلين صغيرين ،

و هما : عبد الرحمن و قثم ، فلما أراد ذبحها قيل : و كانا عند رجل من بني كنانة فقال له الكناني : و لم تقتل هذين و لا ذنب لهما ؟ فان كنت قاتلهما فاقتلني

[110]

معهما . قال : أفعل . فقتله ، ثم ذبحهما ، فخرجت نسوة من بني كنانة فقالت امرأة : يا هذا قتلت الرجال فعلا م تقتل هذين ؟ و الله ما كانوا يقتلون في الجاهلية و الاسلام ، و الله يا ابن أرطاة ان سلطانا لا يقوم الا بقتل الصبي الصغير و الشيخ الكبير و نزع الرحمة و عقوق الأرحام لسلطان سوء .

فلما سمعت ام الطفلين خبر ذبح ولديها اصلبها و له على ابنيها ، فكانت لا تعقل و لا تصغي الا الى قول من اعلمها انهما قد قتلا ، و لا تزال تطوف في الموسم تنشد الناس ابنيها بهذه الابيات :

و من احس 1 بابني الذين هما

كالدرتين تشظى عنهم الصدف

يا من احس بابني الذين هما

سمعى و قلبي فقلبي اليوم مردهف

يا من احس بابني الذين هما

مخ العظام فمخّى اليوم مختطف

نبئت بسرا و ما صدقت ما زعموا
من قولهم ، و من الافك الذي اقترفوا

انحى على ودجي ابني مرهفة
مشحوذة ، و كذاك الافك يقترف

حتى لقيت رجالا من ارومته
شم الأنوف لهم في قومهم شرف

فالآن العن بسرا حق لعنته
هذا لعمر ابي بسر هو السرف

من دل والهة حرى مولهة
على حبيبين ضلا اذ غدى السلف

و لما بلغت هذه الاخبار الى امير المؤمنين عليه السلام جزع جزعا شديدا ، و دعا على بسر لعنه الله و قال : اللهم اسلبه دينه ، و لا تخرجه من الدنيا حتى تسلبه عقله .

فاصابه ذلك و فقد عقله ، و كان يهذي بالسيف و يطلبه ، فيؤتى بسيف من خشب و يجعل بين يديه زق منفوخ ، فلا يزال يضربه حتى يسأم او يغشى عليه الى ان مات عليه لعائن الله .

----

(1) و في نسخة : ها من احس .

و بلغ عدد القتلى الذين قتلهم بسر في الحجاز و اليمن ثلاثين الفا ، سوى الذين احرقهم بالنار ، و عدا الدور التي هدمها .

و الخطب الأفظع الأشنع الذي ارتكبه عميل معاوية بسر بن ارطاة هو انه لما أغار على قبيلة همدان ، و هم شيعة علي أمير المؤمنين عليه السلام قتل رجالهم و سبى نسائهم ، فكن اول مسلمات سبين في السلام ، و لقد اشار سيدنا ابو ذر الغفاري الى هذه الجناية التي تقشعر منها الجلود جلود اهل الغيره و الحمية و الايمان بقوله :

و اما يوم العورة : فان نساء من المسلمات يسبين ، فيكشف عن سوقهن جمع ساق فأيتهن كانت اعظم ساقا اشتريت على عظم ساقها ، فدعوت الله ان لا يدركني هذا الزمان .

فصدرت هذه الجناية من بسر بن ارطاة . انه بعد ان سبى نساء الشيعة من همدان و ذهب بهن الى الشام اقامهن في السوق ، و عرضهن للبيع كما ذكرنا .

وصلت هذه الاخبار الفجيعة الى أمير المؤمنين عليه السلام و هو في الكوفة و كان عليه السلام يجلس كل يوم في موضع من المسجد الاعظم يسبح به بعد الغداة الى طلوع الشمس ، فلما طلعت نهض الى المنبر فضرب

باصبعيه على راحته و هو يقول : ما هي الا الكوفة . . . الخطبة .

ثم خطب خطبة اخرى و هي : أما بعد ايّها الناس إن اول فرقتكم و بدء نقصكم ذهاب اولى النهي و اهل الرأي منكم ، الذين كانوا يلقون فيصدّقون ، و يقولون فيعدلون ، و يدعون فيجيبون ، و أنا و الله قد دعوتكم عودا و بدءا ، و سرا و جهارا في الليل و النهار و الغدو و الآصال ،

فما يزيدكم دعائي الا فرارا و ادبارا ، أما تنفعكم العظة ؟ و الدعاء الى الهدى و الحكمة ؟ و اني لعالم بما يصلحكم و يقيم اودكم ، و لكني و الله لا أصلحكم بفساد

[112]

نفسي ، و لكن أمهلوني قليلا ، فكانكم و الله بامريء قد جائكم يحرمكم و يعذّبكم فيعذبه الله كما يعذبكم .

ان من ذل المسلمين و هلاك الدين ان ابن ابي سفيان يدعو الارذال و الاشرار فيجاب ، و ادعوكم و انتم الافضلون الاخيار فتراوغون و تدافعون ما هذا ا بفعل لمتقين ان بسر بن أرطاة وجّه الى الحجاز ، و ما بسر ؟ لعنه الله ، لينتدب اليه منكم عصابة حتى تردوه عن سننه . . . الخ فسكت القوم مليا لا ينطقون ، فقال عليه السلام : ما لكم ؟ مخرسون ؟

لا تتكلمون فقام اليه ابو بردة فقال : ان سرت يا امير المؤمنين سرنا معك . فقال :

اللهم : ما لكم ؟ ما سددتم لمقال الرشد ، في مثل هذا ينبغي لي ان اخرج ؟ انما يخرج في مثل هذا رجل ممن ترضون من فرسانكم و شجعانكم ، و لا ينبغي لي ان ادع الجند و المصر ، و بيت المال و جباية الارض و القضاء بين المسلمين ، و النظر في حقوق الناس ، ثم اخرج في كتبيه تتبع اخرى في فلوات و شغف الجبال ؟ هذا و لله الرأي السوء ، و الله لو لا رجائي الشهادة عند لقائهم لو قد حمّ لي لقاؤهم لقرّبت ركابي ، ثم لشخصت عنكم ، فلا اطلبكم ما اختلف جنوب و شمال ،

فو الله ان فراقكم لراحة للنفس و البدن .

فقام اليه جارية بن قدامة السعدي فقال : يا امير المؤمنين : لا اعدمنا الله نفسك و لا ارانا الله فراقك ، انا لهؤلاء القوم ، فسرحني اليهم . قال : فتجهز ،

انت لعمري لميمون النقيبة حسن النية صالح العشيرة .

فقام اليه وهب بن مسعود الخثعمي فقال : انا انتدب اليهم يا امير المؤمنين .

قال : فانتدب بارك الله فيك . فنزل .

[113]

فخرج جارية في الفين ، و ندب عليه السلام مع الخثعمي من الكوفة الفين ،

و قال لهما : اخرجا في طلب بسر حتى تلحقاه اينما لحقتماه ، فناجزاه فاذا التقيتما فجارية على الناس . و امر عليه السلام جارية ان يأتي البصرة ، و يضم الى عسكره مثلهم ، فخرج جارية و خرج معه الامام عليه السلام يشيّعه ، فلما ودّعه قال :

اتق الله الذي اليه تصير ، و لا تحتقر مسلما و لا معاهدا و لا تغصبن مالا و لا ولدا و لا دابة ، و ان حفيت و ترجّلت ، و صلّ الصلاة لوقتها .

فقدم جارية البصرة ، و ضمّ اليه مثل الذي معه من الجيش ، ثم اخذ على طريق الحجاز حتى قدم اليمن ، و لم يغصب احدا ، و لم يقتل احدا الا قوما ارتدّوا باليمن فقتلهم و حرقهم ، و سأل عن طريق بسر . فقالوا : اخذ على بلاد بني تميم . فقال : اخذ في ديار قوم يمنعون انفسهم . و اسرع في السير في طلب بسر حتى علم انه بمكة ،

فسار نحوه ، و وثب الناس على بسر حين انصرف ، لسوء سريرته ، فهرب بسر الى الشام حتى دخل على معاوية و قال : احمد الله يا امير المؤمنين : اني سرت في هذا الجيش اقتل عدوك ذاهبا و جائيا ، لم ينكب رجل منهم نكبة .

فقال معاوية : الله فعل ذلك لا أنت .

و اجتمع يوما عند معاوية عبيد الله بن العباس و بسر ، فقال ابن العباس لمعاوية انت أمرت هذا القاطع البعيد الرحم ، القليل الرحم بقتل ابني ؟ فقال معاوية : ما امرته بذلك ، و لوددت ان لم يكن قتلهما . فغضب بسر و نزع سيفه فالقاه و قال لمعاوية : اقبض سيفك عني ، قلّدتنيه و أمرتنى أن أخبط به الناس ففعلت ، حتى اذا بلغت ما اردت قلت : لم أهو و لم آمر ؟ فقال معاوية : خذ سيفك اليك ،

فلعمري انك ضعيف عاجز مائق ، حين تلقى السيف بين يدي رجل من بني

[114]

عبد مناف ، قد قتلت أمس إبنيه . فقال عبيد الله : أ تحسبني يا معاوية قاتلا بسرا بأحد إبني ؟ هو أحقر و الأم من ذلك ، و لكني لا أرى لي مقنعا و لا أدرك ثارا إلا ان اصيب بهما : يزيد و عبد الله ابني معاوية فتبسم معاوية و قال :

و ما ذنب معاوية و ابني معاوية هذه جملات اقتطفناها من كتب التواريخ ، و لقد اعرضنا عن ذكر كثير من القضايا التي صدرت بيد الاثيم المجرم بسر بن ارطأة ، و الدماء التي أراقها في الحجاز ، و نقلنا ما تقدم عن شرح ابن ابي الحديد و الغدير لشيخنا الاميني و الآن نشرع في شرح الخطبة فنقول :

قال عليه السلام « ما هي إلا الكوفة اقبضها و ابسطها » اي اتصرّف فيها كتصرف الانسان بيده و قبضها و بسطها ، و المقصود تحقير الكوفة بالنسبة الى سائر البلاد التي استولى عليها الخصم ، و تصرف فيها العدو ، يعني ما الفائدة من الكوفة و قد استولى معاوية على سائر البلاد كما يقول احدنا اذا كان ماله قليلا و هو بحاجة الى مال كثير : ما اصنع بهذا المال القليل مع احتياجى الى المال الكثير ؟

ثم وجّه عليه السلام الخطاب الى الكوفة فقال : « فان لم تكوني إلاّ أنت ،

تهب اعاصيرك فقبّحك الله » يعني ان لم تكن مملكتي الا الكوفة فهل هي مستقرة مطمئنة ؟ مع كثرة الرياح الشديدة اي الارآء المختلفة و الفتن فيها ، و اختلاف الأقوال ، و عصيان الناس أو امري ؟

ثم تمثل عليه السلام بقول الشاعر :

لعمر ابيك الخير يا عمرو : إنني

على وضر من ذا الاناء قليل

شبّه عليه السلام الكوفة و إمارتها بالدسم الباقي في الاناء بعد الفراغ منه ،

[115]

بالنسبة الى ما يشتمل عليه ، فالمقصود ان سلطتي و سلطنتي على الكوفة كبقية الدسم الموجودة في الأناء ثم اخبرهم بخروج بسر على اليمن فقال : انبئت بسرا قد اطلع على اليمن ، و ظهر على اهلها » اي وصلني الخبر ان بسر بن ارطاة دخل اليمن و غلب على اهلها ، « و اني و الله لاظن ان هؤلاء القوم سيدالون منكم » اي يغلبون عليكم ، اراد الامام عليه السلام أن يثير فيهم الحميّة ، و يهيج فيهم روح الشجاعة ، و لهذا عيّرهم و قال : اني اظن ان اصحاب معاوية سينتصرون عليكم و يغلبونكم ، و تكون لهم الدولة عليكم . ثم بيّن سبب ذلك بقوله :

« باجتماعهم على باطلهم » و هو إطاعة معاوية « و تفرّقكم عن حقكم » اي اطاعة اوامره بالجهاد مع معاوية و اصحابه « و بمعصيتكم إمامكم في الحق » و هو حكم الله الصحيح الحقيقي « طاعتهم امامهم في الباطل » و هو محاربته امام زمانه امير المؤمنين عليه السلام و سائر أحكامه الضالة المضلة ، و سيأتيك التفصيل ان شاء الله ثم بيّن السبب الثالث لنصرة اتباع معاوية فقال : و بأدائهم الامانة الى صاحبهم » حيث اطاعوا أمره ، لانهم بايعوه بالخلافة « و خيانتكم » اي الامام نفسه ، لانهم ما قاموا بمقتضيات البيعة اذ لو كان كذلك لما وقعت قضية تحكيم الحكمين ، و لما تكوّنت واقعة النهروان ، و لما وقعت تلك الفتن و الفجائع التي قام بها الخوارج ثم ذكر السبب الرابع فقال . « و بصلاحهم في بلادهم و فسادكم » و لعل السبب في ذلك كله ان اهل الشام كانوا يقلّدون اوليائهم بكل ما قالوا و امروا ، حتى و لو كان مخالفا للعقل كانوا يطيعون بلا تفكر و تدبر و امعان و نظر ، و اهل العراق كانوا يناقشوا اوليائهم و يظهرون ارائهم في كل موضوع ،

و لا يعرفون للامام قدره و حرمته و ذمته .

ثم شرح و شرع في بيان مقدار خيانتهم فقال : « فلو ائتمنت أحدكم على قعب لخشيت أن يذهب بعلاقته » اي لو جعلت قعبا و هو القدح المصنوع من الخشب أمانة عند احدكم لخفت ان يسرق و يأخذ علاقته ، اي ما يتعلق بالقعب

[116]

و ليس هذا بمبالغة ، ففي الحديث ان رجلا فقيرا رأى أمير المؤمنين عليه السلام و هو راكب ، فوصل الامام الى باب المسجد فنزل عن راحلته ، و اراد ان يصلي في المسجد صلاة التحية ، فالتفت الامام الى ذلك الرجل الفقير و سلم اليه عنان جواده ، و قال : انتظرني حتى اصلي ركعتين و اخرج . فلما دخل الامام عليه السلام الى المسجد ليصلي أقبل الرجل و سرق ركاب الجواد ، و ربط العنان بباب المسجد ، و ذهب الى السوق و باعه بدرهمين . . . الخ ثم انه عليه السلام دعا عليهم بقوله : « اللهم إني مللتهم و ملّوني ، و سئمتهم و سئموني » شكى عليه السلام الى الله تعالى ما لاقاه من الناس ، لأن الناس الى اشباههم أميل و أرغب ، فأمير المؤمنين يميل الى رسول الله صلى الله عليه و آله :

و الى سلمان و عمار و ابي ذر و نظرائهم و أهل الكوفة تارة يبايعون الضب ، و تارة يطيعون ابا موسى الأشعري الحمار ، و تارة يصلون خلف الوليد السكران و يميلون الى زياد بن ابيه و الى ابنه ، و الى الحجاج و من شاكلهم ، فهذا عبد الله بن عمر بن الخطاب لا يبايع امير المؤمنين بعد مقتل عثمان ، و لكنه يبايع رجل الحجاج نيابة عن يد عبد الملك بن مروان ، فرع الشجرة الملعونة ، و هكذا و هلم جرا « فأبدلني بهم خيرا منهم و ابدلهم بي شرا مني » اولا : قد سبق أن الانبياء كانوا اذا يئسوا من هداية امتهم و ايمانهم بالله يدعون عليهم ، و يسألون الله لهم العذاب كما قال نوح عليه السلام رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . . . الايات ، و كذلك قوم لوط و صالح و عاد و ثمود و غيرهم نزل عليهم العذاب بطلب من نبيّهم ، بالاضافة الى المعاصي التي ارتكبوها ، و أغضبوا الله تعالى .

و ثانيا : قد يتجاهل بعض الناس في معنى هاتين الجملتين : « ابدلني بهم خيرا منهم و ابدلهم بي شرا مني » فالظاهر من افعل التفضيل يقتضي أن اهل الكوفة كانوا صلحاء اخيارا ، فسأل الامام ربه أن يعوّضه خيرا منهم ، او أن الامام أمير المؤمنين

[117]

صلوات الله عليه كان و العياذ بالله شرا ، فدعا الله ان يبدلهم شرا منه اي اكثر منه شرا ، و ليس المقصود هذا و قد ورد في القرآن الكريم مثل هذا التعبير بقوله تعالى : أ فمن يلقى في النار خير ام من يأتي آمنا يوم القيامة . و قوله عز و جل : ا ذلك خير نزلا ام جنة الخلد . و قول يوسف عليه السلام : رب : السجن أحب الي مما يدعونني اليه .

فالمعنى أبدلني بالاخيار و أبدلهم برجل شر ، لأنه لا خير فيهم و لا شر فيه ،

ثم دعا عليه السلام بتراكم الهموم و الغموم على قلوبهم فقال : « اللهم : مث قلوبهم كما يماث الملح في الماء » اي اذب قلوبهم بالخوف و الاحزان ، كما يذوب الملح في الماء ، لأنهم ملأوا قلبه قيحا و صدره غيظا بمخالفتهم امره ، و عصيانهم قوله ، و قد استجاب الله دعاء الامام عليه السلام على اهل الكوفة حين ظهر عليهم الحجاج و عذبهم بأنواع العذاب ، و أنتقم الله منهم بالحجاج ، كما في الحديث : الظالم سيفي انتقم به ، و انتقم منه .

ثم تمنى عليه السلام ان يكون له اصحاب من بني فراس بن غنم ، و بنو فراس حي معروف بالشجاعة فقال عليه السلام : « ا ما و الله لوددت ان لي بكم الف فارس من بني فراس بن غنم .

(هنا لك لو دعوت أتاك منهم

فوارس مثل ارمية الحميم)

و قد مر كلام سيدنا الرضي في معنى هذا البيت .

قد فرغنا من الخطبة الخامسة و العشرين

الخطبة السادسة والعشرون

المقطوعة الاولى من الخطبة الخمسة و العشرين

المتن

و من خطبة له عليه السلام :

إنّ الله بعث محمدا صلّى الله عليه و آله و سلّم نذيرا للعالمين ،

و أمينا على التّنزيل ، و أنتم معشر العرب على شرّ دين ، و في شرّ دار ، منيخون بين حجارة خشن ، و حيّات صمّ ، و تشربون الكدر ، و تأكلون الجشب ، و تسفكون دماءكم ، و تقطعون أرحامكم ،

ألأصنام فيكم منصوبة ، و الآثام بكم معصوبة .

الكدر : نقيض الصفو . ، و الطعام الجشب . بلا ادام ، او الغليظ ،

و معصوبة . مربوطة و مشدودة .

المعنى

هذه المقطوعة من الخطبة تشير الى حال الناس في زمان الجاهلية قبل الاسلام ، و لنا مجال في المستقبل لبيان احوال العرب في الجاهلية ، و نكتفي هنا بذكر كلام ، و تفسير يسير ، قال عليه السلام . « ان الله بعث محمدا صلى الله عليه و آله نذيرا للعالمين ، و أمينا على التنزيل » اي القرآن « و انتم معشر العرب على شر دين » و هو عباد الاصنام و الاوثان ، او الالحاد و الزندقة و اللادينية « في شرّ دار » اي بلاد الحجاز من حيث انها ارض غير ذي زرع و لا ضرع ، و لا انهار جارية حتى تحيى بها الارض ، و يستفاد من بركاتها ، ثم بيّن بعض تلك الحالات بقوله .

« منيخون بين حجارة خشن » و هي الاراضي الجبلية ، الغير قابلة للزرع « و حيات صم » التي اذا لدغت لا ينفع معها دواء ، ثم ذكر عليه السلام ماءهم الذي يشربون و طعامهم الذي يأكلون . « تشربون الكدر » و هو الماء المجتمع من الامطار في الغدران ، قد اصهرته الشمس ، و تغيّر لونه و تعفنت رائحته « و تأكلون الجشب » اي الطعام الردي الغليظ الخشن ، البشع الطعم ، و لم تكن العرب تعرف طيبات الاطعمة كما في التاريخ .

« و تسفكون دماءكم و تقطعون ارحامكم » اشارة الى اختلال النظام الاجتماعي و الاخلاقي ، و شيوع الهمجية و الوحشية ، و التجرد عن العواطف و الانسانية « الأصنام فيكم منصوبة . و الآثام بكم معصوبة » بيان لعبادة الاصنام المتداولة في ذلك العصر ، و كثرة المعاصي و الآثام و الاجرامات التي كانوا يرتكبونها .

انتهت المقطوعة الاولى من الخطبة السادسة و العشرين .

المقطوعة الثانية

المتن

منها : فنظرت فإذا ليس لي معين إلاّ أهل بيتي ، فضننت بهم عن الموت ، و أغضيت على القذى ، و شربت على الشّجى ،

و صبرت على أخذ الكظم ، و على أمرّ من طعم العلقم .

اللغة

ظننت : بخلت . و أغضيت : أطبقت عليه جفني ، و القذى : ما يقع في العين مما يوجب الاذى ، و الشجى : ما اعترض في الحلق ، و العلقم : شجرة كثيرة المرارة

المعنى

المستفاد من كلمة (منها) أن السيد الرضي قدس سره قد قطع هذه الخطبة تقطيعا ، فهذه المقطوعة الثانية التي تشير الى القضايا التي حدثت بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه و آله في السقيفة و غيرها .

و قد وصلنا الى اصل الموضوع ، و اساس النزاع ، و مركز الخلاف ، و مبدء التفرقة بين المسلمين ، و مطلع كل فتنة وقعت في الاسلام و المسلمين ، و قد واعدناك يا صاحبي في الجزء الاول ان نلتقي بك في السقيفة ، و قد وصلنا الى السقيفة ،

[121]

و هي كالساباط ، لها سعف ، كانت مجمع الانصار ، و دار ندوتهم لفصل القضايا ،

و يقال لها : ظلة بني ساعدة . لأنها كانت كالظلال ، يستظلون بها عن الحر و البرد ،

و الشمس و المطر ، و مساحتها 500 متر مربع تقريبا ، و تبعد عن المسجد النبوي حوالي ستمائه . . قدم او اكثر ، من طريق باب السلام ، و كانت خربة خاوية على عروشها ، و لكن الحكومة السعودية جدّدت بنائها في السنوات الاخيرة ، و لما ذا ؟

لست ادري و على اي حال فانا نشكر الحكومة السعودية لاحيائها هذا الشاهد القديم الاصيل الذي هو أكبر شاهد على ما تدعيه الشيعة ، و اقوى دليل على فساد تلك الخلافة المدبّرة في ذلك المكان ، و انجاز المؤامرات و الدسائس التي تمّت خريطتها قبل ذلك .

لقد تركنا عليا عليه السلام في الجزء الاول يغسّل رسول الله صلى الله عليه و آله ، و ليس في البيت احد الا العباس او الفضل بن العباس و هو مربوط العين ، و جماعة من الناس وقوف خلف باب بيت النبي ينتظرون الفراغ .

و لا بد و انك تعلم يا صاحبي ان المهاجرين هم الذين اسلموا في مكة على يد رسول الله صلى الله عليه و آله ، ثم لما هاجر النبي من مكة الى المدينة هاجر بعده المسلمون شيئا فشيئا ، بعد ان تركوا ديارهم و اموالهم المنقولة و غير المنقولة ،

و ازواجهم و اولادهم لأجل ان ينقذوا أنفسهم من الضغط الشديد الذي شملهم من كفار مكة ، و مشركي قريش ، فهؤلاء المهاجرون .

و الانصار و هم المسلمون من اهل المدينة ، و هم قبيلتان : الأوس و الخزرج ،

و لكل منهما رئيس كبير مطاع ، و بينهما تنافس شديد و رقابة ،

اما رئيس الأوس فهو اسيد بن حصين او بشير بن سعد ، و رئيس الخزرج سعد بن عبادة ، و ابوه من الكرماء المشاهير ، يقصده الضيوف و ارباب الحوائج ،

[122]

و هذا الرجل سعد بن عبادة من الذين حضروا يوم الغدير ، و سمعوا خطبة النبي يومذاك ، و كان من الذين بايعوا عليا و سلّموا عليه بإمرة المؤمنين ، و لكن سوء الحظ و العاقبة أحضره في السقيفة .

لا يعرّفنا التاريخ إبتداء إجتماع الناس في السقيفة ، بيد ان المستفاد من مطاوي التاريخ أن الجماهير جعلت تزداد ساعة بعد ساعة ، و علي عليه السلام مشغول بتجهيز رسول الله صلى الله عليه و آله ، و الناس يبكون في المسجد لتلك المصيبة العظمى و الفاجعة الكبرى التي لم تكن مصيبة أعظم منها ،

فاذا بعمر بن الخطاب اقبل و دخل المسجد ، فصاح بالناس الباكين :

ويلكم : ان محمدا لم يمت ، بل ذهب الى ميقات ربه ، كما ذهب موسى بن عمران من قبل ، و الله ليرجعن و ليقطعن ايدي و ارجل من يزعم انه مات . 1 يقول المؤلف : انا لا ادري ما الذي كان يقصد عمر من هذا الافتعال ؟ و ممن سمع هذا الخبر ؟ و كيف فهم ؟ مع ان النبي صلى الله عليه و آله نعى نفسه كرارا و مرارا ، في غدير خم و في المسجد و على المنبر و في كل موطن ؟ و عرف و من اين عرف ؟ و هو الذي رأى رسول الله قبل ساعة يعالج سكرات الموت ،

و قد اشتد به المرض ، و هو الذي قال : ان الرجل ليهجر . 2 و لم يكتف بارتفاع الصياح و العويل و البكاء و الصراخ من بيت رسول الله ، و على اي حال ، فان دلائل موت رسول الله كانت كثيرة ، و لم يكن هناك شاهد و لا دليل و لا برهان عقلي او نقلي على ما فهمه عمر ، فما الذي دعاه الى هذا الكلام ؟

فهل اراد تخدير الاعصاب حتى يؤدي مهمته المدبرة ؟ او اراد ايقاع الخلاف الشك بين المسلمين كيلا تنفذ وصايا رسول الله في خليفته علي بن ابي طالب ؟ او جال بخاطره شيء لم يفطن اليه احد من العالمين ؟ انا ما ادري . غير انه كان يمر على

----

(1) ابن ابي الحديد .

----

(2) صحيح البخاري باب مرض النبي (ص)

الناس ، و يهتف بهذا الهتاف ، و اذا سمع احدا يقول . (مات محمد) يخبطه و يتوعده ، حتى جاء ابو بكر فقال : ايها الناس . من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، و من كان يعبد رب محمد فانه حي لم يمت ، ثم تلى قوله تعالى . أ فأن مات او قتل انقلبتم على اعقابكم .

لا يقلّ كلام ابي بكر عن كلام عمر غرابة ، أ ما كان ابو بكر يعرف ان ينعي رسول الله صلى الله عليه و آله ب انا لله و انا اليه راجعون أن يعزي المسلمين بمصيبة نبيهم ، ؟ ا ما وجد كلاما احسن من هذا الكلام ان يقول . (من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات) فهل المسلمون يعبدون غير الله ، و هم الذين يتلون قوله تعالى . اياك نعبد و إياك نستعين ، في كل يوم مرات ؟

نعم هذا من سوء التعبير و سوء اللسان و البيان و سوء كل شيء قال عمر . لما سمعته يتلوها هويت الى الارض و علمت ان رسول الله قد مات .

سبحان الله ، كيف نسي عمر هذه الآية كأنه لم يسمعها ، و هو الذي قال قبل ساعة حسبنا كتاب الله 1 بلغ هذا الخبر اجتماع الانصار في السقيفة الى عمر ، فأخبر به ابا بكر ،

و مضيا مسرعين الى السقيفة و معهما ابو عبيدة بن الجراح .

فهيا بنا يا صاحبي لنذهب الى السقيفة لننظر من هناك ، و لنعلم الخبر .

في السقيفة خلق كثير من الانصار ، و فيهم سعد بن عبادة ، و هو مريض ،

----

(1) و ذلك لما دخل عليه داره و كان في الدار رجال و قال الرسول (ص) ايتوني بدواة و كتف لاكتب لكم كتابا لن تضلوا بعدي ابدا راجع التفصيل في صحيح البخاري باب مرض رسول الله

[124]

و قد رشح نفسه للامارة و الرئاسة ، و لكن الأمر لا يتم له بهذه السرعة ، لأن الانصار قبيلتان كما سمعت ، و سعد بن عبادة رئيس الخزرج و سيدهم فلا تخضع له الأوس لما بين القبيلتين من تنافس و تزاحم ، و لهذا وقع النزاع بين الانصار حول الخليفة الذي يريدون نحته و نصبه دخل هؤلاء الثلاثة ابو بكر و عمر و ابو عبيدة في وسط الناس كأنهم منهم .

إستمع يا صاحبي : فهنا نقطة دقيقة ، يجب أن تلتفت إليها ، و تتوجه بجميع فكرك إصغ الى كلمات هؤلاء الثلاثة الذين دخلوا السقيفة الآن ، و دخلوا بين الناس : تكلم ابو بكر و قال في آخر كلامه : إنما أدعوكم الى ابي عبيدة بن الجراح أو عمر ، و كلاهما قد رضيت لهذا الأمر ، و كلاهما اراه له أهلا .

عمر و ابو عبيدة : ما ينبغي لنا أن نتقدمك يا أبا بكر ، أنت أقدمنا إسلاما و انت صاحب الغار و ثاني اثنين ، فانت أحق بهذا الأمر و أولانا به .

الأنصار : نحذر ان يغلب على هذا الامر من ليس منا و منكم ، فنجعل منا أميرا و منكم اميرا ، و نرضى به على انه إن هلك اخترنا آخر من الانصار ابو بكر بعد ان يمدح المهاجرين : انتم معشر الانصار : ممن لا ينكر فضلهم ، و لا نعمتهم العظيمة في الاسلام ، رضيكم الله انصارا لدينه و لرسوله ،

و جعل إليكم مهاجرته ، و فيكم محل ازواجه ، فليس احد من الناس بعد المهاجرين الأولين بمنزلتكم ، فهم الامراء و انتم الوزراء .

الحباب بن المنذر الانصاري : يا معشر الانصار : أملكوا على ايديكم ،

فانما الناس في فيئكم و ظلالكم ، و لن يجترىء على خلافكم ، و لن تصدر الناس إلا عن رأيكم و أثنى على الانصار ثم قال : فان أبي هؤلاء تأميركم عليهم فلسنا

[125]

نرضى بتأميرهم علينا . و لا نقنع بدون أن يكون منا أمير و منهم أمير .

عمر بن الخطاب : هيهات لا يجتمع سيفان في غمد واحد ، إنه لا ترضى العرب أن تأمركم و نبيها من غيركم ، و لكن العرب لا تمتنع ان تولي امرها من كانت النبوّة فيهم ، و اولو الامر منهم ، و لنا بذلك على من خالفنا الحجة الظاهرة و السلطان البيّن ، فما ينازعنا سلطان محمد و نحن اولياؤه و عشيرته إلا مدل بباطل او متجانف باثم أو متورط في الهلكة محب للفتنة .

الحباب المنذر : يا معشر الانصار : أمسكوا على ايديكم ، لا تسمعوا مقال هذا الجاهل فيذهبوا بنصيبكم من هذا الامر ، و إن ابوا ان يكون امير و امير فاجلوهم عن بلادكم ، و تولوا هذا الامر عليهم ، فأنتم و الله احق به منهم ، فقد دان بأسيافكم قبل هذا الوقت من لم يكن يدين بغيرها ، و انا جذيلها المحكك 1 و عذيقها المرحب 2 و الله لئن رد احد قولي لأحطمن انفه بالسيف عمر بن الخطاب : فلما كان حباب هو الذي يجيبني لم يكن لي معه جواب في كلام ، فانه جرت بيني و بينه منازعة في حياة رسول الله ، فنهاني رسول الله عن مهاترته ، فحلفت ان لا اكلمه ابدا . ثم التفت الى أبي عبيدة و قال : تكلم .

فقال ابو عبيدة و ذكر فضائل الانصار و تكلم بكلام كثير .

قد ذكرنا أن سعد بن عبادة سيد الخزرج كان مرشحا للامارة او الخلافة ،

و ذكرنا المنافسة بين الأوس و الخزرج ، و لهذا قام بشير بن سعد ، و حسد على سعد بن عبادة و أراد إفساد الامر على رقيبه سعد لئلا تصل الرئاسة إليه ، فتكلم

----

(1) العود الذي ينصب للابل الجربي تحتك فيه . و المعنى : انا الذي يستشفى برأيه كما يستشفى الابل الجربى بالاحتكاك بهذا العود .

----

(2) اي النخلة بحملها .

[126]

بكلام ، و وافق على تأمير قريش ، و جعل بحث الأنصار على الرضا بما يفعله المهاجرون ليريح الامارة عن سعد بن عبادة ابو بكر : هذا عمر و ابو عبيدة شيخا قريش ، فبايعوا أيهما شئتم .

عمر و ابو عبيدة : ما نتولى هذا الأمر عليك امدد يدك نبايعك .

بشير بن سعد سيد الأوس : و انا ثالثكما .

فلما سمعت الأوس مقاله سيدهم بشير بن سعد اكتبوا على ابي بكر بالبيعة ،

و تكاثروا على ذلك ، و تزاحموا ، فجعلوا يطأون سعدا من شدّة الازدحام و هو مريض على فراشه .

فصاح سعد بن عبادة : قتلتموني .

عمر بن الخطاب : اقتلوا سعدا قتله الله .

قيس بن سعد بن عبادة و قد أخذ بلحية عمر و الله يا ابن صهاك الجبان في الحروب الفرار ، الليث في الملأ و الأمن لو حركت فيه شعرة ما رجعت وجهك واضحة .

ابو بكر : مهلا يا عمر ، فان الرفق أبلغ و أفضل .

سعد بن عبادة : يابن صهاك و كانت جدة عمر أما و الله لو أن لى قوة على النهوض لسمعتا مني في سككها زئيرا ، و زعجك و اصحابك منها ، و لألحقتكما بقوم كنتما فيهم أذنابا أذلّاء تابعين غير متبوعين ، لقد اجترئتما . ثم قال للخزرج : احملوني من مكان الفتنة فحملوه إلى داره .

بايع الأنصار الحاضرون في السقفية و بايع غيرهم ، و قم فرغ علي عليه السلام من تغسيل رسول الله و تحنيطه و تكفينه ، و صلّى هو بنفسه على جنازة رسول الله صلى عليه و آله ، و دخل المسلمون عشرة عشرة في حجرة رسول الله ، و النبي

[127]

مسجّى فيصلون عليه بغير إمام ، لأن امير المؤمنين قال لهم : إن رسول الله إمامنا حيا و ميتا ، و كانت كيفية الصلاة عليه هي تلاوة الآية الكريمة : إن الله و ملائكته يصلون على النبي يا ايها الذين آمنوا صلوا عليه و سلّموا تسليماً . ثم يدعون للنبي فيخرجون و يدخل قوم آخرون ، و دفن النبي في الموضع الذي توفي فيه و جرى ما جرى هناك .

فعند ذلك جاء علي عليه السلام و جلس في مسجد رسول الله صلى الله عليه و آله ،

فاجتمع إليه بنو هاشم و منهم الزبير ، و اجتمعت بنو امية إلى عثمان بن عفان ،

و بنو زهرة إلى عبد الرحمن بن عوف ، اذ أقبل ابو بكر و عمر و ابو عبيدة ،

فقالوا : ما لنا نراكم حلقا شتى ؟ قوموا فبايعوا أبا بكر فقد بايعته الانصار و الناس .

فقام عثمان و عبد الرحمن بن عوف و من معهما فبايعوا ، و انصرف علي عليه السلام إلى منزله و معه بنو هاشم و الزبير ، فذهب إليهم عمر في جماعة ممن بايع أبا بكر فقالوا لهم : بايعوا أبا بكر فقد بايعه الناس .

فوثب الزبير إلى سيفه فقال عمر : عليكم بالكلب العقور فاكفونا شره فبادر سلمة بن سلامة فانتزع السيف من يد الزبير ، فأخذ عمر السيف فضرب به الأرض فكسره ، و أحدقوا بمن كان هناك من بني هاشم ، و مضوا بجماعتهم إلى ابي بكر فلما حضروا قالوا لهم : بايعوا أبا بكر فقد بايعه الناس ، و أيم الله لئن أبيتم لنحاكمنّكم بالسيف فلما رأى ذلك بنو هاشم أقبل رجل رجل فجعل يبايع حتى لم يبق ممن حضر إلا علي بن أبي طالب عليه السلام ، فقالوا له : بايع أبا بكر فقال عليه السلام .

أنا أحق بهذا الأمر منه و أنتم أولى بالبيعة لي ، أخذتم هذا الأمر من الأنصار

[128]

و احتججتم عليهم بالقرابة من الرسول الله ، و تأخذونه منا أهل البيت غصبا ؟

أ لستم زعمتم للانصار أنكم اولى بهذا الأمر منهم لمكانكم من رسول الله صلى الله عليه و آله ، فأعطوكم المقادة و سلموا لكم الامارة ؟ و أنا احتج عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار ، انا اولى برسول الله صلى الله عليه و آله حيا و ميتا ، و انا وصيه و وزيره ، و مستودع علمه ، و انا الصديق الاكبر ، و أول من آمن به و صدقه ،

و أحسنكم بلاء في جهاد المشركين ، و أعرفكم بالكتاب و السنة ، و أذربكم لسانا ، و اثبتكم جنانا ، فعلا م تنازعونا هذا الأمر ؟ أنصفونا إن كنتم تخافون الله من انفسكم ، و اعرفوا لنا مثل ما عرفته لكم الأنصار ، و الا فبوؤا بالظلم و العدوان و أنتم تعلمون .

في الأحتجاج و خصال الصدوق و الطبرى هذا الخبر ما هذا الفظة : خبر الأثني عشر رجلا الذين انكروا على ابي بكر جلوسه في مجلس رسول الله :

ان الذين انكر على ابي بكر فعله و جلوسه مجلس رسول الله صلى الله عليه و آله اثنا عشر رجلا من المهاجرين و الانصار :

1 خالد بن سعيد بن العاص و كان من بني امية 2 سلمان الفارسي 3 ابو ذر الغفاري 4 المقداد بن الاسود الكندي 5 عمار بن ياسر 6 بريدة الأسلمي 7 ابو الهيثم بن التيّهان 8 سهل بن حنيف

[129]

9 عثمان بن حنيف 10 خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين 11 ابي بن كعب 12 ابو أيوب الانصاري .

فلما صعد ابو بكر المنبر تشاوروا بينهم ، فقال بعضهم لبعض : و الله لنأتينه ،

و لننزلنه عن منبر رسول الله صلى الله عليه و آله . و قال اخرون : و الله لئن فعلتم ذلك اذا لأعنتم على انفسكم ، فقد قال الله تعالى : و لا تلقوا بأيديكم الى التهلكة . فانطلقوا بنا الى أمير المؤمنين لنستشيره و نستطلعه على الامر ،

و نستطلع رأيه .

فانطلق القوم بأجمعهم الى امير المؤمنين و قالوا : يا امير المؤمنين : تركت حقا انت احق به و اولى منه ، لانا سمعنا رسول الله صلى الله عليه و آله يقول : (علي مع الحق و الحق مع علي يميل مع الحق كيف مال .) و لقد هممنا ان نصير الى ابي بكر فننزله عن منبر رسول الله صلى الله عليه و آله ، فجئناك لنستشيرك ، و نستطلع رأيك فيما تأمرنا .

فقال عليه السلام : و ايم الله : لو فعلتم ذلك لما كنتم لهم الا حربا ، و لكنكم كالملح في الزاد و كالكحل في العين ، و ايم الله لو فعلتم ذلك لاتيتموني شاهرين أسيافكم ، مستعدّين للحرب و القتال ، و اذن لآتوني ، فقالوا لي :

بايع و الا قتلناك ، فلا بد من دفع القوم عن نفسي ، و ذلك ان رسول الله صلى الله عليه و آله اوعز الى قبل وفاته و قال لي : يا ابا الحسن : ان الامة ستغدر بك بعدي ،

و تنقض فيك عهدي ، و انك مني بمنزلة هرون من موسى .

فقلت : يا رسول الله : فما تعهد اليّ اذا كان كذلك ؟ قال صلى الله عليه و آله : ان

[130]

وجدت اعوانا فبادر اليهم و جاهدهم ، و ان لم تجد اعوانا كف يدك و احقن دمك حتى تلحق بي مظلوما . . .

فانطلقوا بأجمعكم الى هذا الرجل فعرّفوه ما سمعتم من قول نبيكم ،

حتى يكون ذلك اؤكد للحجة ، و ابلغ للعذر ، و ابعد لهم من رسول الله ،

اذا ورد عليه .

فسار القوم حتى أحدقوا بمنبر رسول الله صلى الله عليه و آله . و كان يوم الجمعة ،

فلما صعد ابو بكر قال المهاجرون للأنصار : تقدّموا فتكلموا . فقام خالد بن سعيد بن العاص و قال : اتق الله يا ابا بكر فقد علمت ان رسول الله صلى الله عليه و آله قال و نحن محتوشوه يوم بني قريظة ، حين فتح الله له ، و قد قتل عليّ يومئذ عدة من صناديد رجالهم ، و اولي البأس و النجدة منهم : يا معاشر المهاجرين و الانصار : إني اوصيكم بوصية فاحفظوها ، و مودّعكم امرا فاحفظوه : ا لا ان علي ابن ابي طالب اميركم بعدي و خليفتي فيكم ، بذلك اوصاني ربي ، ا لا و إنكم ان لم تحفظوا فيه وصيتي و توازروه و تنضروه اختلفتم في احكامكم ، و اضطرب اليكم امر دينكم ، و وليكم شراركم ، ا لا ان اهل بيتي هم الوارثون لامري ، و العالمون بأمر أمتي من بعدي ، اللهم : من اطاعهم من أمتي و حفظ فيهم وصيتي فاحشرهم في زمرتي ، و اجعل لهم نصيبا من مرافقتي ، يدركون به نور الآخرة اللهم : و من أساء خلافتي في أهل بيتي فاحرمه الجنه التي عرضها كعرض السماء و الارض .

عمر بن الخطاب : اسكت يا خالد ، فلست من اهل المشورة ، و لا من يقتدي برأيه .

خالد بن سعيد : اسكت انت يابن الخطاب ، فانك تنطق على لسان غيرك ،

و أيم الله لقد علمت قريش انك من ألأمها حسبا و ادناها منصبا ، و أخسّها قدرا ،

[131]

و اخملها ذكرا ، و أقلهم عناء عن الله و رسوله ، و انك لجبان في الحروب ، بخيل في المال ، لئيم العنصر ، مالك في قريش من فخر ، و لا في الحروب على ذكر ،

و انك في هذا الأمر بمنزلة الشيطان إذ قال للانسان : اكفر . فلما كفر قال :

إني اخاف الله رب العالمين ، فكان عاقبتهما انهما في النار خالدين فيها و ذلك جزاء الظالمين . فسكت عمر و جلس خالد .

سلمان الفارسي : كرديد و نكرديد ، و ندانيد كه چه كرديد .

يا ابا بكر : الى من تستند أمرك اذا نزل بك ما لا تعرفه ؟ و الى من تفزع اذا سئلت عما لا تعلمه ؟ فما عذرك في تقدم من هو اعلم منك و اقرب من رسول الله ،

و اعلم بتأويل كتاب الله و سنة نبيّه ، و من قدمه النبي في حياته ، و اوصاكم به عند وفاته ؟ فنبذتم قوله : و تناسيتم وصيته ، و اخلفتم الوعد ، و نقضتم العهد ،

و حللتم العقد الذي كان عقده عليكم على النفوذ تحت راية اسامة بن زيد ، حذرا من مثل ما آتيتموه ، و تنبيها للامة على عظيم ما اجترتموه : من مخالفة أمره ، فعن قليل يصفو لك الأمر ، و قد اثقلك الوزر ، و نقلت الي قبرك

، و حملت معك مما كسبت يداك ، فلو راجعت الحق من قرب ، و تلافيت نفسك ، و تبث الى الله من عظيم ما اجترمت كان ذلك اقرب الى نجاتك يوم تفرد في حفرتك ، و يسلمك ذو نصرتك ، فقد سمعت كما سمعنا ، و رأيت كما رأينا ، فلم يردعك عما أنت متشبّث به من هذا الامر الذي لا عذر لك في تقلده ، و لا حظ للدين و لا للمسلمين في قيامك به ، فالله الله في نفسك ، فقد اعذر من انذر ، و لا تكن أنت كمن ادبر و استكبر .

ابو ذر الغفاري : يا معشر قريش : اصبتم قباحة ، و تركتم قرابة ، و الله ليرتدن جماعة من العرب ، و ليشكنّ في هذا الدين ، و لو جعلتم هذا الامر في

[132]

اهل بيت نبيكم ما اختلف عليكم سيفان ، و الله لقد صارت لمن غلب ، و لتطمحنّ اليها اعين من ليس باهلها ، و ليسفكن فيها دماء كثيرة .

لقد علمتم و علم خياركم ان رسول الله صلى الله عليه و آله قال : (الامر بعدي لعلي ثم لابنيّ الحسن و الحسين ، ثم للطاهرين من ذريتي) فاطرحتم قول نبيّكم ،

و تناسيتم ما عهد به اليكم ، فاطعتم الدنيا الفانية ، و نسيتم الآخرة الباقية التي لا يهرم شبابها ، و لا يزول نعيمها ، و لا يحزن أهلها ، و لا يموت سكانها ، بالحقير التافه الفاني الزائل ، و كذلك الامم من قبلكم كفرت بعد أنبيائها ، و نكصت بالى أعقابها ، و غيرت و بدلت و اختلفت ، فساويتموهم حذو النعل بالنعل ، و القذة لقذة ، و عما قليل تذوقون وبال أمركم ، و تجزون بما قدمت ايديكم ، و ما الله بظلام للعبيد .

المقداد بن الأسود : يا ابا بكر : ارجع عن ظلمك ، و تب الى ربك ،

و الزم بيتك ، و ابك على خطيئتك ، و سلم الامر الى صاحبه الذي هو اولى به منك ، فقد علمت ما عقده رسول الله صلى الله عليه و آله في عنقك من بيعته ،

و الزمك من النفوذ تحت راية أسامة بن زيد و هو مولاه ، و نبّه على بطلان وجوب هذا الامر لك ، و لمن عضدك عليه بضمه لكما الى علم النفاق و معدن الشتات و الشقاق عمرو بن العاص الذي أنزل الله فيه على نبيه : إن شانئك هو الابتر . فلا اختلاف بين اهل العلم انها نزلت في عمرو ، و هو كان اميرا عليكما و على سائر المنافقين ، في الوقت الذي انفذه رسول الله صلى الله عليه و آله في غزاة ذات السلاسل ، و إن عمرو قلدكما حرس عسكره ، فأين الحرس الى الخلافة ؟

إتق الله ، و بادر الى الاستقامة ، فان ذلك اسلم لك في حياتك و بعد وفاتك و لا تركن الى الدنيا ، و لا تغرنك قريش و غيرها ، فعن قليل تضمحل عنك

[133]

دنياك ثم تصير الى ربك فيجزيك بعملك ، و قد علمت و تيقنت ان علي بن ابى طالب صاحب الامر بعد رسول الله ، فسلمه اليه بما جعله الله له ، فانه اتم لسترك ، و اخف لوزرك ، فقد و الله نصحت ان قبلت ، و الى الله ترجع الامور .

بريدة الأسلمي : إنا لله و انا اليه راجعون ، ما ذا لقي الحق من الباطل ؟

يا ابا بكر : ا نسيت أم تناسيت ؟ و خدعت ام خدعتك نفسك و سؤلت تلك الاباطيل ؟ ا و لم تذكر ما أمرنا به رسول الله صلى الله عليه و آله من تسمية علي بامرة المؤمنين ؟ و النبي بين اظهرنا ، و قوله صلى الله عليه و آله في عدة اوقات (هذا علي امير المؤمنين ، و قاتل القاسطين) اتق الله ، و تدارك نفسك قبل ان لا تدركها ، و

انقذها مما يهلكها ، و اردد الامر الى من هو احق به منك ، و لا تتماير في اعتصابه ، و راجع و انت تستطيع ان تراجع ، فقد محضتك النصح ،

و دللتك على طريق النجاة فلا تكونن ظهيرا للمجرمين .

عمار بن ياسر : يا معاشر قريش ، و يا معاشر المسلمين : ان كنتم علمتم اعلموا ، ان اهل بيت نبيكم اولي به و احق بإرثه ، و اقوم بامور الدين ،

و آمن على المؤمنين ، و احفظ لملته ، و انصح لامته .

فمروا صاحبكم فليرد الحق الى اهله قبل ان يضطرب حبكم ، و يضعف أمركم ، و يظهر شأنكم ، و تعظم الفتنة بكم ، و تختلفوا فيما بينكم ، و يطمع فيكم عدوكم ، فقد علمتم : ان بني هاشم اولى بهذا الامر منكم ، و علي من بينهم وليّكم بعهد الله و رسوله ، و فرق ظاهر قد عرفتموه في حال بعد حال ،

عند سد النبي ابوابكم التي كانت الى المسجد غير بابه ، و إيثاره اياه بكريمته فاطمة الزهراء دون سائر من خطبها اليه منكم ، و قوله صلى الله عليه و اله : انا مدينة الحكمة و علي بابها ، فمن اراد الحكمة فليأتها من بابها .

و إنكم جميعا مضطرون فيما اشكل عليكم من امور دينكم اليه ، و هو مستغن عن كل احد منكم ، الى مآله من سوابق التي ليست لافضلكم عند نفسه فما بالكم تحيدون عنه ؟ و تبترون عليا حقه ؟ و توثرون الحيوة الدنيا على الأخرة ؟ بئس للظالمين بدلا ، اعطوه ما جعله الله له و لا تولوا مدبرين . و لا ترتدّوا على ادباركم فتنقلبوا خاسرين .

ابي بن كعب : يا ابا بكر لا تجحد حقا جعله الله لغيرك ، و لا تكن اول من عصى رسول الله صلى الله عليه و آله في وصيه وصفيه . و صدف عن أمره .

اردد الحق الى اهله تسلم . و لا تتمار في غيك فتندم . و بادر الى الانابة يخف وزرك . و لا تخصصن بهذا الامر الذي لم يحله الله لك نفسك ، فتلقى وبال عملك ، فعن قليل تفارق ما انت فيه ، و تصير الى ربك فيسئلك مما جنيت و ما ربك بظلام للعبيد .

خزيمة بن ثابت : ايها الناس : ا لستم تعلمون : ان رسول الله صلى الله عليه و آله قبل شهادتي وحدي . و لم يزد معي غيري ؟ قالوا . بلى . قال . فاشهد اني سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله يقول : (اهل بيتي يفرقون بين الحق و الباطل . و هم الائمة الذين يقتدى بهم) و قد قلت ما علمت . و ما على الرسول الا البلاغ المبين .

ابو الهيثم بن التّيهان . و انا اشهد على نبينا صلى الله عليه و آله . انه اقام عليا في يوم غدير خم . فقالت الانصار . ما اقامه الا للخلافة . و قال بعضهم . ما اقامه الا ليعلم الناس انه مولى من كان رسول الله مولاه . و كثر الخوض في ذلك فبعثنا رجالا منا الى رسول الله فسألوه عن ذلك فقال لهم . قولوا . علي ولي المؤمنين بعدي ، و انصح الناس لامتي . و قد شهدت بما حضرني . فمن شاء

فليؤمن ، و من شاء فليكفر إن يوم الفصل كان ميقاتا .

سهل بن حنيف حمد الله و اثنى عليه ، و صلى على محمد صلى الله عليه و آله :

يا معاشر قريش : إشهدوا علي أني اشهد على رسول الله صلى الله عليه و آله و قد رأيته في هذا المكان الروضة و قد أخذ بيد علي بن ابي طالب ، و هو يقول :

أيها الناس : هذا علي إمامكم بعدي ، و وصيي في حياتي و بعد مماتي ، و قاضي ديني و منجز وعدي ، و أول من يصافحني على حوضي ، فطوبى لمن إتبعه و نصره ،

و الويل لمن تخلف عنه و خذله .

عثمان بن حنيف : سمعنا رسول الله صلى الله عليه و آله يقول : أهل بيتي نجوم الارض ، فلا تتقدّموهم و قدموهم ، فهم الولاة بعدي . فقام إليه رجل و قال :

يا رسول الله و أي اهل بيتك ؟ فقال : علي و الطاهرون من ولده و قد بيّن ،

فلا تكن يا ابا بكر أول كافر به ، فلا تخونوا الله و الرسول ، و تخونوا أماناتكم و انتم تعلمون .

ابو ايوب الانصاري : اتقوا الله عباد الله : في أهل بيت نبيكم ، و ارددوا اليهم حقهم الذي جعله الله لهم ، فقد سمعتم مثل سمع اخواننا في مقام بعد مقام لنبينا صلى الله عليه و آله ، و مجلس بعد مجلس يقول . أهل بيتي أئمتكم بعدى و يؤمي الى علي و يقول : هذا أمير البررة ، و قاتل الكفرة ، مخذول من خذله ،

منصور من نصره .) فتوبوا الى الله من ظلمكم ، إن الله تواب رحيم ، و لا تتولوا عنه مدبرين ، و لا تتولوا عنه معرضين .

ابو بكر افحم و لم يحر جوابا : وليتكم و لست بخيركم ، اقيلوني .

عمر يخاطب أبا بكر انزل يا لكع إن كنت لا تقوم بحجج

قريش لم اقمت نفسك هذا المقام ؟ و الله لقد هممت أن اخلعك ، و اجعلها في سالم مولى حذيفة نزل ابو بكر و أخذ بيد عمر ، و ذهب الى منزله ، و بقوا الى ثلاثة ايام لا يخرجون الى المسجد ، فلما كان اليوم الرابع أقبل خالد بن الوليد و سالم مولى حذيفة ،

و معاذ بن جبل ، و مع كل واحد منهم جماعة ، و دخلوا على ابي بكر ، فقال خالد ما جلوسكم ؟ فقد طمع فيها و الله بنو هاشم .

فخرج هؤلاء شاهرين سيوفهم يقدمهم عمر بن الخطاب حتى وقفوا بمسجد رسول الله ، فقال : و الله يا أصحاب علي : لئن ذهب الرجل منكم يتكلم بالذي تكلم به أمس لنأخذن الذي فيه عيناه .

خالد بن سعيد : يابن صهاك الحبشية : أ فبأسيافكم تهدّدونا ؟ أم بجمعكم تفزعونا ؟ و الله ان أسيافنا أحد من اسيافكم ، و انا لأكثر منكم و ان كنا قليلين ، لان حجة الله فينا ، و الله لو لا اني اعلم ان طاعة الله و طاعة رسوله و طاعة امامي اولى بي لشهرات سيفي و جاهدتكم في الله ، الى ان أبلي عذري .

أمير المؤمنين : اجلس يا خالد ، فقد عرف لك مقامك ، و شكر لك سعيك .

فجلس و قام سلمان الفارسي فقال الله اكبر الله اكبر ، سمعت رسول الله صلّى الله عليه و آله و الا صمتا يقول : بينا اخي و ابن عمي جالس في مسجدي و معه نفر من اصحابه اذ تكبسه جماعة من كلاب اهل النار ، يريدون قتله ، و قتل من معه .

و لست اشك الا انهم هم . فهمّ به عمر بن الخطاب ، فوثب اليه امير المؤمنين و اخذ بمجامع ثوبه ثم جلد به الارض و قال : يابن صهاك الحبشية : لو لا كتاب من الله سبق ، و عهد من الله تقدم لاريتك ايّنا اضعف ناصرا ، و اقل عددا .

و قام الاصحاب و انصرفوا عزيزي ايها القاري هذه شهادات الشهود من عظماء اصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله في حق علي عليه السلام ، و قد سمعت كلامهم ، فما تصنع الآن ؟ هل تبقى تحت اغلال العصبيّة العمياء ؟ فتكون في حزب اصحاب السقيفة ، مخالفا لقول الله تعالى في مواضع عديدة من القرآن الكريم حيث يشير الى فضائل علي و مناقبه ،

و مخالفا لكلام النبي في شأن علي في مواطن كثيرة ام تنتمي الى حزب الله هم الغالبون ، فتقول بامامة من امر الله عباده باتباعه و اختاره الله لخلافة رسول الله صلى الله عليه و آله ، و آتاه ما لم يوت احدا من العالمين ، الخليفة الذي نصبه رسول الله بأمر الله تعالى أماما من امر الله تعالى اماما و اميرا ، و قد ذكرنا بعض النصوص الدالة على امامته في الجزء الاول من الكتاب ؟ ؟

انا هديناه السبيل ، اما شاكرا و اما كفورا ، فمنهم شقي و سعيد .

لا اكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغي . ا فمن يهدي الى الحق احق أن يتبع ام من لا يهديّ الا ان يُهدى . يا قومنا اجيبوا داعي الله . لقد حق القول على اكثرهم فهم لا يؤمنون . و ما تأتيهم من ايات ربهم الا كانوا عنها معرضين .

ا لم اعهد اليكم يا بني آدم ان لا تعبدوا الشيطان انّه لكم عدو مبين .

هذه جملات موجزة عن قضايا مفصلة حدثت في اول انقلاب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه و آله و اول ثورة قام بها المتأمرون من الناس بعد رحلة النبي الاعظم ، فهكذا تمت الخلافة لهم بالقهر و الغلبة لا بالأهلية و الاستحقاق ، و لا بالنص و التعيين ، و لا بالاجماع و الاتفاق ، فقد عرضنا عليك متن التاريخ و جعلنا الحكم بيدك ، و احلنا القضاء الى ضميرك ، ايها القارىء .

فلو كنت في ذلك اليوم و انت ترى ذلك المنظر الرهيب المهيب المزعج المدهش

[138]

ما الذي كنت تصنع ؟

فرسول الله صلى الله عليه و آله مطروح على المغتسل يغسّله امير المؤمنين بتصريح و تعيين و وصية من النبي

.

المسلمون في المسجد قد رفعوا أصواتهم بالبكاء و النحيب و الصراخ و العويل فلا ترى الا باكيا او باكية .

جماعة من الناس في السقيفة ، و هم في صدد انتخاب رئيس لهم باسم الامارة لا الخلافة ، فكأنهم كانوا يعتبرون النبوة و الرسالة ملكا و سلطنة ، و لهذا كان الكلام في السقيفة حول الامير و الامارة لا الخلافة و الامامة ، و لكن المتأمرين قلبوا المعنى فورا فصارت الامارة خلافة و إمامة و ما يصنع الامام أمير المؤمنين عليه السلام في تلك الساعة ؟ أ يترك جنازة رسول الله بلا غسل ؟ أو بلا كفن ؟ أو بلا صلاة ؟ أو بلا دفن ؟ فيحضر في السقيفة شاهرا سيفه ؟ إذن فما كان يقول له الناس لو كان يفعل ذلك ؟ في تلك المدة التي لم تتجاوز ساعة و نصف انتهى تجهيز رسول الله صلى الله عليه و آله و انتهت المؤامرة في نفس المدة في السقيفة ، و لما فرغ الامام عليه السلام من إنجاز وصايا النبي فيما يتعلق بتجهيزة و حضر في المسجد و احتج بذلك الاحتجاج ، ما أجابه الخصم جوابا منطقيّا معقولا ، بل ردوا عليه قوله تارة : انك قد وترت العرب و قتلت صناديدهم في غزوات رسول الله صلى الله عليه و آله فلا ترضى العرب بك فليت شعري كيف رضيت العرب برسول الله و آمنت به و هو السبب الوحيد و القائد الاعلى في جبهات القتال ؟ و هو الآمر و الناهي ، و انّما كان المجاهدون يحاربون و يهجمون بامر رسول الله .

ثم أما كان الخلفاء الثلاثة قد وتروا العرب ؟ ا لم يحضروا ساحة القتال مع رسول الله ؟ ام حضروا و لم يجاهدوا ؟ و جاهدوا و لم يقتلوا احدا ؟ او قتلوا و لم

[139]

يقتلوا من العرب ؟ او قتلوا من العرب و لكن اعمالهم مغفرة عند العرب ؟

و هل و هل ؟

هذه أسئله تبقى بلا جواب كالأسئلة التي توجهت الى نفس الخلفاء في عهدهم .

ثم ردوا عليه قوله تارة أخرى : بانك شاب حدث السن ، و في الصحابة المشايخ أصحاب اللحى البيض أمثال ابي بكر و عمر و ابي عبيدة ، لا كأمثال سلمان و عمار و ابي ذر و سائر شيوخ الصحابة مع العلم ان عليا عليه السلام كان له من العمر يومذاك ثلاث و ثلاثون سنة ،

و مع ذلك قالوا فيه : شاب حدث السن . فكيف خفي هذا العيب على الله تعالى لما اوحى الى نبيه بقوله عز و جل : يا ايها الرسول بلّغ ما انزل اليك من ربك و ان لم تفعل فما بلغت رسالته . و قوله تعالى : انما وليكم الله و رسوله و الذين آمنوا الذين يقيمون الصلوة و يؤتون الزكوة و هم راكعون ،

و كيف خفي هذا العيب على جبرئيل يوم أحد لمّا هتف بين السماء و الأرض :

لا فتى إلاّ علي لا سيف إلاّ ذو الفقار ؟ ؟

و كيف لم يظهر هذا النقص لرسول الله صلى الله عليه و آله في مواطنه و مواقفه حين ما قال لعلي عليه السلام : انت مني بمنزلة هرون بن موسى الا انه لا نبي بعدي ، و انا مدينة العلم و على بابها ، و من كنت مولاه فعلي مولاه ، و اني تارك فيكم الثقلين كتاب الله و عترتي اهل بيتي ، و انهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض . الى غير ذلك من شهاداته في حق ذلك الشباب الحدث السن و ليت شعري : ان الانبياء الذين بعثهم الله تعالى بالرسالة كم كان عمرهم يوم بعثتهم ؟ فالقرآن الكريم يحدثنا عن بعض الانبياء كموسى بن عمران عليه السلام انه بعث نبيا و هو ابن اربعين سنة ، و كذلك نبينا صلى الله عليه و آله بعث و عمره

[140]

اربعون سنة ، و كم الفرق بين الثلاث و الثلاثين و بين الاربعين ؟

نعم هذا هو الاجتهاد في مقابل حكم الله و رسوله ، و الارادة المعارضة لارادة الله و نبيّه .

و اما الخطبة « فنظرت فاذا ليس لي معين إلا اهل بيتي فضننت بهم عن الموت » يذكر عليه السلام غربته و وحدته ، و عدم ناصر له و معين الا اهل بيته الاقربين ،

فيقول : فضننت بهم عن الموت . اي بخلت بهم عن الموت ، اي حفظتهم لنفسي عن الموت ، لاني علمت أنّي لو نهضت مع قلة الناصر و هم اهل بيتي لهلكوا ، و لهذا احجمت لئلا يهلك اهل بيتي .

« و أغضيت على القذى و شربت على الشجى ، و صبرت على اخذ الكظم ، و على أمرّ من طعم العلقم » اي اطبقت جفون عيني على القذى ، و هو ما يقع في العين من تراب او تبن او وسخ او غير ذلك ، و شربت علي الشجى ، و هو ما ينبت في الحلق من عظم و نحوه ، فيغص به ، و هي كناية عن النقمة و مرارة الصبر و التألم من الغير ، و صبرت على اخذ الكظم ، و هو حبس الغيظ مع القدرة على إمضائه ، و العلقم هو شجر مرّ ، و الصبر على امر من طعم العلقم مبالغة في التألم الشديد و الصبر على خشونة الحياة من المكاره .

و سنلتقي بك ايها القارىء مرة أخرى لبيان إتمام القضية ، و ما جرى على سيدة النسآء فاطمة الزهراء سلام الله عليها في سبيل الدفاع عن زوجها ، حين هجم القوم لاتقاء القبض على أمير المؤمنين عليه السلام لأخذ البيعة منه

.

و هنا انتهت المقطوعة الثانية من الخطبة السادسة و العشرين .

المقطوعة الثالثة

المتن

و منها : و لم يبايع حتّى شرط أن يؤتيه على البيعة ثمنا ،

فلا ظفرت يد البائع ، و خزيت أمانة المبتاع ، فخذوا للحرب أهبّتها ، و أعدّوا لها عدّتها ، فقد شبّت لظاها ، و علا سناها ،

و استشعروا الصّبر ، فإنّه أدعى إلى النّصر .

اللغة

الاهبة : ما يعد للحرب من السلاح ، و شبت : ارتفع لهبها .

المعنى

هذه هي المقطوعة الثالثة من خطبة مفصلة ، ستأتي قريبا ، و قد سبق مقطوعتان منها و هذه المقطوعة تشير الي اشتراط عمرو بن العاص على معاوية ان يجعل اليه ولاية مصر اذا هو أعانه على محاربة الامام أمير المؤمنين عليه السلام في صفين ، و لنا في المستقبل مجال لشرح الموضوع ، و هو غزوة صفين و مقدماتها ، و ما يلحق بها ، و نكتفي

[142]

الآن بذكر ترجمة يسيرة من حياة هذا المجرم لتطلع على شخصيته و نفسيّته ، و مدى إيمانه و سوابقه و لواحقه حتى يزول العجب إن قرأنا و اطلعنا على خباثته و كفره ،

و إلحاده ، و اليك بعض ما وعدناك :

هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم ، ابوه هو الابتر بتصريح من القرآن الحكيم : ان شانئك هو الابتر . كما ذكره اكثر المفسرين كالرازي و غيره ، و ذلك :

أن العاص ابن وائل ابو عمرو كان يقول : إن محمدا أبتر ، لا إبن له يقوم مقامه بعده ، فاذا مات إنقطع ذكره ، و إسترحتم منه و كان قد مات ابن رسول الله عبد الله من خديجة أو ابراهيم من مارية ، كما ذكره الرازي في تفسيره عن ابن عباس .

و أما امه النابغة : فهي ليلى . و كانت أشهر بغيّ بمكة ، و أرخصهن اجرة ،

و لما وضعته ادّعاها خمسة كلهم أتوها ، غير أن ليلى ألحقته بالعاص ، و السبب في ذلك أنها كانت بغيا من طوائف مكة و معها بنات لها ، فوقع عليها العاص بن وائل في الجاهلية في عدة من قريش منهم : ابو لهب ، امية بن خلف ، هشام بن مغيرة ، ابو سفيان بن حرب ابو معاوية في طهر واحد ، فولدت عمرا ،

فاختصم القوم جميعا فيه ، كل يزعم أنه ابنه ، ثم انه أضرب عنه ثلاثة ، و بقي إثنان : العاص بن وائل و ابو سفيان ، فقال ابو سفيان : أنا و الله وضعته في حر امه ، و قال العاص : ليس هو كما تقول ، هو ابني فجعلا امه حكما فقالت : هو للعاص . فقيل لها بعد ذلك : ما حملك على ما صنعت ؟ و ابو سفيان أشرف من العاص . فقالت : ان العاص كان ينفق على بناتي ، و لو ألحقته بأبي سفيان لم ينفق عليّ العاص شيئا ، و خفت الضيعة .

و اليك حديثا آخر يدل على شرافة النابغة و عفافها و اشتهارها بذلك :

[143]

غانمة بنت غانم : أطول نساء قريش عمرا ، بلغها و هي مكة سبّ معاوية و عمرو بن العاص بنى هاشم ، فقالت : معشر قريش : و الله ما معاوية بأمير المؤمنين ، و لا هو كما يزعم ، هو و الله شانيء رسول الله ، اني آتية معاوية و قائلة له بما يعرق جبينه ، و يكثر منه عويله .

فكتب عامل معاوية اليه بذلك ، فلما بلغه و هو في المدينة أن غانمة قد قربت منه أمر بدار ضيافته فنظفت ، و ألقي فيها فرش ، فلما قربت من المدينة إستقبلها يزيد في حشمه و مماليكه ، فلما دخلت المدينة أتت دار أخيها عمرو بن غانم ، فقال لها يزيد إن ابا عبد الرحمن معاوية يأمرك أن تصيري إلى دار ضيافته و كانت لا تعرفه فقالت : من انت ؟ كلاك الله . قال : يزيد بن معاوية . و قالت : فلا رعاك يا ناقص لست بزائد . فتعمر لون يزيد ، فأتى اباه فأخبره ، فقال معاوية :

هي أسنّ قريش و أعظمهم . فقال يزيد : كم تعد لها يا امير المؤمنين ؟ كم عمرها ؟ قال : كانت تعدّ على عهد رسول الله اربعمائة عام ، و هي من بقية الكرام . فلما كان من الغد أتاها معاوية فسلّم عليها ، فقالت : على المؤمنين السلام و على الكافرين الهوان . ثم قالت من منكم ابن العاص فقال عمرو : ها أنا ذا فقالت و أنت تسبّ قريشا و بني هاشم ؟ . و انت اهل السب ، و فيك السب ، و إليك يعود السب .

يا عمرو : اني و الله لعارفه بعيوبك و عيوب امك ، و إني اذكر لك عيبا عيبا : ولدت من أمه سوداء مجنونة حمقاء ، تبول من قيام ، و تعلوها اللئام اذا لامسها الفحل كانت نطفتها انفذ من نطفته ، ركبها في يوم واحد اربعون رجلا .

و اما انت : فقد رأيتك غاويا غير راشد ، و مفسدا غير صالح ، و لقد رأيت فحل زوجتك على فراشك ، فما غرت و لا انكرت ،

[144]

و أما انت يا معاوية : فما كنت في خير ، و لا ربيّت في خير ، فما لك و لبني هاشم ؟ أ نساء أمية كنسائهم . . . الخ من كتاب المحاسن و الأضداد و هذا إبن عباس حبر الامة يذكر شيئا من نفسيات الرجل ، كما روي ابن ابي الحديد :

إن عمرو بن العاص قام بالموسم فأطرى معاوية و بني امية ، و تناول بني هاشم ، و ذكر مشاهده بصفين ، و يوم ابى موسى فقام إليه ابن عباس فقال يا عمرو انك بعت دينك من معاوية فاعطيته ما في يدك ، و مناك ما في يد غيرك ، فكان الذي اخذه فوق الذي اعطاك ، و كان الذي اخذت منه دون ما اعطيته ،

و كل راض بما أخذ و أعطى ، فلما صارت مصر في يدك تتبعك بالنقص عليك ،

و التعقب لأمرك ، ثم بالعزل لك ، حتى لو أن نفسك في يدك لأرسلتها .

و ذكرت يومك مع ابي موسى ، فلا أراك فخرت إلا بالغدر ، و لا منيت الا بالفجور و الغش ، و ذكرت مشاهدك بصفين ، فو الله ما ثقلت علينا وطأتك ،

و لا نكأت فينا جرأتك و لقد كنت فيها طويل اللسان قصير البنان ، آخر الحرب إذا أقبلت ، و أولها اذا أدبرت لك يدان : يد ، لا تقبضها عن شر ، و يد ، لا تبسطها الى خير ، و وجهان ، وجه مونس و وجه موحش ، و لعمري ان من باع دينه بدنيا غيره لحري حزنه على ما باع و اشترى .

أ ما ان لك بيانا ، و لكن فيك خطل ، و ان لك لرأيا و لكن فيه فشل ،

و ان اصغر عيبك فيك لأعظم عيب في غيرك ،

كان هذا الامر مشهورا معروفا عند الجميع في ذلك الزمان ، لم يجهله احد و لا ينكره رجل ، و لقد احضر معاوية إمامنا الحسن عليه السلام في مجلسه ، و فيه أجلاف بني امية ، كعمرو ، و مروان و اشباههما ، فقابلوا الامام الحسن

[145]

بالكلام السيىء ، فأجاب ابن امير المؤمنين كل واحد منهم بجواب فالقمه حجرا ،

ثم التفت الامام الحسن الى عمرو بن العاص ، و قال : أما انت يابن العاص . فان أمرك مشترك ، وضعتك أمك مجهولا ، من عهر و سفاح ، فتحاكم فيك خمسة من قريش ، فغلب عليك جزارها ، ألأمهم حسبا ، و أخبثهم منصبا ، ثم قام ابوك فقال . أنا شانئي محمد الابتر . فأنزل الله فيه ما أنزل و قاتلت رسول الله صلى الله عليه و آله في جميع المشاهد ، و هجوته و آذيته بمكة و كدت كيدك كله ، و كنت من أشد الناس له تكذيبا و عداوة ، ثم

خرجت تريد النجاشي ملك الحبشة مع اصحاب السفينة لتأتي بجعفر و اصحابه الى اهل مكة ، فلما أخطأك ما رجوت ، و رجعك الله خائبا ، و أكذبك واشيا جعلت حسدك على صاحبك عمارة بن الوليد ، فوشيت به الى النجاشي حسدا لما ارتكب من حليلته ، ففضحك الله و فضح صاحبك ، فانت عدو بني هاشم من الجاهلية و الاسلام ، ثم انك تعلم ، و كل هؤلاء الرهط يعلمون . انك هجوت رسول الله صلى الله عليه و آله بسبعين بيتا من الشعر . فقال رسول الله . إني لا أقول الشعر ، و لا ينبغي لي ، اللهم : العنه بكل حرف لعنة . فعليك إذن من الله ما لا يحصى من اللعن .

و أما الوشاية التي ذكرها الامام الحسن عليه السلام من كلامه فهي . ان عمرا و عمارة بن الوليد ركبا البحر إلى الحبشة ، و كان عمارة جميلا و سيما ، تهواه النساء ، و كان مع عمرو بن العاص إمرأته ، فلما صاروا في البحر ليالي اصابا من خمر معها ، فانتشى عمارة و قال لامرأة عمرو . فقال لها . عمرو . قبّليني ابن عمك فقبلته . فهواها عمارة ، و جعل يراودها عن نفسها ، فامتنعت منه ثم ان عمرا جلس على سكان السفينة ليبول ، فدفعه عمارة في البحر ، فلما

[146]

وقع عمرو سبح حتى اخذ بمنجاف السفينة ، و ضغن على عمارة في نفسه ، و علم انه كان اراد قتله و مضيا حتى نزلا الحبشة ، فلما اطمأنا في الحبشة لم يلبث عمارة ان دب لامرأة النجاشي فادخلته فاختلف اليها ، و جعل إذا رجع من مدخله ذلك يخبر عمرا بما كان من امره ، فيقول عمرو . لا اصدقك انك قدرت على هذا .

إن هذه المرأة ارفع من ذلك . فلما اكثر عليه عمارة كان يخبره . و رأى عمرو من حاله و هيئته و مبيته عندها حتى يأتي اليه السحر عرف به ذلك . قال له ان كنت صادقا فقل لها فلتدهنك بدهن النجاشي الذي لا يدهن به غيره . فاني اعرفه .

و آتني بشيء منه حتى اصدقك . قال عمارة . افعل . فسألها ذلك . فدهنته منه و اعطته شيئا في قارورة . فقال عمرو . اشهد انك قد صدقت . لقد اصبت شيئا ما اصاب احد من العرب مثله قط . امرأة الملك ما سمعنا بمثل هذا . ثم سكت عنه حتى اطمأن . و دخل على النجاشي فأعلمه شأن عمارة . و قدم اليه الدهن .

فلما اثبت امره دعا بعمارة . و دعا نسوة اخر . فجردوه من ثيابه . ثم امرهن أن ينفخن في احليله حتى خلي سبيله . فخرج هاربا . و قيل غير ذلك هذه جملات مختصرة مما يتعلق بعمرو بن العاص . من شرافة اصله و كرم مولده و فضائل احد آبائه الخمسة العاص و هذه فضائل الرجل و نفسياته و نلتقي بك في هذا الموضوع مرة اخرى ان شاء الله . و الان نشرع في شرع الكلمات من الخطبة .

« و لم يبايع حتى شرط أن يؤتيه على البيعة ثمنا » يعني إن عمرو بن العاص لم يبايع لمعاوية حتى إشترط عليه الاجرة و الثمن ، و هو ولاية مصر ، اي إشترط عمرو بن العاص على معاوية أنه اذا بايعه و اعانه على حرب الامام امير المؤمنين عليه السلام ، و أخرجوا مصر من تحت سلطة امير المؤمنين عليه السلام يكون عمرو بن

[147]

العاص واليا و اميرا على مصر ، ثم دعا عليه السلام عليهما معا فقال : « فلا ظفرت يد البائع » و هو عمرو « و خزيت أمانة المبتاع » و هو معاوية .

و اما ما يتعلق بهذه البيعة بيعة عمرو بن العاص لمعاوية فخلاصة الكلام :

أن الامام أمير المؤمنين عليه السلام بعد ما فرغ من حرب الجمل في البصرة كتب كتابا إلى معاوية يدعوه إلى البيعة ، و بعث ذلك الكتاب بيد رجل من أصحابه و سيأتي شرحه إسمه جرير بن عبد الله البجلي ، فلما وصل الكتاب إلى معاوية إغتم بما فيه ، و ذهبت به أفكاره كل مذهب ، و لم يزل يماطل الرسول بالجواب حتى تكلم معاوية مع قوم من اهل الشام للقيام بالطلب بدم عثمان . فأجابوه و بايعوه على ذلك ، و كان جرير يطالبه بالبيعة لأمير المؤمنين عليه السلام و معاوية يستمهله ،

و لكنه كان يتفكر حول الموضوع ، و حول التخلص من البيعة لأمير المؤمنين عليه السلام ، و لأنه يعلم أن امير المؤمنين لا يبقيه على منصبه ، و لم يسمح له أن يلعب بأموال المسلمين و دمائهم .

و بعد أن شاور معاوية عملائه حول هذا الموضوع أشاروا عليه أن يستعين بعمرو بن العاص ، لدهائه ، و حيث أن عمرو بن العاص كان بمعزل عن قتل عثمان ، فهو لا شك لا يتداخل في الطلب بدم عثمان إلا بمواعيد و ثمن باهظ ،

حتى يشتري منه دينه ان كان له دين لأن عمرو بن العاص كان مغرما بالدنيا و يحب المال حبا جما ، و حب الدنيا رأس كل خطيئة كما في الحديث :

فكتب اليه معاوية هذا الكتاب :

اما بعد : فانه قد كان من امر علي و طلحة و الزبير ما قد بلغك ، و قد سقط الينا مروان بن الحكم في نفر من اهل البصرة ، و قدم علينا جرير بن عبد الله في بيعة علي ، و قد حبست نفسي عليك لاجلك حتى تأتيني ، فأقبل اذكرك

امورا لا تعدم مغبّتها انشاء الله .

وصل الكتاب إلى ابن العاص ، فشاور ولديه : عبد الله و محمدا ، فقال له عبد الله : ارى ان نبي الله قبض و هو عنك راض ، و الخليفتان من بعده ، و قتل عثمان و انت عنه غائب ، فقرّ في منزلك ، فلست مجعولا خليفة ، و لا تريد ان تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة ، او شكتما ان تهلكا ، فتستويا في عقابها .

و قال محمد ابنه : ارى انك شيخ قريش ، و صاحب امرها ، و ان تصرم هذا الامر و انت عنه غافل تصاغر امرك ، فالحق بجماعة اهل الشام . و كن يدا من ايديها ، و اطلب بدم عثمان فانه سيقوم بذلك بنو امية .

فقال ابن العاص : اما انت يا عبد الله فأمرتني بما هو خير لي في ديني . و اما انت يا محمد فأمرتني بما هو خير لي في دنياي و انا ناظر فيه .

فلما جنّه الليل رفع صوته ينشد ابياتا في ذلك ، فقال ابنه عبد الله : ترحل الشيخ ، و دعي ابن العاص غلاما اسمه : وردان ، و كان داهيا ماردا ، فقال ارحل يا وردان ، ثم قال : احطط يا وردان . ثم قال ارحل يا وردان . فقال له وردان خلطت ابا عبد الله ؟ اما انك ان شئت انبأتك بما في نفسك قال : هات ويحك قال : إعتركت الدنيا و الآخرة على قلبك ، فقلت : علي معه الاخرة في غير الدنيا ، و في الآخرة عوض من الدنيا ، و معاوية معه الدنيا بغير آخرة و ليس في الدنيا عوض من الاخرة ، فانت واقف بينهما .

قال : فانك و الله ما اخطأت ، فما ترى يا وردان ؟ قال ارى ان تقيم في بيتك ، فان ظهر اهل الدين عشت في عفو دينهم ، و ان ظهر اهل الدنيا لم يستغنوا عنك .

قال ابن العاص . الآن ؟ و قد شهدت العرب مسيري الى معاوية .

ارتحل عمر بن العاص الى الشام حتى دخلها و عرف حاجة معاوية اليه فباعده من نفسه . و كل منهما يكايد صاحبه ، الى ان دخل ابن العاص على معاوية فقال معاوية : ابا عبد الله : طرقتنا في ليلتنا هذه ثلثة اخبار ليس فيها ورد و لا صدر .

قال : و ما ذاك . قال : منها ان محمد بن حذيفة كسر سجن مصر ، فخرج هو و اصحابه ، و هو من آفات هذا الدين ، و منها ان قيصر زحف بجماعة الروم ليغلب على الشام ، و منها ان عليا نزل الكوفة متهيئا للمسير الينا .

قال عمرو : كل ما ذكرت ؟ اما امر ابن حذيفة فما يعظمك من رجل خرج في اشباهه ؟ ان تبعث اليه رجلا يقتله ، او يأتيك به ، و ان قاتل لم يضرك .

و اما قيصر : فاهد له الوصائف و آنية الذهب و الفضة ، و سله الموادعة ، فانه اليها سريع و اما علي : فلا و الله يا معاوية لا يسوي العرب بينك و بينه في شيء من الاشياء و ان له في الحرب لحظا ما هو لأحد من قريش ، و انه لصاحب ما هو فيه الا ان تظلمه .

فقال معاوية يا ابا عبد الله اني ادعوك الى جهاد هذا الرجل الذي عصى ربه ،

و شق عصا المسلمين ، و قتل الخليفة ، و اظهر الفتنة ، و فرق الجماعة ، و قطع الرحم فقال عمرو . و من هو ؟ قال معاوية علي قال عمرو : و الله يا معاوية ما انت و علي حملي بعير ،

ما لك هجرته و لا سابقته ، و لا صحبته ، و لا فقهه و لا علمه ، و الله ان له مع ذلك جدا و جدودا و حظا و حظوة ، و بلاء من الله حسنا ، فما تجعل لي على ان شايعتك على ما تريد ؟ قال معاوية حكمك . قال عمرو مصر طعمة . فتلكأ معاوية ،

و قال يا ابا عبد الله : اما تعلم ان مصر مثل العراق ؟ قال بلى ، و لكنها انما تكون لي اذا كانت لك ، و انما تكون لك اذا اغلبت عليا على العراق

فدخل عتبه بن ابي سفيان اخو معاوية و قال يا معاوية اما ترضى ان تشتري عمرا بمصر ان هي صفت لك ؟ فوافق معاوية على ذلك ، و ارسل الى ابن العاص و اعطاه كتابا بذلك .

ذكرنا مقدار الحاجة من الموضوع و باقي الخطبة واضح لا يحتاج الى شرح قد تمت المقطوعة الثالثة من الخطبة السادسة و العشرين هذه المقطوعات الثلاث التي مرّ ذكرها و شرحها هي من خطبة مفصّلة نذكرها بتمامها ، كما ذكرها شيخنا المجلسي و ابن ابي الحديد :

انه دخل عمر بن الحمق ، و حجر بن عدي ، و حبة العرني ، و الحرث الاعور و عبد الله بن سبا على امير المؤمنين عليه السلام بعد ما افتتحت مصر ، و هو مغموم حزين فقالوا له : بيّن لنا ما قولك في ابي بكر و عمر ؟ فقال لهم هل فزعتم لهذا و هذه مصر قد افتتحت و شيعتي قد قتلت ، انا مخرج اليكم كتابا أخبركم فيه عما سألتكم ، و اسئلكم ان تحفظوا من حقي ما ضيّعتم ، فاقرئوه على شيعتي ،

و كونوا على الحق ، و هذه نسخة الكتاب :

تمام الخطبة السادسة و العشرين من عبد الله علي امير المؤمنين إلى قرّاء كتابي من المسلمين و المؤمنين :

السلام عليكم ، فاني احمد اليكم الله الذي لا اله الا هو ،

اما بعد : فان الله بعث محمدا نذيرا للعالمين امينا على التنزيل ، و شهيدا على هذه الامة و انتم معاشر العرب يومئذ على شر دين ، و في شر دار ، منيخون على حجارة خشن ، و جنادل صم ، و سوك مبثوث في البلاد ،

تشربون الماء الخبيث ،

[151]

و تأكلون الطعام الجشب ، و تسفكون دمائكم و تقتلون اولادكم و تقطعون ارحامكم و تأكلون اموالكم بينكم بالباطل ، سبلكم خائفة ، و الأصنام فيه منصوبة و لا يؤمن اكثركم بالله الا و هم مشركون .

فمنّ الله عز و جل عليكم بمحمد فبعثه اليكم رسولا من انفسكم و قال فيما انزل من كتابه هو الذي بعث في الاميّين رسولا منهم يتلو عليهم آياته و يزكيهم و يعلمهم الكتاب و الحكمة و ان كانوا من قبل لفي ضلال مبين لقد جائكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم و قال لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من انفسهم و قال :

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء و الله ذو الفضل العظيم فكان الرسول اليكم من انفسكم بلسانكم فعلّمكم الكتاب و الحكمة ،

و الفرائض و السنة و امركم بصلة ارحامكم و حقن دمائكم و صلاح ذات البين ،

و ان تؤدوا الأمانات إلى اهلها و ان توفوا بالعهد ، و لا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، و تبارّوا و تباشروا و تباذلوا و تراحموا و نهاكم عن التناهب و التظالم و التحاسد و التباغي و التقاذف و عن شرب الحرام و بخس المكيال و نقص الميزان و تقدم اليكم فيما تلي عليكم : ان لا تزنوا و لا تربوا و لا تأكلوا اموال اليتامى ظلما و ان تؤدوا الامانة الى اهلها و ان لا تعثوا في الارض مفسدين ، و لا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين فكل خير يدني الى الجنة و يباعد من النار أمركم به و كل شر يدني الى النار و يباعد من الجنة نهاكم عنه فلما استكمل مدته من الدنيا توفاه الله سعيدا حميدا فيا لها مصيبة خصت الاقربين ، و عمّت جميع المسلمين ، ما اصيبوا بمثلها ، و لن يعاينوا بعدها اختها

[152]

فلما مضى لسبيله صلى الله عليه و آله تنازع المسلمون الامر من بعده . فو الله ما كان يلقى في روعي . و لا يخطر على بالي ان العرب تعدل هذا الامر بعد محمد صلى الله عليه و آله عن اهل بيته . و لا أنهم ينحّوه عني من بعدي فما راعني إلا إنثيال الناس على ابي بكر ، و اجفالهم اليه ليبايعوه ، فأمسكت يدي ، و رأيت اني احق بمقام محمد صلى الله عليه و آله ، و ملة محمد في الناس ممن تولى الأمر بعده ، فلبثت بذلك ما شاء الله حتى رأيت راجعة من الناس رجعت عن الاسلام تدعو الى محق دين الله و ملة محمد ، فخشيت ان لم انصر الاسلام و اهله ان ارى فيه ثلما و هدما تكون المصيبة بهما اعظم من فوات ولاية أموركم التي هي متاع ايام قلائل ، ثم يزول كما يزول السراب ، و كما ينقشع السحاب فتولى ابو بكر تلك الامور ، و سدّد و بسّ ، و قارب و اقتصد ، فصحبته مناصحا ، و اطعته فيما أطاع الله فيه جاهدا ، و ما طمعت ان لو حدث به حدث و انا حي ان يرد الي الامر الذي بايعته فيه طمع مستيقن ، و لا يئست منه ياس من لا يرجوه ، و لو لا خاصته ما كان بينه و بين عمر لظننت ان لا يدفعها عني ،

فلما احتضر بعث الى عمر فولاه ، فسمعنا و اطعنا ، و ناصحنا ، و تولى عمر . . . فلما احتضر قلت في نفسي : لم يعتد لها عني ، و ليس يدافعها عني . فجعلني سادس ستة ، فما كانوا لولاية احد اشد كراهية منهم لولايتي عليهم ، فكانوا يسمعون عند وفاة الرسول احاج ابا بكر و اقول : « يا معشر قريش : إنا اهل البيت احق بهذا الأمر منكم ، أ ما كان فينا من يقرأ القرآن و يعرف السنة و يدين بدين الحق ؟) فخشي القوم ان انا وليت عليهم ان لا

يكون لهم من الأمر نصيب ما بقوا فأجمعوا إجماعا واحدا فصرفوا الولاية الى عثمان ، و اخرجوني منها رجاء ان يناولوها و يتداولها ، إذ يئسوا ان ينالوها من قبلي

[153]

ثم قالوا : هلم فبايع ، و إلا جاهدناك . فبايعت مستكرها ، و صبرت محتسبا فقال قائلهم : يا بن ابي طالب : انك على هذا الامر لحريص . فقلت : إنهم احرص مني و ابعد ، أينا احرص ؟ انا الذي طلبت تراثي و حقي الذي جعلني الله و رسوله اولى به ؟ إذ تضربون وجهي دونه ، و تحولون بيني و بينه . فبهتوا و الله لا يهدي القوم الظالمين اللهم . اني استعديك على قريش ، فأنهم قطعوا رحمي ، و أضاعوا أناتي ،

و صغّروا عظيم منزلتي ، و اجمعوا على منازعتي حقا كنت اولى به منهم فسلبونيه ثم قالوا . الا ان في الحق أن تأخذه ، و في الحق ان تمنعه . فاصبر كمدا ، أو مت أسفا و حنقا فنظرت فاذا ليس لي معي رافد ، و لا ذاب و لا ناصر و لا مساعد الا اهل بيتي فضننت بهم عن المنيّة ، فاغضيت على القذى ، و تجرعت ريقي من الشجى و صبرت من كظم الغيظ على امرّ من العلقم و الم للقلب من حز الشفار حتى اذا نقمتم على عثمان ، اتيتموه فقتلتموه ، ثم جئتموني لتبايعوني ،

فأبيت عليكم ، و امسكت يدي ، فنازعتموني و دافعتموني ، و بسطتم يدي فكففتها ، و مددتموها فقبضتها ، و ازدحمتم عليّ حتى ظننت ان بعضكم قاتل بعض و انكم قاتلي ، فقلتم . بايعنا . لا نجد غيرك . و لا نرضى الا بك . بايعنا لا نفترق و لا تختلف كلمتنا .

فبايعتكم ، و دعوت الناس الى بيعتي . فمن بايع طوعا قبلته منه . و من أبى لم اكرهه و تركته . فبايعني فيمن بايعني طلحة و الزبير . و لو أبيا ما اكرهتهما كما لم اكره غيرهما فيما لبثنا الا يسيرا حتى بلغني انهما خرجا من مكة متوجهين الى البصرة في جيش ما منهم رجل الا قد اعطاني الطاعة . و سمح لي بالبيعة . فقدما

[154]

على عاملي ، و خزّان بيت مالي . و على اهل مصر الذين كلهم على بيعتي و في طاعتي فشتّتوا كلمتهم . و افسدوا جماعتهم . ثم وثبوا على شيعتي من المسلمين فقتلوا طائفة منهم غدرا و طائفة صبرا ، و طائفة منهم غضبوا لله فشهروا سيوفهم ، و ضربوا بها حتى لقوا الله صادقين ، فو الله لو لم يصيبوا منهم الا رجلا واحدا متعمدين لقتله لحل لي قتل ذلك الجيش بأسره ، فدع ما انهم قد قتلوا من المسلمين اكثر من العدة التي دخلوا بها عليهم ، و قد ادال الله منهم ، فبعدا للقوم الظالمين ثم اني نظرت في امر اهل الشام ، فاذا أعراب احزاب . و اهل طمع جفاة طغاة . يجتمعون من كل ادب من كان ينبغي ان يؤدّب ، او يولى عليه . و يؤخذ على يديه . ليسوا من المهاجرين و لا الانصار . و لا التابعين باحسان . فسرت اليهم فدعوتهم الى الطاعة و الجماعة فأبوا إلا شقاقا و فراقا . و نهضوا في وجوه المسلمين .

ينظمونهم بالنبل . و يشجرونهم بالرماح . فهناك نهدت اليهم بالمسلمين فقاتلتهم . فلما عضهم السلاح و وجدوا ألم الجراح رفعوا المصاحف يدعونكم الى ما فيها فأنبأتكم انهم ليسوا بأهل دين و لا قرآن . و انهم قد رفعوها غدرا و مكيدة . و خديعة و وهنا و ضعفا . فامضوا على حقكم وقتا لكم . فأبيتم عليّ و قلتم . اقبل منهم فان أصابوا الى ما في الكتاب جامعونا على ما نحن عليه من الحق . و ان ابوا كان اعظم لحجتنا عليهم فقبلت منهم . و كففت عنهم اذ ونيتم و أبيتم . و كان الصلح بينكم و بينهم على رجلين . يحييان ما احيى القرآن . و يميتان ما أمات القرآن . فاختلف رأيهما و تفرّق حكمهما و نبذا حكم القرآن . و خالفا ما في الكتاب . فجنّبهما الله السداد . و ولاهما في

الضلالة ، فنبذا حكمهما . و كانا اهله . فانخزلت فرقة منا فتركناهم ما تركونا . حتى اذا عتوا في الأرض يقتلون و يفسدون اتيناهم . فقلنا ادفعوا لنا قتلة اخواننا . ثم كتاب الله بيننا و بينكم قالوا : كلنا قتلهم . و كلنا

[155]

استحل دمائهم و دمائكم و شدت علينا خيولهم و رجالهم . فصرعهم الله مصارع الظالمين . فلما كان ذلك من شأنهم امرتكم ان تمضوا من فوركم ذلك الى عدوّكم . فقلتم : كلّت سيوفنا و نفذت نبالنا . و نصلت اسنّة رماحنا . . فارجع بنا الى مصرنا لنستعد بأحسن عدّتنا . فاذا رجعت زدت في مقاتلتنا عدة من هلك منا و فارقنا . فان ذلك اقوى لنا على عدونا فاقبلت بكم . حتى اذا ظللتم على الكوفة امرتكم ان تنزلوا النخيلة . و ان تلزموا معسكركم . و ان تضمّوا قواضيكم . و ان توطنوا على الجهاد أنفسكم و لا تكثروا زيارة أبنائكم و نسائكم ، فان أهل الحرب لمصابروها ، و اهل الفشيم فيها غاضية .

فلا من بقي منكم صبر و ثبت ، و لا من دخل المصر عاد و رجع ، فنظرت الى معسكري و ليس فيه خمسون رجلا ، فلما رأيت ما أتيتم دخلت إليكم ، فما قدر لي ان تخرجوا الى يومنا هذا فما تنتظرون ؟ ا ما ترون اطرافكم قد انتقضت ؟

و الى مصركم قد فتحت ؟ و الى شيعتي بها قد قتلت ؟ و الى مسالحكم تغرى ؟ و الى بلادكم تغزى ؟ و انتم ذوو عدد كثير ، و شوكة و بأس شديد ، فما بالكم ؟ لله انتم من أين تؤتون ؟ و ما لكم تسحرون ؟ و انى تؤفكون ، و لو عزمتم و اجمعتم لم تراموا .

أ لا : إن القوم قد اجتمعوا ، و تناشبوا و تناصحوا ، و انتم قد ونيتم ،

و تغاششتم و افترقتم ، ما انتم ان اتممتم عندي على هذا بمنقذين ، فانتهوا عما نهيتم ، و اجمعوا على حقكم ، و تجردوا لحرب عدوكم ، قد أبدت الرغوة من التصريح ، و بيّن الصبح لذي عينين ، و انما تقاتلون الطلقاء و ابناء الطلقاء ، و أولي

[156]

الجفاء ، و من اسلم كرها ، فكان لرسول الله أنف الاسلام كله حربا ، اعداء الله و السنة و القرآن ، و اهل البدع و الاحداث ، و من كانت بوائقة تتقى ، و كان على الاسلام و اهله مخوفا ، آكلة الرشا و عبدة الدنيا لقد انهى الي ان ابن النابغة لم يبايع معاوية حتى اعطاه و شرط به ان يؤتيه ما هي اعظم مما في يده سلطانه ، الا : صفرت يد هذا البائع دينه بالدنيا ، و خزيت امانة هذا المشتري بنصرة فاسق غادر بأموال المسلمين ، و ان فيهم من قد شرب فيهم الخمر ، و جلد الجلد ، يعرف بالفساد في الدين ، و في الفعل السيىء ، و ان فيهم من لم يسلم حتى رضخ له رضيخة ، فهؤلاء قادة القوم ، و من تركت ذكر مساويه من قادتهم مثل ما ذكرت منهم ، بل هو شر ، و يود هؤلاء الذين ذكرت لو ولوا عليكم ، فأظهروا فيكم الكفر و الفساد و الفجور و التسلط بالجبرية ، و اتّبعوا الهوى و حكموا بغير الحق .

و لانتم على ما كان فيكم من تواكل و تخاذل خير منهم ، و اهدى سبيلا ،

فيكم العلماء و الفقهاء و النجباء و الحكماء ، و حملة الكتاب ، و المتهجّدون بالأسحار و عمّار المساجد بتلاوة القرآن أ فلا تسخطون ؟ و تهتمون ان ينازعكم الولاية عليكم سفهاؤكم و الاشرار الاراذل منكم ، فاسمعوا قولي و اطيعوا امري ،

فو الله لئن اطعتموه لا تغورون ، و ان عصيتموه لا ترشدون خذوا للحرب اهبتها ، و عدوا لها عدتها ، فقد شبت نارها و علا سنانها ، و تجرد لكم فيها الفاسقون كي يعذبوا عباد الله و يطفؤ نور الله أ لا : ليس أولياء الشيطان من

اهل الطمع و المكر و الجفاء بأدنى في الجد في غيهم و ضلالهم من اولياء الله اهل البر و الزهادة ، و الاخبات بالجد في حقهم ، و طاعة ربهم ، و مناصحة إمامهم

[157]

إي و الله لو لقيتهم فردا و هم ملاء الارض ما باليت ، و لا استوحشت ، و اني من ضلالتهم التي فيها ، و الهدى الذي نحن عليه لعلى ثقة و بينة ، و يقين و بصيرة ،

و اني الى لقاء ربي لمشتاق و لحسن ثوابي لمنتظر ، و لكن اسفا يعتريني و حزنا يخامرني ان يلي امر هذه الامة سفهاؤها و فجارها ، فيتخذوا مال الله دولا ،

و عباد الله خولا ، و الفاسقين حزبا ، و ايم الله لو لا ذلك ما اكثرت تأنيبكم و تحريصكم ، و لتركتكم اذا ونيتم و ابيتم حتى القاهم بنفسي متى حمّ لي لقائهم فو الله اني لعلى الحق و اني للشهادة لمحب .

فانفروا خفافا و ثقالا ، و جاهدوا بأموالكم و أنفسكم في سبيل الله ، ذلك خير لكم ان كنتم تعلمون ، و لا تثاقلوا الى الارض فتقروا بالخسف ،

و تبوّؤا بالذل . . .

ان اخا الحرب ليقظان ، و من ضعف اودى ، و من ترك الجهاد كان كالمغبون المهين .

اللهم اجمعنا و اياهم على الهدى ، و زهّدنا و اياهم في الدنيا ، و اجعل الاخرة خيرا لنا و لهم من الأولي و السلام .

انتهت الخطبة السادسة و العشرون

[158]

الخطبة السابعة و العشرون

و من خطبة له عليه السلام أمّا بعد : فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة فتحه الله لخاصّة أوليائه ، و هو لباس التّقوى ، و درع الله الحصينة ، و جنّته الوثيقة ،

فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذّلّ ، و شمله البلاء ، و ديّث بالصّغار و القماء ، و ضرب على قلبه بالأسداد و أديل الحقّ منه بتضييع الجهاد ، و سيم الخسف ، و منع النّصف .

أ لا : و إنّي قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا و نهارا ،

و سرّا و إعلانا ، و قلت لكم : أغزوهم قبل أن يغزوكم ، فو الله ما غزي قوم قطّ في عقر دارهم إلاّ ذلّوا . فتواكلتم و تخاذلتم حتّى شنّت عليكم الغارات ، و ملكت عليكم الأوطان ، و هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار و قد قتل حسّان بن حسان البكريّ ، و أزال خيلكم عن مسالحها .

و لقد بلغني : أنّ الرّجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة و الأخرى

[159]

المعاهدة ، فينتزع منها حجلها و قلبها ، و قلائدها ، و رعاثها ، ما تمتنع منه إلاّ بالإسترجاع و الإسترحام ، ثمّ انصرفوا وافرين ،

ما نال رجلا منهم كلم و لا أريق لهم دم ، فلو أن امرء مسلما مات بعد هذا أسفا ما كان به ملوما ، بل كان به عندي جديرا .

فيا عجبا ، عجبا و الله يميت القلب و يجلب الهمّ من إجتماع هؤلاء القوم على باطلهم و تفرّقكم عن حقّكم ، فقبحا لكم و ترحا حين صرتم غرضا يرمى ، يغار عليكم و لا تغيرون ، و تغزون و لا تغزون ،

و يعصى الله و ترضون فإذا أمرتكم بالسّير إليهم في أيّام الحرّ قلتم : هذه حمّارّة القيظ أمهلنا يسبّخ عنّا الحرّ . و إذا أمرتكم بالسّير إليهم في الشّتاء قلتم : هذه صبارّة القرّ أمهلنا ينسلخ عنّا البرد . كلّ هذا فرارا من الحرّ و القرّ ، فإذا كنتم من الحرّ و القرّ تفرّون فأنتم و الله من السّيف أفرّ .

يا أشباه الرّجال و لا رجال ، حلوم الأطفال و عقول ربّات الحجال : لوددت أنّي لم أركم و لم أعرفكم معرفة و الله جرّت ندما و أعقبت سدما ، قاتلكم الله ، لقد ملأتم قلبي قيحا ، و شحنتم صدري غيظا ، و جرّعتموني نغب التّهام أنفاسا ، و أفسدتم عليّ

[160]

رأيى بالعصيان و الخذلان ، حتّى قالت قريش : إنّ ابن أبيطالب رجل شجاع و لكن لا علم له بالحرب . لله أبوهم و هل أحد منهم أشدّ لها مراسا و أقدم فيها مقاما منّي ؟ و لقد نهضت فيها و ما بلغت العشرين ، و ها أنا ذا قد ذرّفت على السّتّين ، و لكن لا رأي لمن لا يطاع .

ديّث : ذلّل . الصغار بفتح الصاد : الذل و كذلك القماء . الأسداد :

جمع سد . و هو الحاجز ادبل : سلب و نزع و غلب عليه . النصف الانصاف .

و عقر البيت بضم العين : أصله و وسطه . و التواكل : احالة الامر الى الآخر ، و المسالح : جمع مسلحة ، و هي الحدود التي فيها الجند لدفع العدو .

و المعاهدة : الامرأة الكتابية التي في ذمة الاسلام . و الحجل الخلخال . و القلب بضم القاف السوار . و الرعاث : جمع رعثه بفتح الراء القرط . و الكلم بسكون اللام الجرح . و الترح : الهلاك و الانقطاع . و حمارة القيظ بتشديد الراء شدّة حرارة الصيف . و صبارة القر بضم القاف شدة برد الشتاء . ربات الحجال النساء . السدم بفتح السين و الدال الحزن . و القيح : الصديد الذي يخرج من الجرح . و النغب بضم النون و فتح الغين جمع نغبة : الجرعة : و التهام كفرغام

[161]

الهم . و انفاسا : جرعة بعد جرعة . ذرّفت : تجاوزت و زدت .

المعنى

هذه الخطبة من جلائل خطب الامام أمير المؤمنين عليه السلام و مشاهيرها ،

و قد ذكرها جماعة من العامة و الخاصة باختلاف يسير ، و زيادة و نقصان ،

و لعلنا نشير إلى ذلك في ضمن الشرح ، و قد ذكرنا فيما مضى ما صنعه بسر بن ارطاة عميل معاوية بشيعة أمير المؤمنين عليه السلام في صنعاء و غيرها من القتل و الذبح و الحرق و سبي النساء المسلمات ،

و هذا عميل آخر من عملاء معاوية الشيطان ، و اقصد هنا بالعميل كل من باع شرفه و دينه و ضميره لاحد بازاء مال او جاه و العميل الثاني هو سفيان بن عوف الغامدي عليه لعائن الله فلنذهب اليه ليحدثنا بجرائمه التي ارتكبها بأمر معاوية :

قال ابن الكنود : حدثني سفيان بن عوف الغامدي قال : دعاني معاوية فقال : إني باعثك في جيش كثيف ذي اداة و جلادة ، فالزم لي جانب الفرات حتى تمرّ ب (هيت) فتقطعها ، فإن وجدت بها جندا فأغير عليهم ، و الا فامض حتى تغير على الأنبار ، فان لم تجد بها جندا فامض حتى توغل المدائن ثم أقبل الي ،

و اتق ان تقرب الكوفة ، و اعلم : انك إن غرت على الأنبار و اهل المدائن فكأنك أغرت على الكوفة ، ان هذه الغارات يا سفيان : على اهل العراق ترعب قلوبهم

[162]

و تفرّح كل من له فينا هوى منهم ، و تدعو الينا كل من خاف الدوائر ، فاقتل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك ، و اخرب كل ما مررت به من القرى ،

و احرب الأموال فان حرب الأموال شبيه بالقتل ، و هو اوجع للقلب .

هذه وصايا معاوية الغدر و الخيانة ، معاوية الظلم و الفساد ، معاوية كل رذيلة و كل صفة قبيحة هكذا يأمر عميله بالقتل و الحرق و الهدم و السلب و النهب بقوم مسلمين مؤمنين ، و مع ذلك هو أمير المؤمنين قال سفيان : فخرجت من عنده فعسكرت ، و قام معاوية في الناس فخطبهم فقال : ايها الناس : انتدبوا مع سفيان بن عوف ، فانه وجه عظيم فيه اجر ،

سريعة فيه اوبتكم ان شاء الله . ثم نزل .

فو الله الذي لا اله غيره ما مرّت ثالثة حتى خرجت في ستة الاف ، ثم لزمت شاطىء الفرات ، فاغذذت اسرعت السير حتى امرّ بهيت ، فبلغهم اني قد غشيتهم ، فقطعوا الفرات فمررت بها و ما بها غريب ، كأنها لم تحلل قط ، فوطأتها حتى امرّ بصدوراء ففرّوا ، فلم ألق بها احدا ، فأمضي حتى افتتح الانبار ،

و قد انذروا بي ، فخرج صاحب المسلحة الي فوقف ، فلم أقدم عليه حتى اخذت غلمانا من اهل القرية فقلت لهم : اخبروني كم بالأنبار من اصحاب علي ؟ قالوا :

عدة رجال المسلحة خمسمائة ، و لكنهم تبدّدوا و رجعوا الى الكوفة ، و لا ندري الذي يكون فيها ، قد يكون مائتي رجل .

فنزلت فكتبت اصحابي كتائب ، ثم اخذت ابعثهم اليه كتيبة بعد كتيبة ،

فيقاتلهم و الله و يصبر لهم و يطارهم ، و يطاردونه في الأزقة ، فلما رأيت ذلك أنزلت اليهم نحوا من مأتين ، و اتبعتهم الخيل فلما حملت الخيل و امامها الرجال تمشي لم يكن شيء حتى تفرقوا ، و قتل صاحبهم في نحو ثلاثين رجلا . و حملنا ما

[163]

كان في الانبار من الاموال ، ثم انصرفت ، فو الله ما غزوت غزاة كانت أسلم و لا أقر للعيون ، و لا اسر للنفوس منها . و بلغني انها رعّبت الناس ، فلما عدت الى معاوية حدثته الحديث على وجهه ، فقال : كنت عند ظني بك . و لا تنزلن في بلد من الا قضيت فيه مثل ما يقضي فيه اميره ، و ان احببت تولية ولّيتك و ليس لأحد من خلق الله عليك امر دوني . . . الخ 1 وصلت هذه الاخبار الى الامام عليه السلام فصعد المنبر فخطب الناس و قال ان اخاكم البكري عامل الانبار قد اصيب . و هو اختار ما عند الله على الدنيا . فانتدبوا اليهم حتى تلاقوهم فان اصبتم منهم طرفا انكلتموهم عن العراق ابدا ما بقوا .

ثم سكت عنهم رجاء ان يجيبوه او يتكلم منهم متكلم ، فلم ينبس احد منهم بكلمة . فلما رأى صمتهم نزل و خرج يمشي راجلا حتى اتى النخيلة و الناس يمشون خلفه حتى احاط به قوم من اشرافهم فقالوا : ارجع يا امير المؤمنين : نحن نكفيك فقال . ما تكفونني ؟ و لا تكفون انفسكم . فلم يزالوا به حتى صرفوه الى منزله . فرجع و هو و أجم ساكت كئيب . و دعى سعيد بن قيس الهمداني . فبعثه من النخيلة في ثمانية الاف . و ذلك ان أخبر ان القوم جاؤا في جمع كثيف فخرج سعيد بن قيس على شاطىء الفرات في طلب سفيان بن عوف حتى اذا بلغ عانات سرّح امامه هاني بن الخطاب الهمداني فاتبع آثارهم حتى ادنى قنسرين ، و قد فاتوه فانصرف .

و لبث الامام عليه السلام ترى فيه الكآبة و الحزن حتى قدم سعيد بن قيس ،

و كان عليه السلام تلك الايام عليلا ، فلم يقوي على القيام في الناس بما يريده من ابن ابي الحديد

[164]

القول ، فجلس بباب السدة التي تصل إلى المسجد ، و معه إبناء الحسن و الحسين عليهما السلام ، و عبد الله بن جعفر ، و دعا سعدا مولاه فدفع إليه الكتاب ،

و أمره أن يقرأه على الناس ، فقام سعد بحيث يستمع أمير المؤمنين صوته ، ثم قرأ الخطبة 1 المستفاد : ان هذه الخطبة خطب بها الامام عليه السلام في اواخر عمره الشريف كما يشهد بذلك آخر الخطبة ، و قد احتوت على ارقى مراتب الصفاحة و أعلى درجات البلاغة ، و هل البلاغة إلا إيراد الكلام بمقتضى الحال و بمناسبة المقام ؟ فترى هنا أمير المؤمنين عليه السلام بدأ خطبته بالترغيب في الجهاد الذي هو باب من بواب الجنة ، و طريق يؤدي إلى النعيم المقيم ، و ترك الجهاد يسوق الناس الى العبودية ، ثم أخذ يستنفر قومه إلى الحرب ، فذكر أن عسكر سفيان بن عوف قد دخلت الانبار ، و ارتكبت فيها من الجرائم شيئا كثيرا : قتلت الرجال ،

و حرقت الدور ، و دمرت الأحياء ، ثم وضع عليه السلام يده على اهم ما يثير العربي الغيور ، و هو العرض ، فاخبرهم أن الرجل من هؤلاء الغزاة كان يدخل على المرأة فيسلبها حليتها ، و ينصرف آمنا مطمئنا . . . الخ فلنبدا بالشرح قال عليه السلام : « ا لا : و إن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة اوليائه » ابواب الجنة كثيرة ، و إن كانت ثمانية ، الا أن المقصود هنا السبب و الطريق الذي يؤدي الى الجنة هو الجهاد ، و لكن هذا الباب ليس بمفتوح لكل أحد ، بل لخاصة اولياء الله لان الجهاد : بذل المال و النفس لاعلاء كلمة الاسلام و إقامة شعائر الايمان . و الانسان يحب كل شيء لاجل حياته ، لان الحياة أغلى و اثمن من كل ثمين ، فالمجاهد يجعله حياته في معرض الخطر خطر القتل ابن ابي الحديد

[165]

و الموت ابتغاء مرضات الله ، و يوطن نفسه على فراق الاهل و الاولاد و المال مع شدة حبه اليهم ، و فرط علاقته بهم ، و يعرض نفسه في طريق الشهادة و الفناء ،

كما و أن الشهادة في سبيل الله فوق كل عبادة ، و ليس فوقها عبادة ، كما في الحديث فوق كل برّ برّ إلا الشهادة .

و يمكن ان يكون المقصود : ما ورد عن الامام الصادق عليه السلام قال :

قال رسول الله صلى الله عليه و آله : للجنة باب يقال له : باب المجاهدين ، يمضون اليه فاذا هو مفتوح ، و هم متقلدون بسيوفهم ، و الجمع في الموقف ، و الملائكة ترحّب بهم . . الخ و قد وردت اخبار و احاديث كثيرة في فضل الجهاد منها ما في الوسائل : قال النبي صلى الله عليه و آله اخبرني جبرائيل بأمر قرت به عينى و فرح به قلبي : قال يا محمد من غزى من امتك في سبيل الله فاصاب قطرة من السماء او صداع كتب الله شهادة .

و قال صلى الله عليه و آله . جاهدوا و اغتنموا .

و قال ابو بصير قلت لابيعبد الله الصادق عليه السلام . اي الجهاد افضل ؟

قال من عقر جواده و أهريق دمه في سبيل الله .

و قال الامام الصادق عليه السلام الجهاد افضل الأشياء بعد الفرائض .

و قال النبي صلى الله عليه و آله اغزوا تورثوا ابنائكم مجدا .

إلى غير ذلك من الاخبار و الاحاديث المفصلة ، و لعلنا نشير اليها في المستقبل انشاء الله .

« و هو لباس التقوى » اشار عليه السلام الى قوله تعالى يا بني آدم قد انزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم و ريشاً ، و لباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات

[166]

الله لعلهم يذكرون فان المقصود من لباس التقوى هنا لباس الحرب اي الدرع و المغفر و الآلات التي يتّقى بها من العدو ، روي ذلك عن زيد بن علي بن الحسين عليهم السلام 1 « و درع الله الحصينة ، و جنّته الوثيقة » اي كما ان الدرع يحصن الانسان و يحفظه من اضرار العدو . و كذلك الجهاد درع من الله لدينه و جنة بضم الجيم و هي ما يستتر به من سلاح و نحوه للاسلام و المسلمين . اذ لو لا الجهاد لما كان يبقى من الاسلام اسم و لا رسم . و الجهاد عز للاسلام و حفظ للقرآن يحرس المسلمين من اعدائهم ، و لما ترك المسلمون الجهاد فقدوا كل ما لديهم من مجد و عظمة و شرف . و غير ذلك . و بعد ان كان المسلمون يجاهدون الكفار و يحتلون بلادهم و يحكمون فيهم اصبحوا اليوم لا يملكون لانفسهم نفعا و لا ضرا و هذا معنى كلامه عليه السلام : « فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل .

و شمله البلاء . و ديث بالصغار و القماء » صدقت يا امير المؤمنين . صلوات الله عليك كأنك كنت تنظر الى حال المسلمين اليوم . الذي اصبحوا اذلاء مستضعفين شملهم بلاء الكفار . فلا يستطيعون دفع الضر عن انفسهم و عن بلادهم . فالحكم حكم العدو . و الامر امره . و هو كالراعي يتصرف في اغنامه حسب مصالحه و منافعه .

و قد ذكرنا صدر الحديث في اول الخطبة . و هذا تمامه كما في الوسائل قال رسول الله صلى الله عليه و آله . . . من ترك الجهاد ألبسه الله ذلا و فقرا في معيشته . و محقا في دينه ، ان الله اغنى (اعز خ ل) امتي بسنابك خيلها و مراكز رماحها .

« و ضرب على قلبه بالاسداد . و أديل الحق منه بتضييع الجهاد . و سيم الخسف و منع النصف هذه مفاسد ترك الجهاد و مضاره ، فانه يضرب على قلبه بالأسداد

____

(1) مجمع البيان ج 2 اعراف 25

[167]

جمع سد اي يسد عليه الطريق و تعمى عليه مذاهبه ، فلا يعرف وجه الحيلة للنجاة و التخلص من تلك الاضرار التي نالته بسبب ترك الجهاد ، و في بعض النسخ :

و ضرب على قلبه بالاسهاب . أي بزوال العقل ، و أديل و سلب و نزع منه الحق بسبب تضييعه الجهاد ، « و سيم الخسف » اي كلف و ألزم الذل و حرم من الانصاف و العدالة لأن العدو اذا تمكن و غلب لا يراعي لأحد حرمة و لا كرامة و لا يعامله بالعدل و الانصاف ، و لما ذا يفعل ذلك و قد بلغ الى مراده و مطلوبه ؟

و هذه بعض اضرار ترك الجهاد ، و البعض الآخر هو ما نراه اليوم في جميع البلاد الاسلامية ،

و إن كان الجهاد أصعب من كل شيء عند كل ذي روح ، و يكرهه الانسان كما قال تعالى : كتب عليكم القتال و هو كره لكم و عسى ان تكرهوا شيئاً و هو خير لكم و لكن اذا قايسنا صعوبة الجهاد بأضرار ترك الجهاد لرجحت صعوبة الجهاد هذه المواضيع كمقدمة للكلام الذي يأتي الأن ، حتى يكون الكلام اوقع في النفوس و آثر في القلوب ، قال عليه السلام : « أ لا : و إني دعوتكم الى قتال هؤلاء القوم ليلا و نهارا و سرا و إعلانا » يصرّح عليه السلام انه كان يدعو اصحابه الى قتال معاوية كرارا و مرارا ، لأنه كان يعلم أنه كلما تأخر الجهاد ازداد جيش معاوية ، و كثرت قوته و خيله و رجله ، و كان يعلم ان الحرب ستقع لا محالة ، و ان معاوية هو الذي يبدأ و يؤجج نار الحرب ، و لهذا قال عليه السلام :

« و قلت لكم : أغزوهم قبل ان يغزوكم ، فو الله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا » الانسان مهما كان قويا ، و الجيش مهما كان كثيرا اذا كان غير مستعد للحرب ، و هجم عليه العدو بغتة لا بد و ان العدو يغلبه و يقضي عليه ، و ليس

[168]

الامر هكذا في جبهة القتال و ساحة الحرب ، و السبب في ذلك هو عدم الاستعداد للمقاومة و ضيق المجال اذا كانت المحاربة في البيوت او الشوارع ، و يظهر ذلك بالدقة و التأمل .

كان هذا ألانذار يقرع اسماعهم ، و لكنهم كما قال عليه السلام : « فتواكلتم و تخاذلتم » كان كل واحد منهم يكل الامر الى غيره ، و بعضهم لا يخضع لبعض ،

و يعتبر لنفسه الأفضلية عليه ، فيخذله و لا ينصره على القيام بالجهاد ضد العدو ،

فصارت النتيجة « حتى شنّت عليكم الغارات ، و ملكت عليكم الاوطان » اي فرّقوا خيولهم عليكم للنهب و القتل ، و احتلّوا بلادكم قهرا و عدوانا ، كما فعله بسر بن أرطاة عليه لعائن الله ، و كما صنع سفيان بن عوف « و هذا اخو غامد قد وردت خيله الانبار ، و قد قتل حسان بن حسان البكري » و هو من اصحابه عليه السلام و كان واليا على الانبار يومئذ ، و انما قتل هذا الرجل و استولى جيش معاوية على أعراض المسلمين و دمائهم و اموالهم ، لأن الجيش فاجأهم و هجم عليهم بغتة ، فلو كان الوالي يعلم ذلك لأعدّ و استعد ، كما يحدثنا حبيب بن عفيف قال : كنت مع حسان بالأنبار على مسلحها ، إذ صبّحنا سفيان بن عوف في كتائب تلمع الأبصار منها ، فهالونا و الله ، و علمنا اذ رأيناهم أنه ليس لنا طاقة بهم و لا بد ،

فخرج اليهم صاحبنا و قد تفرقنا فلم يلقهم نصفنا ، و ايم الله لقد قاتلناهم فأحسنّا قتالهم حتى كرهوا ، ثم نزل صاحبنا و هو يتلو قوله تعالى : فمنهم من قضى نحبه و منهم من ينتظر ، و ما بدلوا تبديلا . ثم قال لنا : من كان لا يريد لقاء الله و لا يطيب نفسا بالموت فليخرج عن القرية ما دمنا نقاتلهم ، فان قتالنا اياهم شاغل لهم عن طلب هارب ، و من اراد ما عند الله فما عند الله خير للابرار .

ثم نزل في ثلثين رجلا فهممت بالنزول معه ثم ابت نفسي ، فتقدم هو

[169]

و اصحابه فقاتلوا حتى قتلوا رحمهم الله .

« و ازال خيلكم عن مسالحها » لأن الانبار كان في الحدود العراقية الشامية في نواحي الموصل ، و لم يبق من آثارها اليوم شيء ، و كان فيه اصحاب السلاح لوقاية الثغور و الحدود من العدو ، فاذا لم يبق في الحدود احد للحفظ و مدافعة العدو فلا مانع هناك من هجوم العدو ، و لا يبقى حومة للبلاد و لا حافظ و لا حارس .

ثم اخبرهم بخبر فظيع ، لعله يثير فيهم الغيرة و الحمية فقال : « و لقد بلغني ان الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة و الاخرى المعاهدة فينتزع منها حجلها و قلبها و قلائدها و رعاثها » اي وصلني هذا الخبر ان جيش معاوية الكافرة الظالمة حين ما هجمت على المسلمين و قتلت رجالهم و حماتهم مدت يدها الاثيمة الى النساء المسلمات و النساء المشركات اللاتي كن في ذمة الاسلام و معاهدته ، فكانوا ينتزعون من النساء الحلى و آلات الزينة من الخلخال و السوار و القلاذة و القرط من آذانهن ، و المرأة اذا قتل حاميها و هجم عليها العدو القاسي هل تستطيع ان تدافع عن نفسه ؟ و ترد العدو عن بيتها ؟ و هل تتمكن ان تمتنع و تقاوم ؟

« ما تمتنع منه الا بالاسترجاع و الاسترحام » و هل ينفع التذلل و الخضوع ،

و الاستعطاف من العدو الظالم السالب الناهب ؟ « ثم انصرفوا وافرين ، ما نال رجلا منهم كلم و لا اريق لهم دم » رجع الجيش الظالم الجائر بعد ما فعل ما اراد و اخذ ما شاء ، بتلك الأموال المنهوبة المسلوبة ، و لم يقتل منهم احد ، لأنهم كانوا ستة الاف ، و كان والي الانبار مع اصحابه ثلثين فقط .

فلو ان امرأ مسلما مات بعد هذا أسفا ما كان به ملوما بل كان به عندي جديرا » هذا شأن الغيور و صاحب الحمية انه يعتبر اعراض المسلمين كعرضه ،

[170]

فان اصابهم ما يمس بكرامتهم يحق له ان يموت حزنا و اسفا ، و كذلك هنا امير المؤمنين عليه السلام يقول : لو ان مسلما مات حزنا لهذه الواقعة الفظيعة ما كنت ألومه ، بل هذه الرزية يحق لها و يجدر بها ان يموت المسلم لأجلها ، ذكر عليه السلام هذه الكلمة اسفا لأعراض المسلمين ، و تهيجا للغيرة و الحمية ، ثم انه عليه السلام جعل يعاتبهم على مخالفتهم إياهم ، و يوبّخهم على تثاقلهم و تباطؤهم ، و يظهر التعجب من ذلك فقال : « فيا عجبا عجبا و الله يميت القلب و يجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم و تفرّقكم عن حقكم » يتعجب عليه السلام تعجبا يميت القلب ، من معاني الموت هنا : الحزن ، الخوف المكدرة للحياة ، كما قال تعالى : و يأتيه الموت من كل مكان و ما هو بميت . كما و انه يستعار الموت للأحوال الشاقة كالفقر و الذل و غيرهما ، فيمكن ان نقول : ان جملة « و يجلب الهم مفسرة لجملة : « يميت القلب » كل هذه الاشياء من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم ، هو معاوية و ولايته ، و سوابقه السيئة و حسبه السافل و نسبه المخزي ،

« و تفرقكم عن حقكم » و هو الامام أمير المؤمنين عليه السلام الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه و آله : (علي مع الحق و الحق مع علي . . .) مع علمهم بذلك ، أضف الى ذلك مواقف الامام في الاسلام ، و جهاده و حقوقه و فضائله و فواضله و سوابقه المحسنة و صفحته المتلألأة ، و غير ذلك من المؤهلات ، مما لا تعد و لا تحصى أ فمن يهدي الى الحق احقّ ان يتبع ؟ امن لا يهدى الا ان يهدى ؟ ،

فعند ذلك جاز له ان يذمهم ، و يواجههم بالكلام الخشن تأديبا ، فقال :

« فقبحا لكم و ترحا ، حين صرتم غرضا يرمى ، يغار عليكم و لا تغيرون ،

و تغزون و لا تغزون ، و يعصى الله و ترضون » دعا عليهم بأن ينحيهم الله عن الخير و يسؤهم ، لما اصبح أصحابه بسبب مخالفتهم امره ، و تثاقلهم عن الجهاد

[171]

مطمعا للعدو ، فيوم يهجم عليهم بسر بن ارطاة ، و يوم يغير عليهم سفيان بن عوف فكأنهم هدف للبنال و السهام التي يرميها معاوية ، و مع ذلك لا يخجلون و لا يستحيون من نتائج افعالهم ، و تركهم الجهاد ، فيغير عليهم العدو و لا يغيرون عليه ، و يغزوهم العدو ، و يقتل و يسلب و ينهب و يحرق و يدمر و هم سكوت ،

و الناس يعصون الله بتولية معاوية بن آكلة الأكباد على الاسلام و المسلمين ،

و ما هناك من نتائج تلك التولية المشومة ، من المجازر و المآسي و المصائب التي أبكت العيون ، عيون الأرامل و الأيتام ، عيون الآباء و الامهات و غيرهم ، مع ذلك كله انتم راضون بذلك ، فلو كنتم غير راضين لما تمكن العدو من بلادكم و ما صار ما قد صار « فاذا امرتكم بالسير اليهم في ايام الحر قلتم : هذه حمارة القيظ امهلنا يسبخ عنا الحر . و اذا امرتكم بالسير اليهم في الشتاء قلتم : هذه صبّارة القر امهلنا ينسلخ عنا البرد « القر » الجهاد في سبيل الله ليس بسفرة تفرّج و إستيناس حتى يختار المجاهد الموسم الملائم المعتدل للجهاد ، و ان المجاهد اذا خرج من بيته ابتغاء رضوان الله موطنا نفسه على لقاء الله ، فلا يهمه ان يقتل في جبهة القتال او من شدة البرد و الحر ، و خاصة اذا امر الامام بذلك و هو اعلم بمصالح الامور ، فلا ينبغي المماطلة و التعلل بالحر و البرد ، اضف الى ذلك تضاعف ثواب الجهاد بسبب الحر او البرد ، كما قال تعالى : ما كان لأهل المدينة و من حولهم من الاعراب ان يتخلفوا عن رسول الله ، و لا يرغبوا بانفسهم عن نفسه ذلك بانهم لا يصيبهم ظمأ و لا نصب و لا مخمصة في سبيل الله ، و لا يطؤن موطئاً يغيظ الكفار و لا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع اجر المحسنين و قال تعالى : فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله و كرهوا ان يجاهدوا بأموالهم و انفسهم في سبيل الله ، و قالوا : لا تنفروا في الحر . قل : نار جهنم

[172]

اشد حراً لو كانوا يفقهون 1 فكانوا يعتذرون في الصيف بشدة الحرارة ، و يستمهلون إلى انقضاء أيام الصيف ، و في الشتاء كانوا يعتذرون بشدة البرد ، و يطلبون تأجيل الجهاد إلى انتهاء البرد « كل هذا فرارا من الحرّ و القرّ ، فاذا كنتم من الحر و القر تفرون فأنتم و الله من السيف أفر » أي أشد فرارا ، إذا دخلتم ساحة الحرب ، فان تحمل القتل و مجاهدة الأبطال أشد و أصعب من تحمل البرد و الحر .

« يا أشباه الرجال و لا رجال ، حلوم الأطفال و عقول ربّات الحجال » روحية الرجل تختلف عن روحية المرأة ، و نفسيته تفرق عن نفسيّة المرأة ،

و الرجل انما يكون رجلا اذا كانت فيه صفات الرجال كالشجاعة و البطولة و الغيرة و الحميّة و الاباء و الفتوة ، و سائر صفات الرجولة ، فاذا فقدها فهو شبيه بالاطفال الغير البالغين ، و من مزايا الرجل : العقل الوافر ، و الفكر الوقاد ، فان فقدهما الرجل فهو نظير المرأة ؟ لأن النساء نواقص العقول ، ضعاف النفوس ، و لأن الصفات المتقدمة غير مطلوبة من المرأة ، و فاقد صفات الرجال مثيل المرأة و إن كان من جنس الرجال ، و خلقته و صورته كالرجال ، فهؤلاء القوم رجال صورة و خلقة ، و لا رجال غيرة و حمية و بطولة و فتوة ، و حلومهم أي عقولهم عقول الأطفال الذين لا عقل لهم ، و شبّه عقولهم ايضا بعقول النساء المخدرات او العرائس ،

و وجه الشبه : أن الامرأة اذا كانت محجبة و مخدرة و لا تتداخل في شؤون الحياة فهي ضعيفه عن إدراك وجوه المصالح .

و في نسخة : يا طغام الرجال . و الطغام من لا معرفة عنده ، و المقصود :

____

(1) التوبة

[173]

بيان عدم كفائتهم لتدبير الحرب ، و سائر شؤون البلاد ، ثم إنه عليه السلام أظهر التنفر و الانزعاج من رؤيتهم و ملاقاتهم فقال : « لوددت أني لم أركم . و لم أعرفكم معرفة و الله جرّت ندما و اعقبت سدما » معرفة الاشخاص في بعض الاحيان تؤول إلى الخير و المنافع ، و معرفة بعضهم تنتهى إلى الاضرار و الخسائر ، و هنا يتمنى الامام عليه السلام أنه ليته لم ير اولئك القوم ، و لم يعرفهم و لم يطلع عليهم و على أعمالهم ، لأن معرفة هؤلاء جرّت المصائب و الاحزان على قلب الامام عليه السلام ، و لهذا دعا عليهم فقال : « قاتلكم الله ، لقد ملئتم قلبي قيحا ، و شحنتم صدري غيظا » المقصود من « قاتلكم الله) هو اللعن و الطرد و البعد من رحمته ، إذ لا يتصور المقاتلة في ذات الله عز و جل كما في تفسير هذه الجملة في موضعين من القرآن « و جرّعتموني نغب التهمام أنفاسا » أي سقيتموني جرع الاحزان و المصائب مرة بعد أخرى ، بسبب مخالفتكم أمرى « و أفسدتم عليّ رأيي بالعصيان و الخذلان حتى قالت قريش : إن ابن ابي طالب رجل شجاع و لكن لا علم له بالحرب » لمّا عصوا أمر الامام عليه السلام في حروبه كصفين يوم تحكيم الحكمين ، فكأنهم أفسدوا عليه رأيه و فكره بسبب عصيانهم أمره و خذلانهم إياه ، فكانت النتيجة النفع لمعاوية ، و الخسارة و الندم لاصحاب الامام ، و الانسان اذا رأى سوء التدبير و ضعف السياسة من قوم أو جيش لا بد و أنه ينسب سوء التدبير إلى رئيسهم او قائدهم ، و لا يعلم أن أنه من عدم إطاعة الجند أمر القائد ، و ان الفساد كله من ناحية الجيش العاصي المتمرّد لا من نفس الرئيس ، و لهذا يقول إمامنا عليه السلام : إن قريشا لما رأوا الفشل الذي أصابنا

[174]

في هذه الحروب قالت : إن علي ابن ابي طالب رجل شجاع ، و لكن لا معرفة له بتدبير الجند و سياسة الحرب .

يتعجب الامام عليه السلام من هذه الكلمة ، و يستعظم كلامهم فقال :

« لله أبوهم و هل أحد أشد لها مراسا و أقدم فيها مقاما مني ؟ » يقول عليه السلام : هل انا لا اعرف السياسة ؟ او انا لا اعلم فنون الحرب ؟ فهل يوجد في هذا الزمان من دخل ساحة الوغى قبلي ؟ او قضى الكثير من عمره في منازلة الابطال و مقاتلة الشجعان مثلي ؟ و هل يوجد شخص له ممارسة بالحرب اكثر مني ؟ « و لقد نهضت فيها و ما بلغت العشرين ، و ها انا ذا قد ذرّفت على الستين » اي دخلت ساحة الحرب و الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه و آله من اول غزواته و هو غزوة البدر و عمري في السابعة عشر او الثامنة عشر ، و الآن قد تجاوز عمري عن الستين ، و لكن السبب الوحيد في فساد الامور و عدم النجاح هو « و لكن لا رأي لمن لا يطاع » يعني الرأي الذي لا يقبله الناس بمنزلة الرأي الفاسد ، أو بمنزلة عدم الرأي و السبب في جميع تلك المواطن و القضايا التي كانت نقع خالف ما يريده الامام عليه السلام هو انه كان يراعي حرمة أصحابه ، و لا يجابهم بالكلام الخشن ، و لا يعاملهم بالقسوة و الضغط ، كيلا يقال في حقه : إنه خالص الشرع ، و غدر بأصحابه و أنصاره ، مثلا : لما رفع أصحاب معاوية المصاحف على الرماح ، و قالوا : ندعوكم الى كتاب الله فقال الامام عليه السلام : كلمة حق يراد بها الباطل . فامتنع عن اجابتهم و النزول عند رغبتهم ، فلما سمع أصحابه امتناعه عن تحكيم الحكمين انحاز منهم فرقة و هم عشرون الف ، و قد اسودّت جباههم من كثرة السجود ، و هم حاملو

[175]

المصاحف على صدورهم ، و هجموا عليه شاهرين سيوفهم قائلين : أجب ، و الا قتلناك كما قتلنا عثمان بالامس فما يصنع أمير المؤمنين عليه السلام بأمثال هؤلاء ؟ فهل يجرد سيفه تلك الصحيفة التي يقطر منها الموت فيطحنهم طحن الرحى ؟ و ان كانوا عشرين الفا ،

لان القاتل : و الله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت عنها . أ يقتلهم ام يجيبهم الى ما ارادت انفسهم و شائت افئدتهم ، و على أي حال يؤول الامر الى ما آل .

و قد روى شيخنا المجلسي قدس سره هذه الخطبة بزيادة و نقصان ، و تغيير نذكرها تتميما للفائدة :

عن ابن عائشة : إن عليا إنتهى إليه أن خيلا لمعاوية ورد الانبار ، فقتلوا عاملا يقال له : حسان بن حسان فخرج مغضبا يجر ثوبه حتى أتى النخيلة ، و اتبعه الناس فرقى رباوة علوة من الارض ، فحمد الله و اثنى عليه ، و صلى على نبيه صلى الله عليه و آله ثم قال :

أما بعد : فان الجهاد باب من ابواب الجنة فتحه الله لخاصة اوليائه ، و هو لباس التقوى و درع الله الحصينة و جنته الوثيقة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل ، و سيماء الخسف ، و ديث بالصغار ، و قد دعوتكم إلى حرب هؤلاء القوم ليلا و نهارا ، و سرا و إعلانا ، و قلت لكم : اغزوهم قبل ان يغزوكم ،

فو الله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا .

فتواكلتم و تخاذلتم ، و ثقل عليكم قولي ، و اتخذتموه ورائكم ظهريا ، حتى شنّت عليكم الغارات ، هذا اخو غامد قد وردت خيله الانبار ، و قتلوا حسان بن حسان ،

و رجالا منهم كثيرا و نساء ، و الذي نفسي بيده لقد بلغني أنه كان يدخل على

[176]

المرئة المسلمة و المعاهدة فينتزع أحجالها و رعثها ، ثم انصرفوا موفورين ، لم يكلم احد منهم كلما ، فلو أن امرأ مسلما مات من دون هذا اسفا ما كان عندي فيه ملوما ، بل كان عندي به جديرا .

يا عجبا كل العجب : من تظافر هؤلاء القوم على باطلهم ، و فشلكم عن حقكم ،

إذا قلت لكم : اغزوهم في الشتاء . قلتم : هذا اوان قرّ و صرّ . و إن قلت لكم :

اغزوهم في الصيف . قلتم : هذا حمارة القيظ أنظرنا ينصرم الحرّ عنا .

فاذا كنتم من الحر و البرد تفرون فأنتم و الله من السيف أفر ، يا اشباه الرجال و لا رجال و يا طغام الاحلام ، و يا عقول ربات الحجال ، و الله لقد أفسدتم علي رأيي بالعصيان ، و لقد ملأتم جوفي غيظا ، حتى قالت قريش : إن ابن ابيطالب شجاع ، و لكن لا رأي له في الحرب . لله درّهم و من ذا يكون أعلم بها ،

و أشد لها مراسا مني ؟ فو الله لقد نهضت فيها ، و ما بلعت العشرين ، و لقد نيفت على الستين ، و لكن لا رأي لمن لا يطاع : يقولها ثلاثا فقام إليه رجل و معه اخوه فقال : يا امير المؤمنين : انا و اخي كما قال الله حكاية عن موسى : رب إني لا املك الا نفسي و اخي . فمرنا بأمرك ، فو الله لننتهين إليه ، و لو حال بيننا و بينه جمر الغضا ، و شوك القتاد . فدعى له بخير ثم قال : و اين تقعان مما اريد ؟ ثم نزل .

قد تمت الخطبة السابعة و العشرون

[177]

الخطبة الثامنة و العشرون

المتن

و من خطبة له عليه السلام :

أمّا بعد : فإنّ الدّنيا قد أدبرت و آذنت بوداع ، و إنّ الآخرة قد أقبلت و أشرفت باطّلاع ، أ لا : و إنّ اليوم المضمار ، و غدا السّباق ، و السّبقة الجنّة ، و الغاية النّار ، أ فلا تائب من خطيئته قبل منيّته ؟ أ لا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه ؟ أ لا ، و إنّكم في أيّام أمل من ورآئه أجل ، فمن عمل في أيّام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله و لم يضرّه أجله ، و من قصّر في أيّام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله ، و ضرّه أجله .

أ لا فاعملوا في الرّغبة كما تعملون في الرّهبة ، أ لا : و إنّي لم أر كالجنّة نام طالبها ، و لا كالنّار نام هاربها أ لا و إنّه من لا ينفعه الحقّ يضرّه الباطل ، و من لا يستقيم به الهدى يجرّ به الضّلال إلى الرّدى ، أ لا و إنّكم قد أمرتم بالظعن و دللتم على الزّاد ، و إنّ أخوف ما أخاف عليكم إتّباع الهوى ، و طول الأمل فتزوّدوا في الدّنيا ما تحرزون به أنفسكم غدا .

[178]

قال سيدنا الرضي قدس الله سره : اقول : لو كان كلام يأخذ بالاعناق الى الزهد في الدنيا ، و يضطر الى عمل الآخرة لكان هذا الكلام ، و كفى به قاطعا لعلائق الآمال ، و قادحا بزناد الاتعاظ و الازدجار و من اعجبه قوله عليه السلام : « ا لا : و ان اليوم المضمار ، و غدا السباق ، و السبقة الجنّة و الغاية النار » فخالف بين اللفظين لاختلاف المعنيين المفسّرين ، و لم يقل : السبقة النار .

كما قال : السبقة الجنة . لأن الاستباق إنما يكون الى امر محبوب و غرض مطلوب و هذه صفة الجنة ، و ليس هذا المعنى موجودا في النار نعوذ بالله منها فلم يجز ان يقول : و السبقة النار . بل قال : و الغاية النار . لأن الغاية قد ينتهي اليها من لا يسره الانتهاء اليها و من يسره ذلك ، فصلح أن يعبّر بها عن الامرين معا ، فهي في هذا الموضع كالمصير و المآل ، قال الله تعالى : قل تمتّعوا فانّ مصيركم النار و لا يجوز في هذا الموضع ان يقال : فان سبقتكم بسكون الباء الى النار .

فتامل ذلك ، فباطنه عجيب ، و غوره بعيد لطيف ، و كذلك اكثر كلامه عليه السلام ، و في بعض النسخ : و قد جاء في رواية أخرى و السبقة الجنة بضم السين ، و السبقة عندهم إسم للسابق اذا سبق من مال او عرض ، و المعنيان متقاربان الان ذلك لا يكون جزاء على فعل الامر المذموم ، و انما يكون جزاء على فعل لامر المحمود .

اللغة

آذنت : اعلمت ، و تضمير الخيل : تعليفها القوت بعد السمن : و البؤس : الشدة و الظعن : السير و الرحيل .

تجهز للسفر : تهيّأ له .

« أما بعد فان الدنيا قد أدبرت و آذنت بوداع » هذه الخطبة في المواعظ و النصائح و التزهيد عن الدنيا و الترغيب إلى الآخرة ، و في الحقيقة الوعظ لا يليق الا للنبي او الامام ، لأن الواعظ يلزم ان يكون متعظا . بأن يعظ نفسه ثم يعظ غيره ، و أن لا يخالف قوله فعله ، و لا لسانه قلبه ، و لا ظاهره باطنه ، و قد كان إمامنا عليه السلام كذلك و فوق ذلك ، انظر الى كلماته في المواعظ و النصائح ، و كلماته القصار في الحكمة و فضائل الاخلاق و غيرها ، ثم انظر إلى حياته المستنيرة من اولها الى آخرها فهل ترى خلافا بين قوله و فعله ؟ او تناقضا بين أوامره و سيرته ؟ او تباينا بين احكامه و أعماله ؟ و بين ارشاداته و اخلاقه ؟

كلا ثم كلا و حاشا ثم حاشا .

يقول عليه السلام : ان الدنيا قد ادبرت اي إنقضت و تنقضي ، فكأنها قد أدبرت ايامها ، و آذنت اي اعلمت و اعلنت الناس بالفراق بفراق كل شيء و فراق كل احد ،

لأنه لا بد من الفراق بين كل حبيبين بفقدان احدهما ، و فراقه عن الآخر ، هذا شأن الدنيا ، و اما الآخرة « و ان الآخرة قد أقبلت و أشرفت باطلاع » لا شك ان القيامة و الآخرة مقبلة الينا يوما بعد يوم ، و ساعة بعد ساعة ، و ان الآخرة تقرب شيئا فشيئا ، فان المسافر اذا كان متوجها الى بلد كلما سار و مشى قرب منه البلد ،

كأنه أقبل اليه ، و أشرفت باطلاع كأنها تنزل من مكان مرتفع إشارة الى سرعة إنقضاء العمر ، و فناء الزمان و سرعة تقلّب أحوالها ،

[180]

و لعل المقصود هو إشراف عالم الآخرة على عالم الدنيا ، اي احاطة عالم البرزخ على هذا العالم .

« ا لا : و إن اليوم المضمار ، و غدا السباق » اشار عليه السلام بكلامه الى السباق المتعارف في ذلك اليوم ، و هو سباق الخيل ، لأن الضامر : الفرس الرقيق البطن ، و الحيوان بل الانسان اذا كان كثير اللحم و كان ثقيل الجثة صعب عليه العدو ، اي الركض ، و بالعكس اذا كان قليل اللحم ، نحيف البدن لا من ضعف و مرض فان الركض يسهل عليه ، فالفرس الذي ينتخب للسباق ينبغي ان يكون ضامرا ، لئلا يعجز عن الركض في السباق ، و اما المضمار فهو الموضع او المدة التي يضمّر فيها الخيل للسباق ، و كيفية التضمير : ان الفرس يعلف اربعين يوما بالعلف فقط ، فيصيبه الاسهال و الهزال ، و بعد إنتهاء المدة يطعم قوته الاول و هو الشعير او غيره ، فعند ذلك يأكل الشعير إلى ان يتقوى ، فتحصل القوة ، و يبقى الهزال ،

و حينئذ يسمى ضامرا .

كل ذلك إستعدادا للمسابقة ، رجاء ان يسبق ، فيفوز بالجائزة و المال الذي جرت عليه المعاملة ، إذا عرفت هذا فاعلم ان الامام عليه السلام يقول : « ا لا و إن اليوم المضمار » يعني ما دام الانسان في الحياة فمدة عمره كمدة التضمير ، اي يتحمل المكاره و الشدائد في الدنيا ليستعد للمسابقة الى رضوان الله تعالى و ثوابه ، كما قال تعالى : و السابقون السابقون اولئك المقرّبون .

« و غدا السباق » اي الآخرة او يوم القيامة ، و قد ورد في القرآن الكريم التعبير عن يوم القيامة ب (غد) كما قال عز و جل : و ما تدري نفس ما ذا تكسب غداً . سيعلمون غداً من الكذّاب الاشر .

اي يوم القيامة السباق و المسابقة ، فمن كان استعداده في الدنيا اكثر بسبب

[181]

التضمير و قطع العلاقات القلبية من غير الله كان في ذلك اليوم اسبق من غيره ،

لان الانسان اذا كان زاهدا في الدنيا و لم يلوت يده بالمشتبهات يقلّ وقوفه في يوم القيامة للمحاكمة ، و الانسان اذا كان غير متورع في حياته ، و لا يبالي الى مطعمه و مشربه و ملبسه و منطقه و سائر اعماله ، و انهمك في الدنيا و ما فيها فانه يطول وقوفه يوم القيامة للحساب و السؤآل عن ماله من اين حصله و اين صرفه ؟ و عن افعاله و اعماله ، و لهذا ورد في الحديث : يدخل الفقراء الجنة قبل الاغنياء بنصف يوم ، و مقدار ذلك خمسمائة عام . فلا شك ان الدين قلت تبعاتهم في هذه الدنيا ،

و لم يتدنسوا بالجنايات و الاجرام يسبقون غيرهم الى الجنة ، فيدخلون الجنة و يتنعمون بنعيمها ، و الناس وقوف في المحشر للمحاكمة .

ذكر عليه السلام الموضع الذي يقصده المتسابقون فقال : « و السبقة بفتح السين الجنة » أي مطاردة الخيل لأجل الوصول إلى السبقة ، و هنا هي الجنة ،

فبعض المتسابقين يصل الى السبقة ، و بعضهم يحرم عن الوصول و يخسر خسارة كثيرة لأنه حرم من الوصول الى المقصد ، و كان مصيره الضرر الفادح و ذلك هو الخسران المبين و هو قوله عليه السلام : « و الغاية النار » ثم ذكرنا سيدنا الرضى بعض محاسن هذا الكلام من وجهة الفصاحة و البلاغة ،

و هو الفرق بين السبقة و الغاية ، فانه لا يصح ان يقال : « و السبقة النار » لانه لا يتسابق احد إلى النار بل و لا الى كل شيء مكروه ، و انما السباق و المسابقة إلى أمر مطلوب محبوب ، و ذكر سيدنا الرضي ايضا : و في بعض النسخ : « و السبقة بضم السين الجنة » لان السباق لا بد و ان يجري على مال او متاع او اي شيء آخر ، و يقاله : « السبقة بضم السين » ، فالمعنى على كلا التقديرين صحيح ان قلنا : إن الجنة سبقة بضم السين او سبقة بفتح السين .

[182]

ثم ندب عليه السلام إلى التوبة ، و هي الرجوع الى الله ، و الاقلاع من الذنب و الندم على الذنب لكونه ذنبا ، و قال الامام عليه السلام في بعض كلماته في غير هذا المقام : التوبة يجمعها ستة اشياء : على الماضي من الذنوب الندامة ،

و للفرائض الاعادة ، و رد المظالم ، و إستحلال الخصوم ، و أن تعزم على ان لا تعود ، و أن تذيب نفسك في طاعة الله كما ربّيتها في معصية الله ، و ان تذيقها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية .

فقال : « أ فلا تائب من خطيئته قبل منيّته ؟ » لأنه التوبة إنما تقبل اذا كانت الحياة باقية موجودة ، فاذا أحس الانسان بالموت و تاب لا يقبل منه التوبة كما قال تعالى : إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، فاولئك يتوب الله عليهم و كان الله علياً حكيماً ، و ليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر احدهم الموت قال : إني تبت الآن ، و الذين يموتون و هم كفار أولئك اعتدنا لهم عذاباً أليماً .

فاذا كانت التوبة لا تقبل عند الموت فبالطريق الأولى لا تقبل بعد الموت ،

لأن اليوم عمل و لا حساب ، و غدا حساب و لا عمل ، و التوبة من جملة الاعمال ثم ندبهم عليه السلام الى العمل للاخرة فقال : « إلا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه ؟ » أي أ لا يوجد من يعمل لأجل تعمير آخرته ، لا آخرة غيره لان نتائج الاعمال تعود الى نفس العامل لها قال عز شأنه : ان احسنتم احسنتم لأنفسكم ، و ان أسأتم فلها لأن يوم القيامة للمطيع التقى يوم نعيم و فرح و سرور ، و للعاصي يوم بؤس ،

و البؤس : الشدة و سوء الحال من الحزن و الضر و الخوف من الحساب و العذاب ،

بخلاف النعمة و الرخاء و الرفاهية .

[183]

ثم قال عليه السلام : « ا لا : و انكم في ايام امل » و في نسخة : « في ايام مهل ،

اي مهلة ، و بناء على الاول فان للامل معاني : منها الرجاء ضد اليأس ، و منها الطلب ، و التأمل و النظر في الشيء للعلم بعاقبتة ، فالمعنى المناسب هنا هو الطلب اي طلب الآخرة بالأعمال الصالحة ، و بناء على النسخة الاخرى . (ايام مهل) فيكون المعنى انه ما دامت الحياة موجودة فالانسان في مهلة يستطيع ان يتوب و ان يصلح ما فسد من اعماله ، لأنه « من ورائه اجل » المقصود من الاجل هو الموت . او النهاية ، لأن الاجل هو الوقت المضروب المحدود في المستقبل فمن عمل في ايام امله قبل حضور اجله فقد نفعه عمله و لم يضره اجله » لا شك ان العامل في الدنيا للآخرة و يحصيل الدرجات في الجنة ينتفع من اعماله ، و لا يبالي بالموت اذا كان مستعدا لما بعد الموت « و من قصّر في ايام امله قبل حضور اجله فقد خسر عمله و ضره اجله » لأن التقصير و التكاسل في ايام الحياة هي خسارة فادحة لا تعوّض ، لأن عمر الانسان رأس ماله ، فاذا صرف رأس ماله في ما يربحه فقد فاز و انتفع ، و اذا صرف رأس ماله في الاعمال التي لا تزيده الا وبالا فانه قد خسر ، و ضره الموت الذي اتاه بغتة ، و يمكن ان يكون المقصود من الامل هو الرجاء لان الانسان انما يزرع للأمل و يبني للأمل و يتزوج للأمل و الفلاح يزرع للأمل و الأم ترضع طفلها للأمل .

« ا لا : فاعملوا في الرغبة كما تعملون في الرهبة » الانسان اذا توجه اليه الخطر خطر الموت او خطر القحط او خطر الغرق بان يرى نفسه في سفينة يتلاعب بها الامواج او غير ذلك من انواع المخاوف كالمرض الشديد و الخوف من العدو القاهر لا بد و انه يظهر الخوف من الله رجاء النجاة و الخلاص مما هو فيه يكون شديد الاخلاص في العبادة و التضرع ، كذلك في وقت الرخاء و الامن ، ينبغي

[184]

ان يرغب العبد الى ربه بالسؤال و طلب الغفران و التوبة كما يسئله في وقت الخوف و الشدة .

« أ لا : و اني لم ار كالجنة نام طالبها ، و لا كالنار نام هاربها » اي من اعجب العجائب من يوقن بالجنة كيف ينام و يغفل عنها ؟ ، و من يوقن بالنار كيف لا يهرب منها ، و لا ينبغي ان ينام طالب الجنة ، و لا الهارب من النار ، فيسعى في تحصيل الجنة و النجاة من النار و ذلك كإنسان امامه منفعة عظيمة ، و ورائه عدو مخوف ، فهذا الانسان ينام عن المنافع العظيمة ، و يغفل عن عدوه ،

و الحال يقتضي ان يسعى و يسرع و يجد و يجتهد في الوصول الى تلك الفوائد ،

و يهرب من العدو و لا ينبغي التقصير عن الطلب و الهرب عنهما .

ثم قال عليه السلام : « ا لا ، و انه من لا ينفعه ، الحق يضره الباطل ، و من لا يستقيم به الهدى يجر به الضلال الى الردى » قد يرى الانسان نفسه بين الحق و الباطل ، فيزعم ان الحق لا ينفعه ، فيلتمس الباطل اي كل من لم ينتفع من الحق لم ينتفع من الباطل بل يضره و كذلك الانسان يظن ان امره لا يستقيم على الهدى و الصلاح ، فان الامر اذا لم يستقم على الهدى يجره الضلال الى الهلاك و الدمار ،

لأن ترك الهدى معناه الانحراف عن سبيل الصلاح و الصراط المستقيم .

ثم قال عليه السلام : « ا لا : و انكم قد أمرتم بالظعن و دللتم على الزاد » هذا واضح بان الانسان سيرحل من هذه الدنيا الى الآخرة ، فلا بقاء لأحد في هذه الدنيا ، و قد امر الله بالزاد كالمسافر الذي يحتاج الى الزاد فقال تعالى :

و تزوّدوا فان خير الزاد التقوى ، لانه أحسن ذخيرة ليوم القيامة ،

ثم المخاوف في الدنيا كثيرة ، و المعاصي و الذنوب التي توصل الى العذاب و العقاب متنوّعة و لكن « و ان أخوف ما اخاف عليكم إتباع الهوى و طول

[185]

الامل » أي اتباع النفس الى ما تميل و تحب و تشتهي ، فلو امعنا النظر لوجدنا جميع المعاصي و الذنوب و الجنايات و الجرائم من اجابة النفس الى ما أرادت .

و أما طول الامل فهو الذي يمنع الانسان عن التوبة ، و يرجيه الحياة و البقاء في هذه الدنيا ، فلا يرعوى من الذنوب ، و لا يؤدي ما اوجب الله عليه بسبب طول أمله بالحياة الدنيا ،

هذه الامور التي مرت هي كمقدمات ، و النتيجة هذه : « فتزودا في الدنيا ما تحرزون به أنفسكم غدا » اي حصّلوا الزاد لانفسكم في هذه الدنيا ، لان الدنيا دار عمل و الآخرة دار حساب شيئا تحفظون انفسكم غدا في القيامة من عذاب الله تعالى و عقابه . و في نسخة : فتزوّدوا في الدنيا من الدنيا . . . الخ و هنا انتهت الخطبة الثامنة و العشرون

الخطبة التاسعة و العشرون

المتن

و من خطبة له عليه السلام :

أيّها النّاس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة أهواؤهم : كلامكم يوهي الصّمّ الصّلاب ، و فعلكم يطمع فيكم الأعداء ، تقولون في المجالس : كيت و كيت . فإذا جاء القتال قلتم : حيدى حياد .

[186]

ما عزّت دعوة من دعاكم ، و لا إستراح قلب من قاساكم ،

أعاليل ، بأضاليل ، دفاع ذي الدّين المطول ، لا يمنع الضّيم الذّليل ، و لا يدرك الحقّ إلاّ بالجدّ .

أيّ دار بعد داركم تمنعون ؟ و مع أيّ إمام بعدي تقاتلون المغرور و الله من غررتموه ،

و من فاز بكم فقد فاز و الله بالسهم الاخيب و من رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل .

أصبحت و الله لا أصدّق قولكم ، و لا أطمع في نصركم ،

و لا أوعد العدوّ بكم ، ما بالكم ؟ ما دواؤكم ؟ ما طبّكم ؟ القوم رجال أمثالكم أقولا بغير علم ، و غفلة من غير ورع ،

و طمعا في غير حقّ ؟ .

اللغة

الصم الصلاب : الاحجار و الصخور المصمتة الصلبة . كيت و كيت كناية عن الأمر يقال : كان من الأمر كيت و كيت ، و حيدى حياد : أي جانبي و أعرضي عنا . و أعاليل : جمع علال جمع علة و هي ما يعتل به و يعتذر ، و أضاليل : جمع أضلال جمع ضلة اي الضلالة ، اي أعاليل باطلة و المطول : مبالغة في المطل و هو التسويف و التعلل في اداء الحق ، و تأخيره من وقت الى وقت . و الضيم : الذل .

و الجد بكسر الجيم الاجتهاد ، و هو خلاف التقصير . و الأفوق : السهم

[187]

المكسور الفوق . و الناصل : الذي لا نصل له و هو حديدة السهم .

المعنى

قد ذكرنا فيما سبق غارتين من الغارات التي شنّها معاوية بن آكلة الاكباد على بلاد أمير المؤمنين عليه السلام و شيعته ، و هذه الغارة الثالثة و هي غارة الضحاك بن قيس عليه لعائن الله و هو كصاحبيه بسر و سفيان بن عوف عميلي معاوية ، و هما اللذان فعلا ما فعلا بالمسلمين قتلا و حرقا و سلبا و نهبا ، و هذا ثالثهم و لعن الله الثلاثة خطب الامام عليه السلام بهذه الخطبة في غارة الضحاك بن قيس ، و هذه الغارة كانت بعد تحكيم الحكمين ، و اليك الواقعة مع رعاية الاختصار :

روى ابن ابي الحديد عن كتاب الغارات لابراهيم بن محمد الثقفي : و هو أن معاوية لما بلغه أن عليا بعد واقعة تحكيم الحكمين تحمل اليه مقبلا توجه اليه هاله أخافه ذلك ، فخرج من دمشق معسكرا ، و بعث الى كور الشام النواحي فصاح فيها : إن عليا قد سار إليكم . و كتب كتابا فقرء عليهم يستنفرهم للخروج و الجهاد . فاجتمع إليه الناس من كل كورة ناحية و أرادوا المسير إلى صفين ، فاستشارهم و قال : إن عليا قد خرج من الكوفة ، و عهد العاهد به أنه فارق النحلة النخيلة فقال حبيب بن مسملة : فاني أرى أن نخرج حتى ننزل منزلنا الذي كنا فيه .

و قال عمرو بن العاص : إني ارى أن تسير بالجنود حتى توغلها في سلطانهم من

[188]

أرض الجزيرة ، فان ذلك أقوى لجندك و أذل لأهل حربك .

و عند ذلك دعا معاوية الضحاك بن قيس الفهري و قال له : سر حتى تمرّ بناحية الكوفة ، و ترفع عنها ما استطعت ، فمن وجدته من الأعراب في طاعة علي فأوغر عليه ، و إن وجدت مسلحة او خيلا فأوغر عليها ، و اذا أصبحت في بلدة فامسى في أخرى ، و لا تقيمن لخيل بلغك انها قد سرّحت إليك لتلقاها فتقاتلها .

فسرّحه معاوية بين ثلثة الاف إلى اربعة الاف ، فأقبل الضحاك فنهب الأموال ، و قتل من لقي من الاعراب ، حتى مر بالتغلبية فأغار على الحاج ،

فأخذ امتعتهم ، ثم اقبل فلقي عمرو بن عميس بن مسعود و هو ابن اخي عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله فقتله في طريق الحاج ، و قتل ناسا من أصحابه ،

فخرج علي عليه السلام الى الناس و هو يقول على المنبر :

يا أهل الكوفة اخرجوا إلى العبد الصالح عمرو بن عميس ، و إلى جيوش لكم قد اصيب منهم طرف آخر ، اخرجوا فقاتلوا عدوكم ، و امنوا حريمكم إن كنتم فاعلين .

فردوا عليهم ردا ضعيفا ، و راى منهم عجزا و فشلا ، فقال : و الله : لوددت أن لي بكل ثمانية منكم رجلا منهم ، ويحكم : اخرجوا معي ثم فروا ما بدا لكم ، فو الله ما اكره لقاء ربي ، على نيّتي و بصيرتي ، و في ذلك روح لي عظيم ، و فرج من مناجاتكم ، و لما رأى تثاقل اصحابه خطبهم بهذه الخطبة فقال عليه السلام :

« ايها الناس المجتمعة أبدانهم المختلفة أهواؤهم » اي المتفرقة ارائهم و افكارهم

[189]

« كلامكم يوهي الصم الصلاب » اي حينما تتكلمون و ترعدون و تبرقون يظن الناس ان فيكم شجاعة و فتوة و إباء و قوة و قدرة ، و لكن « و فعلكم يطمع فيكم الاعداء » لأن افعالكم و اعمالكم تدل على الخلاف و التفرقة و التخاذل فيما بينكم ،

فيطمع العدو فيكم اذا علم منكم التقاعد و التكاسل عن الجهاد .

« تقولون في المجالس : كيت و كيت » أي حينما تحضرون في مجالسكم تقولون :
نغلب عدونا و نقتله ، و ندمر ، و نتصرف في بلاد العدو ، و نحتلها ، و لكن « فاذا جاء الجهاد قلتم : حيدى حياد » كما في المثل : (اسد عليّ و في الحروب نعامة) اي اذا شاهدتم و حضرتم ساحة الحرب و القتال ، اظهرتم الخوف و الفزع ، و قلتم .
حيدي حياد . اي اردتم الفرار و التباعد و المجانبه عن الجهاد ، و اردتم الهرب من الحرب .
« ما عزّت دعوة من دعاكم ، و لا إستراح قلب من قاساكم » اي لستم من أسباب العزة لمن يدعوكم لنصرته ، و لا إستراح قلب من كابدكم و تحمل منكم المشاق من التعب و النصب ،
« اعاليل بأضاليل » اي تتعللون بأشياء و هي أعاليل و علل باطلة ضالة بلا فائدة و لا نفع ، كمن يعتذر عن شيء باعتذار غير صحيح ، هكذا يكون إعتذاركم من عدم النهوض الى حرب العدو ، و لأنكم تسألونني التأخير و المماطلة تارة بالصيف و اخرى بالشتاء « و سألتموني التطويل دفاع ذي الدين المطول » اي كما ان المديون يدافع عن نفسه ، و يماطل و يعتذر بأعذار باطله غير مقبولة ، كذلك انتم هكذا ،
تطلبون و تسألون تأجيل الحرب و تأخيرها إلى أجل غير معلوم « لا يمنع الضيم الذليل » اي الذليل الحقير لا يستطيع ان يمنع الضيم عن نفسه ،
اي انتم لا تتمكون ان تعيشوا أعزّاء إذا لم تدفعوا عن نفسكم العدو ، لأن الحق

[190]

لا يدرك بالباطل و التسويف و المماطلة « و لا يدرك الحق إلا بالجد » اي الاجتهاد و التشمير ، و الاستعداد و الهمة العالية و الحزم و العزم ،
« اي دار بعد داركم تمنعون ؟ » أي اذا لم تحفظوا بلادكم من الغارات التي شنّها عليكم عدوكم ، فأي بلاد تحفظونها من إحتلال العدو الغازي ؟ . « و مع اي امام بعدى تقاتلون ؟ » اي هل تنظرون إماما غيري أفضل مني و اشجع يأتي من بعدي حتى تقاتلون معه عدوكم ؟
« المغرور و الله من غررتموه » المخدوع هو الذي ينخدع بكم ، إذ لا ينبغي ان يقبل من أحدكم المواعيد ، و لا يعتمد على كلام أحدكم ، فلستم من اهل الصدق و الصفاء و المحبة و الوفاء ، « و من رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل » أي كما ان السهم اذا انكسرت حديدته لا ينتفع بها في الحرب ، و لا يستفاد منها للقتل ،
كذلك انتم لا فائدة في ارسالكم الى العدو ، و هذه صفاتكم الذمية ، و اخلاقكم الفاسدة ، « اصبحت و الله لا اصدّق قولكم » و مواعيدكم لكثرة ما شاهدت منكم خلف الوعد و الكذب في القول ، و كذلك « و لا اطمع في نصركم » مع ما أشاهد من تخاذلكم و تكاسلكم و تقاعدكم « و لا اوعد العدو بكم » اذ قد يتفق أن الملك يهدد خصمه بجيش جرار ، و اسلحة و معدات الحرب ، و لكن اذا علم الملك من جيشه الخيانة و عدم الوفاء و الاخلاص ، و مخالفة امره ، و عصيان حكمه ،
لا يستطيع أن يهدد العدو ، و يوعده بجنوده ،
« ما بالكم ؟ » أي ما شأنكم و ما حالكم ؟ « و ما دوائكم ؟ و ما طبّكم ؟ » أي ما علاجكم حتى اداويكم و اعالجكم ؟
« القوم رجال امثالكم » اي انظروا الى جيش معاوية كيف يطيعون أمره و هم رجال أمثالكم ، لا مزية فيهم عليكم ، و لا فرق بينكم و بينهم في الجسم و القوة و الخلق ، فلما ذا لا تطيعون أمري ، و لما ذا تخافون منهم و هم مثلكم ،

ليس لهم سلاح غير سلاحكم ، و لا شجاعة فوق شجاعتكم

[191]

ثم عيّرهم بامور اخرى فقال : « أ قولا بغير علم ؟ » و في نسخة : ا قولا بغير عمل ؟ . أي ما هذا التناقص و التباين في قولكم و فعلكم ، تقولون و لا تعملون ،

و تعدونني النهوض الى الحرب و لا تفون بمواعيدكم .

« و غفلة من غير ورع ؟ » أي هكذا تغفلون عن مصالحكم ، او عن عدوكم ،

و في نسخة : اعفة . . من غير ورع ؟ .

« و طمعا في غير حق ؟ » اي هل تطمعون ان ازيدكم في عطائكم بلا استحقاق ، كأن بعض اصحابه كان ينتظر منه عليه السلام توفير العطاء ، فردّ عليهم ذلك الطمع .

الخطبة الثلاثون

المتن

و من كلام له عليه السلام في معنى قتل عثمان :

لو أمرت به لكنت قاتلا ، أو نهيت عنه لكنت ناصرا ،

غير أنّ من نصره لا يستطيع أن يقول خذله من أنا خير منه .

و من خذله لا يستطيع أن يقول : نصره من هو خير منّي . و أنا جامع لكم أمره : إستأثر فأساء الإثرة و جزعتم فأسأتم الجزع ،

و للّه حكم واقع في المستأثر و الجازع .

اللغة

إستأثر بالمال : انفرد به

كانت واقعة مقتل عثمان من الوقائع التي كثرت تبعاتها ، و اختلفت فالأقوال حولها ، و أريقت الاطنان من الدماء و زهقت مئات الالوف من النفوس لاجلها ، و ثارت الفتن ، و وقعت الحروب ، و تشتت الامور ، و اضطربت الاحوال نتيجة مقتل عثمان و لقد أشترك في مقتله امور كثيرة و اسباب عديدة ، و نجى المرتكب للقتل ،

و إنّهم البريء ، و الاحسن ان نذهب الى قاعة المحكمة محكمة التاريخ ، لننظر الى محاكمة عثمان ، و ننظر الى اضباراته المحفوظة في محفظة التاريخ ، و ان تلاعبت بها الابدى الاثيمة من توجيه اعماله و الاعتذار منها ، و التعليق على صفحات التاريخ ،

فليكن كل هذا ، فان التاريخ الصحيح محفوظ عند المسلمين و غيرهم ، و الامر واضح لا ريب فيه عند كل ذى قلب سليم نستمع الى شيء من تلك الاضبارات لنعلم الاسباب التي اورثت الهياج ضد عثمان ، و نطلع على الواقعة كما هي ، فيظهر لنا البريء من المرتكب لتلك الجريمة نستمع الآن الى بعض الامور التي حدثت في النصف الاخير من ايام خلافته ، فتلك الامور هي التي زرعت الضغائن في قلوب المسلمين ، و الاحقاد في

[193]

صدور المؤمنين و الاستياء العام في عامة الناس .

نحن الآن في قاعة المحكمة ، و قد احضر عثمان ، و جمع كثير من بني امية و جماعة غفيرة من الشهود و لا تسأل عن سائر الناس المتفرّجين المستمعين الى المحاكمة و الآن نستمع الى البيان الذي يلقى قبل الشروع في المحاكمة ، استمع يا صاحبي ، و اجمع فكرك و قلبك :

بسم الله الحكم العدل العقوبات الشرعية التي كانت تقع في ذلك الزمان زمان عثمان ما كانت الا عن اغراض شخصية من الخليفة او بطانته ، و قد امسكت هذه البطانة و هم المرافقون لعثمان زمام عثمان ، فلا يفعل شيئا الا بتعليم من البطانة و ايعاز منهم ، و من اشهر تلك البطانة : الوزغ ابن الوزغ ابن الزرقاء الزانية مروان بن الحكم طريد رسول الله فسلم عثمان اليهم زمام نفسه ، فهو الخليفة اسما ، و هم الخلفاء فعلا و معنى و إرادة .

و من هذه الاضبارة الاولى يا صاحبي ظهرت لنا نفسيّة عثمان و عقليته ،

و كيفية تدبيره أمور الناس ، و كثرة اهتمامه بما يتعلق بالدين . استمع استمع جعل عثمان الوليد بن عقبة بن ابي معيط واليا على الكوفة ، و الوالي في ذلك الزمان هو الشخص الاولى في البلدة ، و عليه المسؤولية التامة تجاه البلدة و أهلها ،

فالوالي هو المتصرف ، مدير الشرطة ، مدير التجنيد ، الحاكم ، مدير المال ، مدير

[194]

المعارف ، امام الجمعة و الجماعة ، و غير ذلك من المناصب الشرعية و العرفية لا تقل : ان هذه الاعمال و التكاليف فوق طاقة رجل واحد ، و ذلك لان الامور ما كانت بهذه التوسعة كهذا الزمان الذي نحن فيه من تقسيم الادارات ،

و كثرة موظفيها ، و قلة مدة الدوام و تأجيل المحاكمات من شهر الى شهر ، و من سنة الى سنة ، و كثرة المحاكم و الحكام و المحامين ، و اختلاف المذاهب ، و تطور القانون ، و التشدد على المراجعين و المترافعين ، و التصعب على ذوي الحاجات و استيفاء الرسوم منهم بعناوين مختلفة بل كان المترافعان يتقدمان الى الوالي الذي تقدم ذكره ، فيستمع الوالي الى كلام المدعي ثم يستمع الى كلام المدعي عليه ، ثم يطالب بالبيّنة من المدعي ،

فان عجز عن الاثبات يطالب الوالي من المنكر اليمين ، و يحكم بحكم الله ، كل ذلك في دقائق سواء كانت الدعوى حول درهم او دينار او دار او عقار ، او مقاطعة او الحقوق المالية او الجزائية ، او كانت الدعوة حول جريمة قتل عمدا أو خطأ ، او سرقة او نهب ، او غير ذلك ، قلّ او كثر ، صغر او كبر ،

لان الحكم كان واضحا معلوما فتجري الاحكام طبق القانون السماوي :

القرآن الحكيم و السنه هذه أهمية تلك الوظيفة الدينية ، و المنصب الروحاني الالهي ، اذن فلا يستحق هذا المقام الشامخ إلا العالم العادل التقي الورع ، العاقل الامين ، الصادق البصير الذي لا يتهم في دينه ، و لم تكن له سابقة سيئة ، و صحيفة سوداء ، و لكن عثمان كان لا يبالي و لا يراعي هذه الجهات و المؤهلات في العامل ، بل يكتفي بوصف واحد يكفيه عن سائر الاوصاف ، و هو القرابة و كون الوالي من بني امية فقط ، و أحدهم الوليد بن عقبة اخو عثمان من امه فلنقرأ إضبارته لنطلع

[195]

على سوابقه و لواحقه منادي المحكمة : المجرم وليد بن عقبة الوليد في قفص الاتهام الادعاء العام :

بعث رسول الله صلى الله عليه و آله الوليد بن عقبة الى بني المصطلق لجمع الصدقات كالجابي ، فرجع الى النبي فأخبره عنهم إنهم ارتدوا ، و أبوا من اداء الصدقة ، و السبب في ذلك أنهم خرجوا اليه فهابهم ، و لم يعرف ما عندهم ،

فانصرف إلى النبي فأخبره بما تقدم ، فبعث النبي خالد بن الوليد للتحقيق و التبيين ، فأخبره خالد انهم متمسّكون بالاسلام . فنزلت هذه الآية في شأن الوليد : ان جائكم فاسق بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين و شهد القرآن شهادة ثانية بفسق هذا الوالي بقوله تعالى : أ فمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون قال سعيد بن جبير : انها نزلت في علي بن ابي طالب و الوليد ، اي شهد القرآن بايمان علي بن ابي طالب و فسق الوليد ، و قد روى المسعودي في مروج الذهب : أن النبي صلى الله عليه و آله أخبر بأن الوليد من اهل النار .

هذا الرجل كان واليا على الكوفة من قبل عثمان ، اما عبادته في الليل فكان يشرب الخمر مع ندمائه و مغنيه و مغنياته من اول الليل الى الصباح ، فاذا طلع الفجر و اذّن المؤذّن للصلاة خرج الرجل من ملهي داره الى المسجد و هو سكران و تقدم في المحراب ليصلي بالمسلمين المساكين صلاة الصبح ، و كانت الخمرة قد لعبت بعقله و مشاعره ، فصلى بهم صلاة الصبح اربع ركعات ، ثم تمثل بهذا البيت

[196]

رافعا صوته ، متغزّلا ببغيّة من بغايا الكوفة :

علق القلب الربابا

بعد ما شابت و شابا

بدلا عن سورة الحمد ، فاذا سجد أطال السجود و قال في سجوده : إشرب فاسقني . عوضا من ذكر السجود ، ثم يرفع رأسه عن السجود ، و يخاطب المأمومين ، و هو في الصلاة قائلا : (أ تريدون ان ازيدكم ؟) فقال له احد من خلفه : ما تريد ؟ لا زادك الله بخير ، و الله ما اعجب الا ممن بعثك الينا واليا ،

و علينا أميرا و قال له عبد الله بن مسعود ما زلنا معك في زيادة منذ اليوم و الى هذا أشار شاعرهم الحطيئة :

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه

ان الوليد احق بالعذر

نادى و قد تمت صلاتهم
أ أزيدكم ؟ سكرا و ما يدري

فأبوا أبا وهب : و لو اذنوا
لقرنت بين الشفع و الوتر

كفوا عنانك اذ جريت و لو
تركوا عنانك لم تزل تجرى

و قال ايضا :

تكلم في الصلاة و زاد فيها
علانية و اعلن بالنفاق

و مجّ الخمر في سنن المصلي
و نادى و الجميع الى افتراق :

أزيدكم على ان تحمدوني ؟
فما لكم و ما لي من خلاق

و هذا الرجل اراد ان يخطب بعد تلك المخازي ، و لكن المسلمين رموه بالحصى حتى نزل ،

و أحد ندمائه الذين كانوا يشاركونه في ملاهيه : ابو زبيد النصراني . . .

منادي المحكمة : المجرم : ابا زبيد النصراني ابا زبيد :

النصراني في قفص الاتهام

الذي كان شرّيب الخمر ، دائم السكر كصاحبه ، فدخل الكوفة ، و كان لعقيل بن ابي طالب دار عند باب مسجد الكوفة ، فاستوهبها الوليد من عقيل ،

و انزل ابا زبيد في تلك الدار ، و هذا شأن كرماء ، بني امية انهم كانوا يهبون ما ينهبون و ما لا يملكون كان هذا النصراني يجعل المسجد طريقا له الى دار الوليد ، فيستمر عنده ،

و يشرب فيسكر ، ثم يشق المسجد متوجها الى داره و من جملة ما كان يستأنس به سيادة الوالي في ملهى داره المجاورة للمسجد :

انه كان رجل ساحر مشعبذ في الكوفة ، يحضر مجلس الوليد ، و يريه الالعاب السحرية ، فيريهم انه يدخل في فم الحمار ، و يخرج من دبره ، و يدخل من إست الحمار و يخرج من فمه ، او يريهم انه يقطع رأس نفسه ، فيرمي بالرأس ثم يركض فيأخذه ثم يعيده الى مكانه فحضر في ذلك المجلس رجل من المسلمين اسمه جندب بن كعب ، و كان له سيف عند الصيقل ، فأخذ السيف و اشتمل به ، ثم جاء الى الساحر و هو مشغول ببعض ألعابه ، فضرب جندب رأس الساحر فسقط الرأس ، و خر الساحر صريعا نظرا لقول النبي صلى الله عليه و آله « ساحر المسلمين

يقتل » و هذا مما نغّص على الوالي عيشته ، فتفرّق اصحاب الوليد من المجلس ، و امر الوليد بحبس جندب و اصحابه ، فقال للسجّان : قد عرفت السبب الذي سجّنا فيه ، فخل سبيل احدنا حتى يأتي عثمان . فخلى السجان سبيل احدهم ، فخرج قاصدا المدينة ، فأخبر عثمان بذلك فكتب كتابا الى الوليد يأمره باطلاق سراح جندب و اصحابه ، و قبل ذلك بلغ الوليد ان السجان اطلق سراح احد المسجونين فقتله و صلبه بالكناسة .

[198]

و في يوم من تلك الايام كان الوليد قد افرط من شرب الخمر ، و حضر الصلاة ، و تقيأ في المحراب ، ثم دخل داره ، فهجم عليه جماعة من المسجد منهم :

ابو زينب بن عوف ، و ابو جندب بن زهير الازديّان و غيرهما ، فوجدوه سكرانا مضطجعا على سريره لا يعقل ، فأيقظوه من رقدته فلم يستيقظ ، بل تقيأ عليهم ما بقي من الخمر في معدته ، فانتزعوا خاتمه من يده ، و خرجوا من فورهم الى المدينة فاتوا عثمان ، فشهدوا عنده ان الوليد شرب الخمر فقال عثمان : و ما يدريكم انه شرب الخمر ؟ اراد عثمان ان يسمع من هؤلاء الشهود جوابا يثبت الجريمة في عنقهم لأن الخمر لا يعرفها الا شاربها ، و لكن الشهود اجابوه بجواب ذكروه ماضي عهده ماضي عهده قالوا : هي الخمرة التي كنا نشربها في الجاهلية و اخرجا خاتم الوليد فدفعاه اليه ، فأغلظ لهما عثمان ، و دفع في صدورهم و قال تنحّيا عني . فخرج الرجلان حتى أتيا امير المؤمنين عليه السلام فاخبراه الخبر ، فاتى عليّ عليه السلام الى عثمان و قال : دفعت الشهود ، و ابطلت الحدود فقال له عثمان ما ترى ؟ قال . ارى ان تبعث الى صاحبك فتحضره ، فإن اقاما الشهادة عليه في وجهه و لم يدل بحجة و لم يدرأ بنفسه اقمت عليه الحد . فبعث عثمان الى الوليد فحضر من الكوفة ، فاقاما الشاهدان الشهادة عليه ، و لم يدل بحجة ، فالقى عثمان السوط الى أمير المؤمنين قائلا . قم يا ابا الحسن فاجلده .

التفت الامام الى رجل في المجلس و قال . قم فاقم عليه ما اوجب الله عليه .

فقال الرجل : ما لك و لهذا ؟ يكفيك غيرك . فقال الامام . لست اذن مسلما .

و لما نظر الامام الى إمتناع الجماعة من اقامة الحد على الوليد توقيا من غضب عثمان لقرابته منه اخذ عليه السلام السوط و اقبل نحو الوليد و دنى منه ، فسبّه

[199]

الوليد ، فسمع عقيل كلامه ، و كان حاضرا فقال : انك تتكلم يابن ابي معيط كأنك لا تدري من انت ؟ و انت علج من اهل صفورية ، كان ذكوان اباه يهوديا .

فاقبل الوليد يروغ يذهب يمنة و يسرة ليهرب خديعة من علي ،

فاجتذبه علي و ضرب به الأرض و علاه بالسوط فقال له عثمان : ليس لك ان تفعل به هذا فقال علي عليه السلام : بلى و شر من هذا إذا فسق . و منع حق الله ان يؤخذ منه .

فقال الوليد : يا علي انشدك الله و القرابة . فقال عليه السلام : اسكت ابا وهب فانما هلك بنو اسرائيل لتعطيلهم الحدود ، و اقام عليه السلام عليه الحد ،

و قيل : الذي اقام عليه الحد هو عبد الله بن جعفر و قيل غيره و الله العالم لنترك إضبارة الوليد و لنرجع إلى إضبارة عثمان لنرى ما هناك ، و لنفتح اضبارة الحكم بن ابي العاصي لنطلع على شيء من شخصيّته . . .

منادي المحكمة : المجرم الحكم بن ابي العاصي ، الحكم :

الحكم في قفص الاتهام الحكم بن ابي العاصي عم عثمان ، و له صحيفة سوداء ملؤها المخازي و المساوىء :

هذا الرجل كان جارا لرسول الله صلى الله عليه و آله بمكة ، و كان من الأشدّاء عليه ، المبالغين في ايذائه ، نظير ابي لهب و ابي جهل ، و لما هاجر رسول الله صلى الله عليه و آله الى المدينة قدم الحكم الى المدينة بعد فتح مكة ، فكان يمرّ خلف رسول الله صلى الله عليه و آله فيغمز به و يحكيه ، و يخلج بأنفه و فمه فاذا صلى النبي قام خلفه فأشار بأصبعه إستهزاء برسول الله و سخرية به و في ذلك اليوم التفت النبي فرآه بتلك الحالة حالة الاستهزاء فقال صلى

[200]

الله عليه و آله : اللهم اجعل به وزغا ارتعاشا فرجف مكانه ، و ارتعش و مكث شهرا يغشى عليه ، و في يوم من تلك الايام اطلع هذا الرجل على رسول الله ،

و هو في بعض حجرات نسائه ، فعرفه النبي ، و خرج اليه بعنزة و قال : من عذيري من هذا الوزغة اللعين ؟ ثم قال : لا يساكنني و لا ولده .

فغربهم جميعا الى الطائف ، و كانوا في الطائف الى ان توفي رسول الله ، و كان يقال له : طريد رسول الله و لعينه ، لأن النبي طرده الى الطائف بعد ان لعنه و لعنه القرآن الكريم بقوله : و الشجرة الملعونة في القرآن . و في تفسير الآلوسي : قالت عائشة لمروان : لعن الله أباك و انت في صلبه ، فانت بعض من لعنه الله ، ثم قالت : و الشجرة الملعونة في القرآن ،

هذه أسطر من إضبارة الحكم بن ابي العاصي عم عثمان ،

و أما ما في إضبارة عثمان في هذا الموضوع و حول هذا الشخص :

لمّا قبض رسول الله صلى الله عليه و آله جاء عثمان إلى ابي بكر ، و سأله أن يرد عمّه إلى المدينة ، فقال ابو بكر : لا احل عقدة عقدها رسول الله ،

فقال عثمان : عمي . قال ابو بكر : عمك في النار ، هيهات هيهات ان اغير شيئا فعله رسول الله و الله لا رددته ابدا .

و لما مات ابو بكر جاء عثمان إلى عمر ، و سأله ذلك ، فأجابه بجواب ابي بكر و زاده و قال : ويحك يا عثمان : تتكلم في لعين رسول الله و طريده و عدو الله و عدوّ رسول الله .

فلما ولي عثمان رده الى المدينة ، و لم يكتف بذلك حتى اعطاه في ذنوب متفرقة 300 000 ثلثمائة الف درهم من بيت مال المسلمين ، فانكر ذلك عليه أعيان الصحابة ، و مات الحكم في ايام خلافة عثمان و صلى عليه و نصب على

[201]

قبره فسطاطا .

عبد الله بن مسعود كان من اصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله المستحفظين معه ، و كان يتعلم منه القرآن ، و ياخذ منه علومه ، و تفسيره و تنزيله و تاويله حتى قال النبي صلى الله عليه و آله في حقه : « من سره ان يقرا القرآن غضا او رطبا كما انزل فليقراه على قرائة ابن ام عبد » و قال أمير المؤمنين عليه السلام في حقه : « علم القرآن و علم السنة ثم انتهى ، و كفى به علما » .

و اجتمع ناس عند علي عليه السلام فأثنوا على عبد الله بن مسعود ، فقال علي عليه السلام : اقول فيه مثل ما قالوا ، و افضل : من قرأ القرآن ، و احل حلاله و حرم حرامه ، فقيه في الدين عالم بالسّنة .

و قال حذيفة بن اليمان و هو يحلف بالله ما اعلم احدا اشبه دلا و هديا برسول الله من حين يخرج من بيته إلى ان يرجع من عبد الله بن مسعود ، و لقد علم المستحفظون من اصحاب محمد صلى الله عليه و آله انه من اقربهم وسيلة اليه يوم القيامة .

و قال ابو نعيم : كان سادس الاسلام ، و صح ان ابن مسعود قال . اخذت من في رسول الله صلى الله عليه و آله سبعين سورة .

هذه نبذة من فضائل الرجل و سوابقه الحسنة ، و اليك بعض مواقفه في الاسلام :

لما هاجر رسول الله صلى الله عليه و آله من مكة الى المدينة ، و صار المسلمون مستضعفين ، كان المشركون يسومونهم اشد العذاب و سوء العقاب ، و في يوم اجتمع اصحاب النبي صلى الله عليه و آله فقالوا : و الله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعهموه ؟

[202]

فقال عبد الله مسعود : انا . فقالوا : انا نخشاهم عليك ، انما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم ان ارادوه .

فقال عبد الله بن مسعود : دعوني فان الله يمنعني . فغدا إبن مسعود حتى اتى المقام في الضحى ، و قريش في أنديتها ، حتى قام عند المقام ثم قرأ رافعا صوته :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الرّحمن علم القرآن ، فجعل يقرأها ، فاجتمع إليه المشركون و تأملوه و قالوا : ما ذا قال ابن ام عبد ؟ ثم قالوا : انه ليتلو بعض ما جاء به محمد فقاموا إليه فجعلوا يضربون في وجهه ، و جعل يقرأ ، حتى بلغ منها ما شاء الله ان يبلغ ، ثم انصرف إلى أصحابه ، و قد اثرو في وجهه ، فقالوا هذا الذي خشينا عليك .

فقال : ما كان أعداؤ الله أهون علي منهم الآن ، و لئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا ، فقالوا : لا حسبك قد اسمعتهم ما يكرهون .

هذا الرجل كان في الكوفة ايام كان الوليد واليا عليها ، و كان خازن بيت المال ، فجاء و القى مفاتيح بيت المال إلى الوليد ، و هو يقول : من غيّر غيّر الله ما به و من بدل اسخط الله عليه ، و ما ارى صاحبكم إلا و قد غير و بدل ا يعزل ،

سعد بن ابي وقاص ، و يولي الوليد ؟

و كان يتكلم بكلام لا بقلبه يدعو و هو : إن اصدق القول كتاب الله و احسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه و آله ، و شر الامور محدثا لثها ، و كل محدث بدعة ،

و كل بدعة ضلالة ، و كل ضلالة في النّار فكتب الوليد إلى عثمان بذلك ، و قال : إنه يعيبك و يطعن عليك ، فكتب اليه عثمان يأمره بإشخاصه ، فاجتمع الناس اليه فقالوا : اقم ، و نحن نمنعك أن يصل اليك شيء تكرهه . فقال : ان له عليّ حق الطاعة ، و لا احب اكون اول من فتح باب الفتن .

[203]

و شيعة أهل الكوفة ، فأوصاهم بتقوى الله و لزوم القرآن ، فقالوا له : جزيت خيرا ، فلقد علّمت جاهلنا ، و ثبّت عالمنا ، و أقرأتنا القرآن ، و فقهّتنا في الدين ،

فنعم اخو الاسلام انت و نعم الخليل . ثم و دعوه و انصرفوا .

و قدم ابن مسعود المدينة و عثمان يخطب على منبر رسول الله صلى الله عليه و آله فلما رآه عثمان قال : الا انه قد قدمت عليكم دويبة سوء من يمشي على طعامه يقيء و يسلح فقال ابن مسعود : لست كذلك ، و لكني صاحب رسول الله يوم بيعة الرضوان .

و نادت عائشة : أي عثمان : أ تقول هذا لصاحب رسول الله ؟ ثم أمر عثمان فأخرج من المسجد اخراجا عنيفا و ضرب به عبد الله بن زمعة الأرض فكسر ضلعا من اضلاعه ، فقال ابن مسعود . قتلني ابن زمعة الكافر بأمر عثمان .

بقي ابن مسعود في المدينة ، و عثمان لا يسمح له بالخروج من المدينة ، و قد قطع عطائه منذ سنتين ، الى أن مرض عبد الله بن مسعود مرضه الذي توفي فيه ، فجائه عثمان يعوده فقال : ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي . قال : فما تشتهي ؟ قال : رحمة ربي . قال الا أدعو لك طبيبا ؟ قال : الطبيب أمرضني . قال . ا فلا آمر لك بعطائك ؟ قال : ؟ قال منعتنيه و انا محتاج اليه ، و تعطينيه و أنا مستغن عنه ؟ قال . تكون لولدك قال : رزقهم على الله . قال : استغفر لي يا ابا عبد الرحمن . قال اسأل الله أن يأخذ منك بحقي .

و اوصى أن لا يصلي عليه عثمان ، فدفن بالبقيع و عثمان لا يعلم ، فلما علم غضب ، فقال له عمار بن ياسر : انه اوصى ان لا تصلي عليه ، و قال ابن الزبير :

لأعرفنك بعد الموت تندبني

و في حياتي ما زودتني زادي

عمار بن ياسر من اعاظم أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله ، و من السابقين

[204]

الى الاسلام و من الذين نالتهم الأذى في سبيل الاسلام ، و ذلك ان جعل مشركو مكة و كفار قريش يعذبون المسلمين بأنواع العذاب ، و منهم ياسر و سمية والدا عمار ، فان المشركين أكرهوهما على رفض الدين الاسلامي ، و التبري من النبي ،

فامتنعا ، فقتلهما المشركون شر قتلة ، ثم قصدوا عمارا ، و عرضوا عليه التبري فأجابهم بلسانه لا يقلبه ، فتركوه ، فنزلت الآية في ايمان عمار بقوله تعالى : الا من اكره و قلبه مطمئن بالايمان .

فقال بعض الناس : ان عمارا كفر . فقال النبي صلى الله عليه و آله . كلا ، ان عمارا ملىء ايمانا من قرنه الى قدمه .

اضف الى ذلك الاحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه و آله في فضل عمار فمنها :

اشتاقت الجنة الى اربعة . علي بن ابي طالب ، و عمار بن ياسر ، و سلمان الفارسي ، و المقداد .

دم عمار و لحمه حرام على النار أن تأكله او تمسه .

ان عمار جلدة ما بين عينيّ و انفي . . .

ما لقريش و لعمار ؟ يدعوهم الى الجنة و يدعونه الى النار ، قاتله و سالبه في النار .

من عادي عمارا عاداه الله ، و من ابغض عمارا أبغضه الله .

انك لن تموت حتى تقتلك الفئة الباغية الناكبة عن الحق ، يكون اخر زادك من الدنيا شربة لبن الى غير ذلك من فضائله و مناقبه ، و مواقفه في الاسلام ،

و جهاده في سبيل الله .

فلنأت الى اضبارة عثمان لنرى صنيعه بهذا الرجل الصحابي العظيم .

[205]

كان في بيت المال بالمدينة سفط فيه حلى و جوهر ، فأخذ منه عثمان ما حلى به بعض أهله فأظهر المسلمون الطعن عليه في ذلك ، و كلموه فيه بكلام شديد ،

حتى اغضبوه ، فخطب فقال . لنأخذن حاجتنا من هذا الفئي و ان رغمت فيه انوف اقوام فقال علي عليه السلام . اذن تمنع من ذلك و يحال بينك و بينه . و قال عمار اشهد أن انفي اول راغم من ذلك .

فسبه عثمان سبا قبيحا ، ثم قال . خذوه فأخذوا عمارا ، فدخل عثمان داره و دعا به فضربه حتى غشي عليه من الفتق الذي اصابه لانه كان شيخا هرما ضعيفا و عمره حوالي التسعين ، ثم طرحوه في الطريق حتى اتى به الى منزل ام سلمة زوجة النبي ، فلم يصل الظهر و العصر و المغرب ، لانه كان مغشيا عليه فلما افاق توضأ و صلى و قال : الحمد لله ، ليس اول يوم اوذينا في الله :

و اخرجت عائشة شعرا من رسول الله و نعله و ثيابا من ثيابه ثم قالت ما اسرع ما تركتم سنة نبيكم .

و قال عمر بن العاص : هذا منبر نبيكم ، و هذا ثيابه و هذا شعره لم يبل فيكم و قد بدلتم و غيرتم ، فغضب عثمان حتى لم يدر ما يقول 1 ابو ذر و عثمان لنا في المستقبل مجال واسع لترجمة حياة سيدنا ابي ذر الغفاري ، و نذكر الآن ما تيسر من قيامه بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر :

ذكر الواقدي : لما رأى ابو ذر عثمان يتصرف في بيت المال كيف ما شاء

———————

(1) البلاذري

جعل ابو ذر يقول بين الناس ، و في الطرقات و الشوارع : « بشّر الكافرين بعذاب اليم ، و يرفع بذلك صوته ، و يتلو قوله تعالى : و الذين يكنزون الذهب و الفضة و لا ينفقونها في سبيل اللّه فبشرهم بعذاب اليم فسمع عثمان ذلك ،

فهدّده و نهاه ، فقال ابو ذر : أ ينهاني عثمان عن قرائة كتاب الله تعالى ، و عيب من ترك امر الله لان ارضي الله بسخط عثمان أحب الي و خير لي من ان اسخط الله برضى عثمان ، فغضب عثمان ، و كان ينتظر الفرصة ، حتى قال عثمان يوما و الناس حوله : أ يجوز للامام ان يأخذ من بيت المال قرضا ، فاذا أيسر قضى ؟

قال كعب الأحبار : لا بأس بذلك .

فقال له ابو ذر : يابن اليهوديين أ تعلمنا ديننا ؟ فقال عثمان : قد كثر أذاك لي . و تولعك بأصحابي ، إلحق بالشام .

خرج ابو ذر الى الشام ، و بقي هناك اياما ، حتى صدرت الارادة العثمانية بإرجاعه الى المدينة ، على بعير بلا وطاء ، و وكّل رجلا يسير به سيرا حثيثا بلا نزول و لا راحة و لا نوم حتى وصل المدينة ، و قد تناثر لحم فخذيه و رجليه ،

ورد ابو ذر الى المدينة بعد تلك الشدائد و المآسي ، و في يوم من تلك دخل على عثمان فقال له عثمان . لا انعم الله بك عينا يا جندب ابو ذر . انا جندب ، و سماني رسول الله صلى الله عليه و آله عبد الله ،

فاخترت إسم رسول الله الذي سماني به على إسمي .

عثمان . انت الذي تزعم انا نقول . يد الله مغلولة ، و ان الله فقير و نحن اغنياء ؟

ابو ذر . لو كنتم لا تقولون هذا لأنفقتم مال الله على عباده ، و لكني اشهد لسمعت رسول الله يقول : اذا بلغ بنو ابي العاص ثلاثين رجلا جعلوا مال الله دولا

و عباد الله خولا . . .

عثمان لمن حضر ا سمعتموها من رسول الله ؟

الحاضرون : لا عثمان . ويلك يا ابا ذر . أ تكذب على رسول الله ؟

ابو ذر . لمن حضر ما تدرون أني صدقت ؟

الحاضرون : لا و الله ما ندري عثمان : ادعوا لي عليا . فجاء أمير المؤمنين عليه السلام فقال عثمان : يا ابا ذر . اقصص عليه حديثك في بني ابي العاص .

ابو ذر يعيد الحديث بمحضر من أمير المؤمنين عثمان : لعلي عليه السلام ا سمعت هذا من رسول الله ؟

الامام : لا ، و صدق ابو ذر عثمان : و كيف عرفت ؟

الامام : اني سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله يقول . ما اظلت الخضراء و لا اقلت الغبراء على ذي لهجة اصدق من ابي ذر .

الحاضرون : اما هذا فسمعناه كلنا من رسول الله ابو ذر : احدثكم اني سمعت هذا من رسول الله فتتّهموني ؟ ما كنت اظن اني اعيش حتى اسمع هذا من اصحاب محمد صلى الله عليه و آله .

و في يوم لما دخل ابو ذر على عثمان جعل يعاتبه .

عثمان : انت الذي فعلت و فعلت . . . .

ابو ذر : نصحتك فاستغششتني ، و نصحت صاحبك معاوية فاستغشني ،

عثمان : كذبت و لكنك تريد الفتنة و تحبها ، فد انغلت الشام علينا .

ابو ذر : اتبع سنة صاحبك ، لا يكن لأحد عليك كلام عثمان : ما لك و ذلك ؟ لا امّ لك ابو ذر : ما وجدت لي عذرا الا الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر عثمان لمن حوله اشيروا عليّ في هذا الشيخ الكذاب ، اما ان اضربه ،

او احبسه ، او اقتله ، فانه فرّق جماعة المسلمين ، او انفيه من ارض الاسلام ؟

أمير المؤمنين : أشير عليك بما قال مؤمن آل فرعون فان يك كاذبا فعليه كذبه ، و ان يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم ، ان الله لا يهدي من هو مسرف مرتاب .

فاجابه عثمان بكلمة قبيحة ، فاجابه أمير المؤمنين بمثلها نهى عثمان المسلمين ان يجالسوا أبا ذر او يكلّموه ، فدخل ابو ذر يوما على عثمان و قال :

ابو ذر : يا عثمان : أ ما رأيت رسول الله و رأيت ابا بكر و عمر هل هديك كهديهم ؟ ا ما انك لتبطش بي بطش جبّار عثمان : اخرج . عنّا من بلادنا .

ابو ذر : ما أبغض الي جوارك ، فالى اين اخرج ؟

عثمان : حيث شئت ابو ذر : اخرج الى الشام ارض الجهاد ؟

عثمان : انا جلبتك من الشام لما قد افسدتها ، فاردك اليها ؟

ابو ذر : فأخرج الى العراق ؟

عثمان : لا ، إنك ان تخرج اليها تقدم على قوم أولي شبه و طعن على الائمة و الولاة

ابو ذر : فاخرج الى مصر ؟

عثمان : لا .

ابو ذر : فالى اين اخرج ؟

عثمان الى البادية ابو ذر اصير : بعد الهجرة اعرابيا ؟

عثمان : نعم .

ابو ذر : فاخرج الى بادية نجد ؟

عثمان : امض لوجهك هذا . و لا تعدون الربذة .

خرج ابو ذر إلى الربذة ، و هي أرض قفراء لا زرع فيها و لا ضرع فماتت اغنامه ، و مات ابنه ، و مات و هو جوعا ، و سيأتيك التفصيل .

و منها احراقه المصاحف إلى مصحف زيد بن ثابت 1 و كان من الممكن لعثمان ان يجمع المصاحف القرائين و يدفنها او يطرحها في البحر او البئر ، و ما كان الطريق منحصرا بالاحراق هذه القضايا التي مرت ، و غيرها مما لم نقصصها هي التي اورثت النقمة و الثورة و الهياج ضد عثمان :

اخرج البلاذري و غيره : انه التقى اهل الأمصار الثلاثة : الكوفة و البصرة و مصر في المسجد الحرام : قبل مقتل عثمان بعام ، فتذاكروا سيرة عثمان و تبديله و تركه الوفاء بما اعطى من نفسه و عاهد الله عليه ، و قالوا : لا يسعنا الرضا بهذا فاجتمع رأيهم على أن يرجع كل واحد من هؤلاء الثلاثة الى مصره و بلده فيكون رسول من شهد اهل مكه من اهل الخلاف على عثمان الى من كان على مثل رأيهم ،

----

(1) تفسير القرطبي

و ان يوافوا عثمان في العام المقبل في داره ، فيسمعوه ، فان اعتب و إلا رأوا رأيهم ،

حضر موسم الحج في العام المعين ، خرج الاشتر مع اهل الكوفة إلى المدينة في مائتين او الف رجل .

و خرج حكيم بن جبلة العبدي في مائة من اهل البصرة ، و جاء أهل مصر و هم اربعمائة او خمسمائة او الف أو الفان ، على اختلاف الروايات ، و كتبوا إلى عثمان مذكرة ، فبعثوها بيد رجل اليه ، فلم يرد عليه شيئا ، و أمر فأخرج من الدار .

أتو المدينة و قصدوا عثمان ، و وثب معهم رجال من اهل المدينة من المهاجرين و الأنصار .

و احاطوا بدار عثمان ، و اتى المغيرة بن شعبة فقال له : دعني آت القوم فانظر ما يريدون ؟ فمضى نحوهم ، فلما دنى منهم صاحوا به . يا أعور : ورائك ،

يا فاجر ورائك ، يا فاسق ورائك .

فرجع ، و دعا عثمان عمرو بن العاص فقال له : ائت القوم فادعهم الى كتاب الله ، و العتبي مما سائهم . فلما دني منهم سلّم عليهم ، فقالوا : لا سلم الله عليك ارجع يا عدوا الله ، ارجع يابن النابغة ، فلست عندنا بأمين و لا مأمون .

فرجع ، فقال ابن عمر و غيره : ليس لهم الا علي بن ابي طالب . فلما اتاه قال يا ابا الحسن ائت هؤلاء القوم فادعهم الى كتاب الله و سنة نبيه قال : نعم ، ان اعطيتني عهد الله و ميثاقه على انك تفى لهم بكل ما ضمنت عنك . قال نعم . فأخذ علي عليه عهد الله و ميثاقه على أؤكد ما يكون و اغلظ ، و خرج الى القوم ،

فقالوا : ورائك .

قال . لا بل امامي ، تعطون كتاب الله ، و تعتبون من كل ما اسخطتم

و عرض عليهم ما بذل عثمان ، فقالوا : ا تضمن ذلك عنه ؟

قال : نعم . قالوا رضينا . و اقبل وجوههم و اشرافهم مع علي حتى دخلوا على عثمان و عاتبوه من كل شيء ، فقالوا : اكتب بهذا كتابا . فكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من عبد الله عثمان أمير المؤمنين لمن نقم عليه من المؤمنين و المسلمين ان لكم أن اعمل فيكم بكتاب الله و سنة نبيه ، يعطى المحروم و يؤمن الخائف ، و يرد المنفي ، و لا تجمر لا تحبس البعوث ، و يوفي الفيئي ،

و علي بن ابي طالب ضمين المؤمنين و المسلمين على عثمان بالوفاء في هذا الكتاب ،

شهد زبير بن العوام ، و طلحة بن عبيد الله و سعيد بن مالك ، و كتب في ذي القعدة سنة خمس و ثلاثين .

فأخذ كل قوم كتابا فانصرفوا ، و قال أمير المؤمنين علي عليه السلام لعثمان اخرج فتكلم كلاما يسمعه الناس و يحملونه عنك ، و اشهد الله ما في قلبك ، فان البلاد قد تمخضت عليك و لا تأمن أن يأتي ركب آخر من الكوفة ، أو من مصر ، فتقول . يا علي اركب اليهم ، فان لم افعل قلت . قطع رحمي ،

و استخف بحقي .

فخرج عثمان فخطب الناس فأقر بما فعل ، فاستغفر الله منه ، و قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله يقول . من زل فليتب ، فانا اول من اتعظ فاذا نزلت فليأتني اشرافكم ، فليردوني برأيهم . . . الخ 1 فسر الناس بخطبته ، و اجتمعوا إلى بابه مبتهجين لما كان منه ، فخرج اليهم مروان فزبرهم ، و قال : شاهت الوجوه ، ما اجتماعكم ؟ أمير المؤمنين مشغول عنكم ، فان احتاج الى احد منكم فسيدعوه ، فانصرفوا 2 كل انسان آخذ

----

(1) البلاذري .

----

(2) الطبرى

باذن صاحبه ، جئتم تريدون ان تنزعوا ملكنا من ايدنا ؟ ، اخرجوا عنا ، اما و الله لئن رمتمونا ليمرّن عليكم منا أمر لا يسركم ارجعوا الى منازلكم ، فانا و الله ما نحن مغلوبين على في ايدينا .

فرجع الناس . و خرج بعضهم الى علي بن ابي طالب فأخبره الخبر فجاء علي مغضبا ، حتى دخل على عثمان فقال : ا ما رضيت من مروان و لا رضي منك الا بتحرفك عن دينك و عن عقلك مثل جمل الضعينة ، يقاد حيث يسار به ،

و الله ما مروان بذي رأي في دينه ، و لا نفسه و ايم الله لأراه سيوردك ثم لا يصدرك ، و ما انا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك ، اذهبت شرفك و غلبت على امرك .

خرج علي من دار عثمان ، و دخلت نائلة زوجة عثمان عليه فقالت : اتكلم او اسكت ؟ فقال . تكلمي . فقالت : قد سمعت قول علي لك ، و انه ليس يعاودك . . . فأرسل الى علي ، فاستصلحه ، فان له قرابة منك ، و هو لا يعصى .

فارسل عثمان الى علي يدعوه ، فأبى علي ان يأتيه ، و قال بصوت عال مغضب قد اعلمته اني لست بعائد .

و بعد ليلتين جاء عثمان الى دار امير المؤمنين عليه السلام فقال . اني غير عائد و اني فاعل . فقال له الامام . بعد ما تكلمت به على منبر رسول الله و اعطيت من نفسك ، ثم دخلت بيتك و خرج مروان الى الناس فشتمهم على بابك ؟ 1 فخرج عثمان مغضبا ،

و اما المصريون الذين اخذوا كتاب عثمان فانهم توجهوا الى مصر ، و لما

----

(1) الطبري و ابن الاثير في الكامل

وصلوا الى ايلة و هي في حدود الحجاز و الشام رأوا راكبا خلفهم يريد مصر ،

فقالوا له من أنت ؟ فقال . رسول أمير المؤمنين عثمان ، الى عبد الله بن سعد ،

و انا غلام أمير المؤمنين . و كان أسود ، فقال بعضهم لبعض . لو أنزلناه و فتشناه أ لا يكون صاحبه قد كتب فينا بشيء ، ففعلوا فلم يجدوا معه شيئا ، فقال بعضهم لبعض . خلوا سبيله . فقال كنانة بن بشر . ا ما و الله دون ان انظر في إداوته فلا . فقالوا . سبحان الله أ يكون كتاب في ماء ؟ قال . ان للناس حيلا ،

ثم حل الاداوة ، فاذا فيها قارورة مختومة ، مضمومة ، في جوف القارورة كتاب في انبوب رصاص ، فاخرجه ، فقرىء ، فاذا هو كتاب من عثمان الى ابن أبي سرح والي مصر .

اما بعد . فاذا أتاك محمد بن أبي بكر و فلان و فلان فاحتل لقتلهم ، أبطل كتاب محمد ، و قرّ على عملك ، فاذا قدم عليك عمرو بن بديل فاضرب عنقه ،

و اقطع أيدي ابن عديس و كنانة و عروة ، ثم دعهم يتشحطون في دمائهم حتى يموتوا ، ثم اوثقهم ، على جذوع النخل 1 فلما عرفوا ما في الكتاب رجعوا عودهم على بدئهم حتى دخلوا المدينة ،

فلقوا عليا بالكتاب فدخل به علي عليه السلام على عثمان ، فحلف بالله ما هو كتابه و لا يعرفه ، و قال : اما الخط فخط كاتبي و اما الخاتم فعلى خاتمي ، فقال علي عليه السلام . ا فالخاتم خاتمك ؟ قال . نعم . قال . فكيف يخرج غلامك ببعيرك بكتاب عليه خاتمك و لا تعلم به ؟ فحلف به . ما كتبت الكتاب و لا امرت به و لا وجهت هذا الغلام الى مصر قط . قال علي . فمن تتهم ؟ قال أتهم كاتبي و اتهمك يا علي لانك مطاع عند القوم و لم تردهم عني . فخرج علي مغضبا و هو يقول . بل هو امرك 2

----

(1) البلاذري .

----

(2) البلاذري

جاء المصريون و حاصروا دار عثمان ، فأشرف عليهم عثمان فقالوا : يا عثمان :

أ هذا كتابك ؟ فجحد و حلف . فقالوا : هذا شر يكتب عنك بما لا تعلمه ؟

ما مثلك يلى امور المسلمين فاختلع من الخلافة . قال عثمان : ما كنت لأنزع قميصا قمّصنيه الله ، و قالت بنو امية : يا علي : افسدت علينا امرنا ، و دسست و البت .

فقال عليه السلام : يا سفهاء : إنكم لتعلمون انه لا ناقة لي في هذا و لا جمل ، و انني رددت اهل مصر عن عثمان ، ثم اصلحت أمره مرة بعد اخرى ، فما حيلتي ؟

و انصرف و هو يقول : اللهم : إني بريئى مما يقولون ، و من دمه ان حدث به حدث .
و كتب عثمان حينما كان محصورا كتابا قرأه ابن الزبير على الناس يقول فيه :
و الله ما كتبت الكتاب ، و لا امرت به ، و لا علمت بقصته و انتم معتبون من كل ما سائكم فأمروا على مصركم من احببتم ، و هذه مفاتيح بيت مالكم فادفعوها الى من شئتم .
قالوا : قد إتهمناك بالكتاب فاعتزلنا .
حاصر الناس عثمان ، و محمد بن ابي بكر يدعوا الناس الى الثورة ، و اعانه على ذلك طلحة ، و عائشة تقرّصه كثيرا ، و لم يبق في المدينة احد الا غضب على عثمان بسبب ذلك الكتاب ، و كانت القلوب مملوؤة غيضا و غضبا على عثمان من سوء صنيعه لابن مسعود و عمار بن ياسر و ابي ذر و غيرهم من صلحاء الصحابه كان دخول امير المؤمنين عليه السلام على عثمان مع طلحة و الزبير و سعد و عمار و نفر من اصحاب النبي صلى الله عليه و آله ، و معهم ذلك الكتاب ، و الغلام و البعير ،
و بعد ان اعترف : ان الغلام غلامه و البعير بعيره ، و الخاتم خاتمه ، و حلف انه

[215]

ما كتب الكتاب و ما امر به . عرف هؤلاء ان الخط خط مروان و الفعل فعله .
فقال المصريون ادفع لنا مروان حتى نبحثه عن الامر ، و نعرف حال الكتاب و كيف يأمر بقتل رجال من أصحاب رسول الله بغير حق ؟ فان يكن عثمان كتب الكتاب عزلناه ، و ان يكن مروان كتبه عن لسان عثمان نظرنا ما يكون منا في امر مروان .
لكن عثمان امتنع أن يدفع اليهم مروان ، فخرج هؤلاء الجماعة من دار عثمان غضابا ، و اشتدت المحاصرة ، و قد اختلف المحدثون و المؤرخون في مدة الحصار ، فقال الواقدي . حاصروه تسعة و اربعين يوما و قيل . شهرين و عشرين يوما او اربعين ليلة ، او شهر و عشرين ليلة او اقل او اكثر ، و لعل الاختلاف ناشيء عن بيان مدة الحصارين او الحصار الأول او الثاني .
و على كل تقدير فلقد كان المتظاهرون محيطين بدار عثمان . محدقين بها و في الايام الاخيرة ضيّقوا عليه الأمر فما كانوا يدعون احدا يدخل و لا احد يخرج ،
لأن عثمان كتب رسائل الى الشام و حمص و غيرهما يطلب منهم الجيوش و العساكر ليقضي على الثوار المجاهدين و اليك بعض رسائله التي ارسلها الى معاوية في الشام ،
كما رواه الطبري في تاريخه :
بسم الله الرحمن الرحيم اما بعد فان اهل المدينة قد كفروا و اخلفوا الطاعة و نكثوا البيعة فابعث اليّ من مقاتلة اهل الشام على كل صعب و ذلول .
و كتب كتابا الى اهل الشام و كتابا الى اهل البصرة و كتابا الى اهل الكوفة و كتابا الى اهل مكة من الحجاج و غيرهم ، و غيرها يستمد منهم الجيش لأخماد

[216]

الثورة ، و يدعوهم الى نصرته و قد قرأت كتابه الى معاوية ، و رأيت كيف ينسب الكفر الى اصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله من المهاجرين و الأنصار كذلك قس عليه سائر كتبه الى اهل الامصار .
تحركت الجيوش و العساكر من الشام و البصرة و غيرهما متوجهين الى المدينة فلما قاربوا المدينة بلغهم خبر مقتل عثمان فرجعوا مظفرين لما دخل المحاصرون دار عثمان ليعاتبوه في موضوع الكتاب الذي وجدوه عند غلامه

على بعيره ، و حلف لهم أنه لا يعلم الكتاب قال له المصريون : فمن كتبه ؟ قال : لا ادري قالوا : أ فيجترأ اعليك فيبعث غلامك و جمل من صدقات المسلمين ، و ينقش خلقك ، و يكتب الى عاملك بهذه الامور العظام و أنت لا تعلم ؟ قال : نعم . قالوا : فليس مثلك يلي ، إخلع نفسك من هذا الامر كما خلعك الله منه . قال . لا أنزع قميصا البسنيه الله عز و جل . و كثرت الاصوات و اللغط فقام المصريون و خرجوا .

و اشتدت المحاصرة بعثمان ، و منع المتجمهرون الناس من ايصال الماء الى دار عثمان ، لأن طلحة قال لهم . ان عثمان ما حضرتموه ، و هو يدخل اليه الطعام و الشراب ، فامنعوه الماء ان يدخل عليه 1 فأشرف عليهم عثمان و سألهم قائلا . ا فيكم علي ؟ قالوا . لا قال . أ فيكم سعد ؟ قالوا . لا . فسكت ، ثم قال . ا لا احد يبلغ عليا فيسقينا ماء ؟

فبلغ ذلك أمير المؤمنين فبعث اليه بثلاث قرب مملوة ماء مع ولديه الحسن و الحسين و غلامه قنبر ، و اراد المتظاهرون ان يمنعوا هؤلاء من ايصال الماء الى عثمان و لكن رعاية لهما اذنوا و سمحوا لهما بالدخول .

----

(1) الامامة و السياسة

بلغ الخبر الى المحاصرين بأن الجيوش و العساكر التي جائت لنصرة عثمان قد قاربوا المدينة ، و لهذا أصبح صباح يوم الجمعة ، و اشعلوا النار في المشاعل ، و توجهوا إلى الدار عثمان ، فاحرقوا الأبواب و اراد الهجوم إلى دار ، و طلحة قد استولى على قيادة المحاصرين 1 و أمّا بنو امية فشمروا و استعدوا للدفاع ، و اشتعل الحرب في الدار ، فقتل جمع من حرس الخليفة ، و جرح مروان بجراح ثقيل ، و ارادوا ذبحه ، لكنهم تركوه ظنا بموته ، غير أنه حمل إلى الدار و عولج و عوفي ، و كان الثوار و المدافعون عن الخليفة بين كرّ و فر .

كانت في جنب دار عثمان دار عمرو بن حزم الأنصاري فلما رأى الأنصارى أن الامر لا ينجح فتح لهم باب داره و نادى الناس فاقبلوا إلى دار الأنصاري و تسلقوا على دار عثمان و دخلوا جوف الدار ، فانهزم اصحاب عثمان هرابا في طرق المدينة ، و بقي عثمان في أهل بيته و بعض غلمانه ، و قتل الغلمان ،

دخل محمد بن أبي بكر على عثمان كما ذكره ابن عساكر فقال محمد : على أي دين أنت يا نعثل ؟ قال : على دين الاسلام ، و لست بنعثل ، و لكنّي أمير المؤمنين ،

قال : غيرت كتاب الله قال : كتاب الله بيني و بينكم .

فتقدم محمد بن ابي بكر و أخذ بلحيته ، و قال : إن الله لا يقبل منا يوم القيامة أن نقول : ربنا انا اطعنا سادتنا و كبرائنا فأضلونا السبيل . و شحطه يده من البيت الى باب الدار و عثمان يقول : يا ابن اخي ما كان أبوك ليأخذ بلحيتي .

دخل عليه كنانة بن بشر هو الذي فتّش غلام عثمان في الطريق فوجد عنده ذلك الكتاب المزبور و ضربه بنصال السهام ، تم علاه بالسيف ، و ضربه سودان بن حمران المرادي بالسيف حتى قتله ، فانا لله و إنا اليه راجعون

----

(1) البلاذري

و اما عمرو بن الحمق فوثب على عثمان فجلس على صدره و به رمق فطعنه تسع طعنات ، و قال : اما ثلاث منهن فاني طعنتهن لله ، و أما ست فاني طعنت إياهم لما كان في صدري عليه .

و اقبل عمير بن ضابىء فكسر ضلعا من اضلاعه ، و قال : سجنت ضائبا ابى حتى مات في السجن ، و ارادا قطع راسه فالقت زوجتاه بنفسهما عليه ، فقال ابن عديس : اتركوه . فتركوه .

و ذكر الحلبي : إن عثمان القي على المزبلة ثلاثة ايام ، و قيل اغلق عليه بابه بعد قتله ثلاثة ايام ، لا يستطيع احد ان يدفنه ، ثم حملوه على باب ، و ان رأسه ليقول طق طق . من سرعة السير و أرادوا دفنه في حش كوكب ، و كانت اليهود تدفن فيه موتاهم 1 و قال ابن ابي الحديد لم يغسل و كفن في ثيابه .

و قال الطبري : ان الذين تولوا تجهيزه كانوا خمسة او ستة .

هذه جملات مقتطفة من إضبارة عثمان المحفوظة في محفظة التاريخ ، و لقد اطلعنا على افعال عثمان ، و عرفنا الأسباب التي سببت قتله ، و ثارت العواطف في اهل المدينة ، و سائر البلاد الاسلامية ، و قد ظهر لنا ان طلحة كان مستوليا على الثوار و كذا الدعايات التي قامت بها عائشة ضد عثمان .

و اليكم قرار المحكمة محكمة التاريخ ، محكمة العدالة الإسلامية ، محكة الضمير الحر المسلم :

بسم الله الحكم العدل لقد ثبت ان اعمال عثمان ، و عدم اهتمامه بالولاة و المتصرفين الذين

----

(1) الطبري

[219]

كان يسلطهم على دماء الناس و اموالهم و تصرفه في بيت المال بما شاء ، و بذله تلك الاموال لاقاربه و حاشيته الفاسدة ، تلك الاموال التي بلغت اربعة ملايين و ثلاثمائة و عشرة الاف دينار ، و مائة و ستة و عشرين مليون و سبعمائة و سبعين الف درهم . و ضربه عمارا و ابن مسعود ، و تسفيره ابا ذر ، و شتمه صلحاء الصحابة . و اخيرا ذلك الكتاب الذي وجدوه عند غلامه الى والي مصر . و غير ذلك كلها اشتركت في قتل عثمان و اما الافراد الذين وقعت الواقعة من سوء سياستهم فهو مروان و اشباهه .

و اما الذي دافع عن عثمان . و نصحه و دفع عنه الشر فهو الامام أمير المؤمنين علي ابن ابي طالب و هو برىء من دم عثمان كل البرائة .

و كل من نسب قتل عثمان الى أمير المؤمنين علي بن ابي طالب فهو إما جاهل بالتاريخ ، او معاند ، تحت اغلال التقليد الباطل و العصبيّة العمياء .

الى هنا انتهت المحاكمة ، و رجع المتهمون الى مكانهم الذي كانوا فيه .

و اما شرح الخطبة و معناها : فيقول عليه السلام .

« لو امرت به لكنت قاتلا » يدفع الامام عليه السلام عن نفسه تهمة قتل عثمان ، فيقول لو كنت آمرا لقتل عثمان لكنت المباشر للقتل ، بلا خوف من أحد ، كما قتلت صناديد العرب و شجعان قريش مع رسول الله صلى الله عليه و آله لأن الله فوق كل شيء ، و هو أحق بالخشية منه او نهيت عنه لكنت ناصرا » اي كما اني ما امرت بقتل عثمان كذلك ما نهيت عن قتله ، لأن قتله إن كان حراما لوجب علي ان انصره ، فلو وجب عليّ النهي عن قتله لوجب عليّ الدفاع عنه و النصرة له ، و يستفاد من الجملة الأولى انه عليه السلام ما امر بقتل عثمان لما كان يعلم من المفاسد التي تترتب على قتله ، و المستفاد من الجملة الثاني . انه عليه

[220]

السلام ما نهى عن قتله لعلمه ان كلامه لا تأثير له في المتظاهرين و الثوار ، و خاصته بعد ان ظفروا بذلك الكتاب الموجه الى والي مصر ، و قد تقدم ذكره ، و يمكن أن نقول : ان الامام عليه السلام إنما لم ينه الناس عن

قتل عثمان لأنه كان يراهم محقين ، لأن عثمان انما صار خليفة بشروط . و هي العمل بكتاب الله و سنة النبي و سيرة الشيخين . و الاعمال التي صدرت منه كانت مخالفة صريحة للقرآن و للسنة ،

و للسيرة ايضا ، و قد عرفت بعض تلك الاعمال ، و لما عرضوا عليه ان يستقيل عن الخلافة ، و يخلع نفسه . قال . لا انزع قميصا ألبسنيه الله . فعند ذلك ذهبت عنه حرمة الخلافة ، و لم يبق للبيعة وزن ، فيكون كحال الناس ، و الافعال التي صدرت عنه عمّت العباد و البلاد فسادا كما عرفت .

ثم قال عليه السلام . « غير أن من نصره لا يستطيع أن يقول : خذله من انا خير منه » اي الذين نصروا عثمان و دافعوا عنه لا يستطيعون ان يقولون .

نحن خير من الذين خذلوا عثمان ، لأن الناصرين لعثمان كانوا فساقا مثل مروان ابن الحكم و اشباهه ، و الذين خذلون عثمان و لم ينصروه هم المهاجرون و الأنصار و لا نستطيع ان نقول . ان المهاجرين و الانصار كانوا على الضلالة و الباطل ، و ان ابن الزرقاء الزانية كان على الحق « و من خذله لا يستطيع ان يقول : نصره من هو خير مني » و معنى الجملتين . ان الخاذلين و التاركين لنصرة عثمان كانوا خير من الناصرين له ، و لا يمكن ان يقول الناصرون . انهم خير من الخاذلين و لا يستطيع الخاذلون ان يقولوا : ان الناصرين لعثمان خير منهم .

ثم قال عليه السلام . « و انا جامع لكم امره » اي مبيّن لكم شأنه بكلام موجز قليل اللفظ كثير المعنى . « استأثر فأساء الاثرة » اي استبد برأيه في كل شيء من الامور ، و أساء في الاستبداد و الدكتاتوريّة لأنه استبد في تولية الولاة ،

[221]

و التصرف في بيت مال المسلمين ، و سائر الاعمال التي هيّجت عامة القلوب عليه ،

فآل امره الى القتل ، « و جزعتم فأسأتم الجزع » الخطاب موجه الى المسلمين الثوار إذ انهم لم يرضوا بأعماله ، فثاروا عليه فقتلوه ، و كان من المناسب ان يثوروا عليه قبل ذلك ، و ينهوه عن اعماله في اوائل الأمر ، حتى لا ينجر الامر الى ما صار .

« و لله حكم واقع في المستأثر و الجازع » اي . لله حكم ثابت محقق ، يحكم به في الآخرة في حق عثمان و قاتليه ، و لا يخفى ما في هذه الكلمات من الايجاز و الابهام ، و الاشارة و التلويح ، على العارف الفطن الذكي .

و هنا انتهت الخطبة الثلاثون

الخطبة الحادية و الثلاثون

المتن

و من كلام له عليه السلام :

لمّا أنفذ عبد الله بن العبّاس إلى الزّبير قبل وقوع الحرب يوم الجمل ليستفيئه إلى طاعته :

لا تلقينّ طلحة فإنّك إن تلقه تجده كالثّور ، عاقصا قرنه ،

يركب الصّعب و يقول : هو الذّلول ، و لكن ألق الزّبير فإنّه ألين

[222]

عريكة ، فقل له : يقول لك إبن خالك : عرفتني بالحجاز ،

و أنكرتني بالعراق فما عدا ممّا بدا ؟ قال الرضى رحمه الله : و هو عليه السلام أول من سمعت منه هذه الكلمة أعني :

فما عدا مما بدا .

اللغة

يستفيئه : يطلب منه الرجوع إلى البيعة ، و القرن العاقص : الملتوي .

الصعب : البعير الذي لا ينقاد ، و الذلول : عكسه . و العريكة : الطبيعة .

المعنى

لقد ذكرنا في الجزء الأول بعض المراسلات التي جرت بين الامام أمير المؤمنين عليه السلام و بين اولئك الثلاثة : عائشة و طلحة و الزبير ، و حيث ان الزبير كان ابن صفية بنت عبد المطلب ، عمة الامام أمير المؤمنين عليه السلام ، فكان ابو طالب خال الزبير ، فأمير المؤمنين ابن خاله و هو ابن عمته ، أضف الى ذلك أن الزبير كان من حزب علي عليه السلام من يوم وفاة رسول الله صلى الله عليه و آله كما ذكرنا في قضايا السقيفة ، إلى يوم الشورى حيث وهب حقه من الشورى لابن خاله أمير المؤمنين عليه السلام ، تقوية لجانبه ، و هو الشخص الثاني الذي بايع أمير

[223]

المؤمنين عليه السلام بعد مقتل عثمان ، فكان من حزب علي المدافعين عنه ، الناصرين له ، و لكن ابنه المشؤم عبد الله هو الذي استولى على ابيه و انحرف به عن الطريق كما قال الامام : ما زال الزبير منا أهل البيت حتى شب ابنه عبد الله . علاوة على ذلك كان الزبير ممن قاتل مع رسول الله ، فخرج و هو غلام يسعى بسيفه مشهورا .

قال عليه السلام لابن عباس : « لا تلقين طلحة ، فاتك ان تلقه تجده كالثور عاقصا قرنه ، يركب الصعب و يقول : هو الذلول . » نهى الامام عليه السلام ابن عباس انى يلقي طلحة ، فأخبر انه كالثور الملتوي قرنه ، او الثور الذي يرخى رأسه و يطأطأه ، فيعقص قرنيه استعدادا للخصومة و المحاربة ، و هذا اشارة الى استعداده للشر بجميع معنى الكلمة ، و أما قوله عليه السلام : يركب الصعب و يقول : هو الذلول ، فمعناه الاستهانة بالامور المستصعبة ، و التهور في الاقدام و المجازفة في الاعمال ، و شراسة الاخلاق و امثال هذا الشخص لا ينفع معه الكلام لغروره ، و اعجابه بنفسه و اعتماده عليها ، و لهذا نهى أمير المؤمنين عليه السلام ابن عباس ان يتفاهم مع طلحة ، و امره أن يلقي الزبير ، فقال له : « و لكن الق الزبير ، فانه الين عريكة » لأنه امكن التفاهم معه لأنه لين الطبيعة و الجانب ،

ينفع معه الكلام ، كما روى ابن ابي الحديد عن فروة بن الحرث قال : كنت فيمن اعتزل عن الحرب بوادي السباع مع الاحنف بن قيس ، و خرج ابن عم لي يقال له : الجون . مع عسكر البصرة ، فنهيته ، فقال : لا أرغب بنفسي عن نصرة ام المؤمنين و حواري رسول الله .

فخرج معهم ، فاني لجالس مع الأحنف ، يستنبيء الأخبار ، اذا بالجون بن قتادة ابن عمي مقبلا ، فقمت اليه و اعتنقته و سألته عن الخبر ، فقال : اخبرك العجب : خرجت و انا لا اريد ان ابرح الحرب ، حتى يحكم الله بين الفريقين ،

[224]

فبينا انا واقف مع الزبير اذ جائه رجل فقال :

ابشر ايها الامير ، ان عليا لما رأى ما اعد الله له من هذا الجمع نكص على عقبية و تفرق عنه اصحابه و اتاه آخر فقال له الزبير : ويحكم ابو حسن يرجع ؟ و الله لو لم يجد الا العرفج لدبّ الينا فيه . ثم اقبل رجل فقال : ايها الامير : ان نفرا من اصحاب علي فارقوه ليدخلوا معنا ، منهم عمار بن ياسر . فقال الزبير : كلا و رب الكعبة ، ان عمارا لا يفارقه ابدا . فقال الرجل : بلى و الله . مرارا ، فلما رأى الزبير ان الرجل ليس براجع عن قوله بعث معه رجلا آخر و قال : اذهبا فانظرا . فعادا و قال : عمار قد اتاك رسولا من عند صاحبه . قال جون : فسمعت و الله الزبير يقول : وا إنقطاع ظهراه ، و اجدع انفاه ، و اسواد وجهاه ، يكرّر ذلك مرارا ، ثم اخذته رعدة شديدة ، فقلت :

و الله ان الزبير ليس بجبان ، و انه لمن فرسان قريش المذكورين ، ان لهذا الكلام لشأنا و لا اريد ان اشهد مشهدا يقول اميره هذه المقالة ، فرجعت اليكم . . . الخ قال عليه السلام لابن عباس « فقل له : يقول لك ابن خالك » اي الامام نفسه ، و انما قال : ابن خالك و لم يقل يقول لك علي او أمير المؤمنين أو ابو الحسن لما في هذه الكلمة من الاستمالة و الاذكار بالنسب و الرحم ، و لا يخفى ما فيها من الملاطفة ، و التأثير في القلب و النفس .

« عرفتني بالحجاز و انكرتني بالعراق » اي كنت تعرف مكانتي و مقامي و فضائلي حينما كنت في المدينة ، و لهذا جردت سيفك يوم هجم القوم على داري ليأخذوني الى بيعة ابي بكر ، و وهبت حقك من الشورى لي في يوم الشورى ،

و كنت ثاني من بايعني ، هذه اعمالك لي في المدينة ، و الآن خرجت الى البصرة مستعدا لقتالي كانك لم تعرفني ، و لم تعرف لي شيئا من مؤهلات الخلافة « فما

عدا مما بدا » أي ما جاوز بك عن بيعتي مما بدا و ظهر لك من تلك الأمور ؟ ؟

أو ما الذي صدك و منعك عن طاعتي بعد اظهارك لها و ما الذي صرفك عن إعتقادك السابق ؟

و قد روى الزبير بن بكار في الموفقيات قال : لما سار علي عليه السلام إلى البصرة بعث ابن عباس فقال له ائت الزبير فاقرأ عليه السلام و قل له : يا ابا عبد الله كيف عرفتنا بالمدينة و انكرتنا بالبصرة .

قال ابن عباس : أ فلا اتي طلحة قال : لا ؟ اذن تجده عاقصا قرنه في حزن يقول : هذا سهل . فأتيت الزبير فوجدته في بيت يتروح في يوم حار و عبد الله إبنه عنده فقال : مرحبا بك يا ابن لبابة جئت زائرا ام سفيرا قلت : كلا ، ان ابن خالك يقرأ عليك السلام و يقول لك : يا ابا عبد الله كيف عرفتنا بالمدينة و انكرتنا بالبصرة فقال : علقتهم أني خلفت عصبة قتادة تعلقت بنشبة لن ادعهم حتى اؤلف بينهم .

قال ابن عباس : فاردت منه جوابا غير ذلك فقال لي ابنه قل له بيننا و بينك دم خليفة ، و وصي خليفة ، و اجتماع اثنين و انفراد واحد و ام مبرورة و مشاورة العشيرة . قال ابن عباس فعلمت انه ليس وراء هذا الكلام الا الحرب فرجعت إلى علي عليه السلام فأخبرته .

و روي عن ابن عباس قال اتيت الزبير فقلت له ، فقال لي قل له اي لعلي عليه السلام اني اريد ما تريد . كأنه يقول : الملك . فلم يزدني على ذلك فرجعت إلى علي فأخبرته .

و هنا انتهت الخطبة الحادية و الثلاثون

الخطبة الثانية و الثلاثون

و من خطبة له عليه السلام :

أيّها النّاس : إنّا قد أصبحنا في دهر عنود ، و زمن كنود ،

يعدّ فيه المحسن مسيئا ، و يزداد الظّالم فيه عتوّا ، لا تنتفع بما عملنا ، و لا نسأل عمّا جهلنا ، و لا نتخوّف قارعة حتّى تحلّ بنا .

فالنّاس على أربعة أصناف :

منهم من لا يمنعه الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه ، و كلالة حدّه ، و نضيض وفره .

و منهم المصلت لسيفه ، و المعلن بشرّه ، و المجلب بخيله و رجله ، قد أشرط نفسه ، و أوبق دينه ، لحطام ينتهزه ، أو مقنب يقوده ، أو منبر يفرعه ، و لبئس المتجر أن ترى الدّنيا لنفسك

[227]

ثمنا ، و ممّا لك عند الله عوضا .

و منهم من يطلب الدّنيا بعمل الآخرة ، و لا يطلب الآخرة بعمل الدّنيا ، قد طأمن من شخصه ، و قارب من خطوه ، و شمّر من ثوبه ، و زخرف من نفسه للأمانة ، و اتّخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية .

و منهم من أقعده عن طلب الملك ضؤولة نفسه ، و إنقطاع سببه ،

فقصّرته الحال على حاله ، فتحلّى باسم القناعة ، و تزيّن بلباس أهل الزّهادة ، و ليس من ذلك في مراح و لا مغدى .

و بقي رجال غضّ أبصارهم ذكر المرجع ، و أراق دموعهم خوف المحشر ، فهم بين شريد نادّ ، و خائف مقموع ، و ساكت مكعوم و داع مخلص ، و ثكلان موجع ، قد أخملتهم التّقيّة ،

و شملتهم الذّلّة ، فهم في بحر أجاج ، أفواههم ضامزة و قلوبهم قرحة ، قد وعظوا حتّى ملّوا ، و قهروا حتّى ذلّوا ، و قتلوا حتّى قلّوا .

[228]

فلتكن الدّنيا في أعينكم أصغر من حثالة القراظ (القرظ خ ل) و قراضة الجلم ، و اتّعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتّعظ بكم من بعدكم ، و ارفضوها ذميمة ، فإنّها قد رفضت من كان أشغف بها منكم . قال الرضى رحمه الله : اقول : هذه الخطبة ربما نسبها من لا علم له الى معاوية و هي من كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي لا يشك فيه . و اين الذهب من الرغام ، و العذب من الاجاج ؟ و قد دل على ذلك الدليل الخريت ، و نقدّه الناقد البصير عمرو بن بحر الجاحظ ، فانه ذكر هذه الخطبة في كتاب البيان و التبيين و ذكر من نسبها الى معاوية ، ثم قال : هي بكلام علي عليه السلام اشبه ،

و بمذهبه في تصنيف الناس و بالاخبار عما هم عليه من القهر و الاذلال و من التقية و الخوف أليق ، قال : و متى وجدنا معاوية في حال من الاحوال يسلك في كلامه مسلك الزهاد و مذاهب العبّاد .

العتوّ : التّكبر و التجاوز عن الحد . و المهانة : الذل . و كلّ السيف : اذا لم يقطع ، و نضيض وفره : قلة ما له . و اصلت سيفه : جرّده . و اشرط نفسه :

اعدّها للفساد في الأرض . و حطام الدنيا . متاعها . و الانتهاز . الاغتنام و المقنب بكسر الميم ما بين الثلاثين و الاربعين من الخيل . و يفرعه . يعلوه . و طأمن ظهره

[229]

اذا حنّاه و خفضه و ضؤلة بفتح الضاد . الحقارة . و المراح . المأوى بالليل . و الناد .

المنفرد . و المقموع . المغلوب . كعمت البعير . اذا شددت فاه لئلا يأكل .

و الضابزة . الساكنة ، و القرظ بفتح القاف و الراء ورق يدبغ به الجلد و الجلم بفتح الجيم و اللام المقص او المقراض الذي يجز به اوبار الابل . . .

المعنى

ايها الناس انا قد اصبحنا في دهر عنود و زمن شديد » و في نسخة . زمن كنود . إسناد الخير و الشر الى الزمان انما هو باعتبار وقوعهما فيه ، كالغلاء و الرخص ، و العدالة و الظلم ، و العلم و الجهل ، و لهذا ترى القرآن الكريم يسند الجهل الى زمان قبل الاسلام ، باعتبار كثرة الجهل و الجاهلين ، و في اليوم الحاضر ينسب العلم و التقدم الى الزمان فيقال . عصر النور ، عصر الحضارة و التمدن و هكذا ، فالدهر العنود هو الزمان الذي مال عن الاعتدال ، إعتدال كل شيء و بيان ذلك .

« يعد فيه المحسن مسيئا ، و يزداد الظالم عتوا » لما انتشر الباطل و الضلالة بين الناس و ضعف الحق و اهله ، و غلب الظلم و الجور على المجتمع تغيرت الاشياء و انقلبت ،

فصار الحسن قبيحا و القبيح حسنا ، فصار المحسن و هو كل من احسن بيده و لسانه و ماله مسيئا ، و اظهر المصاديق في هذا الزمان هو الآمر بالمعروف و الناهي عن المنكر ، فانك ترى الامر بالمعروف الذي احسن الى الناس و ارشدهم و نبّههم و اوقظهم ، و حرص على سلامة دينهم و اعراضهم و شرفهم قد اسند اليه الرجعية تارة و سائر الكلمات القبيحة اخرى .

[230]

ثم الظالم و هو الذي يظلم الناس حقوقهم و اموالهم و كل ما عندهم ينبغي ان يكون خجلا منفعلا من اعماله ، مستحيا من جرائمه و جناياته و لكن بالعكس تراه يزداد تجبرا و تكبرا يوما بعد يوم ، فهل الظلم يمنح الظالم هذا الوسام . و هو و سام الجبروت و الطغيان ؟

« لا ننتفع بما علمنا ، و لا نسأل عما جهلنا ، و لا نتخوف قارعة حتى تحل بنا » هذه نتائج الغفلة ، او ثمرات العجب و الرضا بالنفس ، و هذا الكلام و ان كان بصيغة المتكلم ظاهرا ، و لكن الواقع هو الاخبار عن حال الناس او طائفة مخصوصة ، و الا فلا يتصور ان يكون أمير المؤمنين عليه الصلاة و السلام موصوفا بهذه الأوصاف ،

و الاوصاف . علم بلا عمل ، اي عدم الانتفاع بالمعلومات الموجودة ، كالطبيب يمترض و لا يعالج نفسه و هو يعرف العلاج ، و الرجل الفنان يتحمل الفقر و لا يستفيد من فنونه و علومه ، و كذلك المسلم المؤمن يعلم ما اوجب الله تعالى عليه من التكاليف فلا يعمل ، او جهل مطبق مخيم عليه ، فيستنكف ان يسأل ، و يبقى على جهله و تقصيره فتارة يقع في الحرام و لا يستطيع الخروج ، و لا خلاص و لا مناص ، أو تستولي الغفلة عليه ، فلا يخاف من المصائب و البلايا الى ان تجري عليه ، مثلا .

نرى دار الظالم قد صارت خرابا و لا نخاف من الظلم ، نرى ذلك الذي قطع رحمه قد قصر عمره فلا نصل ارحامنا ، نرى الزاني آل امره الى الفقر ، و اللائط الى العمى ، و المسرف و المترف الى زوال النعمة ، فلا نعتبر ، و لا نخاف و لا نزال نستمر على المعاصي حتى ينزل علينا العذاب ، فعند ذلك لا ينفع الندامة ثم ان الامام امير المؤمنين عليه السلام قسّم الناس على خمسة اصناف فقال :

[231]

« الناس على اربعة اصناف » الصنف الاول « منهم من لا يمنعه الفساد في الارض الا مهانة نفسه » حيث ان الظلم كمين في كل احد ، فاذا حصلت القوة ظهر الظلم ،

و اذا حصل العجز خفي الظلم ، كذلك سائر المعاصي ، فترى بعض الناس يخاف من الظلم لحقارة نفسه ، « و كلالة حده » أي عجزه « و نضيض وفره » اي فقره و قلة ماله .

و الصنف الثاني . « و منهم المصلت لسيفه » و هو الذي يريد الاستيلاء و السلطة على الناس بالقوة و القدرة ، فيشهر سيفه استعدادا لاراقة الدماء « و المعلن بشره ،

و المجلب بخيله و رجله » اي العصابة و الجماعة من الهمج ، و أذناب الاقوياء الظالمين ،

« قد اشرط نفسه » و اعدها للفساد في الارض فساد كل شيء ، فساد الاخلاق و غير الاخلاق « ، و اوبق دينه » اي ضيع دينه و اهلكه ، لما ذا ؟ « لحطام ينتهزه » اي لمتاع الدنيا يغتنمه لاجل الدنيا ، و لكنه يبيع آخرته ، مثلا . صاحب المقهى يهيّأ في محله آلات القمار و سائر المنكرات جلبا لاموال الناس ، جلبا لحطام الدنيا فيشتري الدنيا و يبيع الدين و الآخرة ، و تارة يكون هلاك الدين و ضياعه بأمور اخرى « او مقنب يقوده او منبر يفرعه » اي للرياسة و السيادة ، بالخيالة يقودها للغزو و النهب و الحرب او منبر الامارة و الخلافة يصعده و يعلوه ، او يعلو اسمه على المنابر و يهتف باسمه للخلافة و الرئاسة و الملك و السلطنة « و لبئس المتجر ان ترى الدنيا لنفسك ثمنا » اي بئست التجارة ان الشخص يبيع نفسه بالدنيا ، و يجعل ثمن نفسه حطام الدنيا ، مع العلم ان ثمن المؤمن الاخرة ، و ثواب الله و الدرجات العالية في الجنة ، « و مما لك عند الله عوضا » ان الانسان يكون عوضه من الله في الدنيا فقط ، و لا يكون له آخرة ، كما قال تعالى . من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً

[232]

و الصنف الثالث « و منهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ، و لا يطلب الآخرة بعمل الدنيا » و هو المرائي المحتال ، الذي يتظاهر بالصلاح و الزهادة جلبا لقلوب الناس إليه لأغراضه الشخصية الدنيوية ، فانه يطلب الدنيا بعمل الآخرة و هو الزهادة و العبادة ، و لكن المسكين لا يطلب الآخرة و الجنة بالعمل في الدنيا ، و لا شك أن الذي يريد جلب القلوب إلى نفسه لا بد و ان يتواضع لكل احد « قد طأمن من شخصه » و هو الانحناء للناس أمامهم او « و قارب من خطوه » اي يمشي على وقار و سكينة ، و متانة و رزانة ، « و شمر من ثوبه » أي قصر ثيابه إحترازا عن النجاسة و إظهارا للطهارة بزعمه « و زخرف نفسه » اي زينها بزينة عباد الله الصالحين ،

فالقرآن تحت ابطه و السبحة بيده يديرها متمتما بلسانه ، « و اتخذ ستر الله ذريعة الى المعصية » كل ذلك ليرغب إليه الناس ، و يطمئنوا به ، و يعظم قدره عندهم ،

و أحسن مثال و أظهر مصداق للرجل المرائي الذي يطلب الدنيا بعمل الآخرة هو عبد الله بن الزبير ، فانه لما مات معاوية و استولى يزيد على الخلافة ، رشح ابن الزبير نفسه للخلافة ، و هرب من المدينة الى مكة ، و لزم جانب الكعبة فهو قائم يصلى عندها و يطوف ، و كان الحسين عليه السلام ايضا بمكة ، و كان اثقل خلق الله على ابن الزبير ، لانه عرف أن اهل الحجاز لا يبايعونه ما دام الحسين في البلد ، و قد اخبر الامام عليه السلام في بعض كلماته عن ابن الزبير بقوله عليه السلام :

خب ضب ، يروم أمرا فلا يدركه ، ينصب حبالة الدين لاصطياد الدنيا ، و هو مصلوب قريش .

و الصنف الرابع : « و منهم من اقعده عن طلب الملك ضؤلة نفسه » لأن الانسان انما يرقى الى المعالي و السمو بقوة نفسه ، فاذا كانت النفس حقيرة ضعيفة دنيئة فلا طريق لها الى الملك بسبب الحقارة و الضعف ، « و انقطاع سببه » من

[233]

الفقر و عدم الاسباب المعدّة للرئاسة و لهذا اتخذ لنفسه طريق الخدعة و ذلك « فقصرته الحال على حاله » اي وقف على حاله إذ لم يبلغ الى ما اراد ، و اما الحيلة التي احتالها انه « تحلي باسم القناعة و تزين بلباس اهل

الزهادة » و عرف نفسه بانه زاهد لا يرغب الى الدنيا و ما فيها ، و انه يقنع بالقليل بما في يده من المال ، و الحال انه كاذب في دعواه « و ليس من ذلك في مراح و لا مغدى » فليس هو من اهل القناعة و لا الزهادة ، فلا يومه كيوم الزهاد في الصوم ، و لا ليله كليالي العباد في الصلاة و العبادة .

الى هنا كان الكلام في تقسيم اهل الدنيا و اوصافهم ، ثم ذكر عليه السلام أوصاف اهل الآخرة و اهل الحق و اليقين فقال عليه السلام : « و بقي رجال » غير الأصناف الأربعة و هم موصوفون بهذه الأوصاف : « غضّ ابصارهم ذكر المرجع » اي ذكر القيامة غض ابصارهم عن الحرام ، و التوجه الى غير الله تعالى ،

« و اراق دموعهم خوف المحشر » كما هو شأن أولياء الله الذين يرون انفسهم بين الياس و الرجاء ، ثم قسم عليه السلام انواعهم فقال : « فهم بين شريد ناد » اي مطرود خائف ، او متوحش من الخلق « و خائف مقموع » و هو المغلوب على حقه « و ساكت مكعوم » كانه مشدود الفم لا يستطيع الكلام خوفا و تقيّة ،

« و داع مخلص و ثكلان موجع » داع يدعو الله تعالى الفرج و النجاة ، او ثكلان مصاب ، قد اوجعت المصيبة قلبه ، اما مصيبة الدين ، او سائر مصائب الحياة ،

« قد اخملتهم التقية » و الخوف من الظالمين « و شملتهم الذلة » بسبب التقية ،

« فهم في بحر اجاج » لأن ماء البحر مالح حاد لا يصلح للشرب و حال هؤلاء « افواههم ضامزة » اي شفاههم ساكتة ساكنة من الكلام ، و قلوبهم قرحة مما

[234]

يشاهدون من المنكرات مع عدم التمكن من الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر « قد وعظوا حتى ملوا » لعدم توجه الناس الى كلامهم ، و عدم تاثير المواعظ فيهم « و قهروا حتى ذلوا » لأن الذي يعارض أهواء الناس لا يرى إلا القهر و الذلة ،

كما هو شأن عباد الله الصالحين « و قتلوا حتى قلوا » كما صنعه معاوية و زياد بن ابيه ،

و ابن زياد و غيرهم من الذين قتلوا أولياء الله المقربين ، و اسملوا عيونهم ، و عذّبوهم بأنواع التعذيب .

فاذا كانت الدنيا هكذا « فلتكن الدنيا في اعينكم أصغر من حثالة القرظ » و هي ما يسقط من الدباغ « و من قراضة الجلم » و هي ما يسقط من أوبار الابل عند قرضها و قطعها ، « و اتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم من بعدكم » فان الانسان اذا نظر و فكر في احوال السابقين الذي اختطفتهم المنية ، فصاروا رهائن التراب ، و تركوا ما جمعوا حصلت له حالة إنزجار و توبه ، و ينبغي الاتعاظ قبل الموت ، فاذا مات اتعظ به من بعده ،

« و ارفضوها ذميمة فانها قد رفضت من كان أشغف بها منكم » اذا كانت الدنيا هكذا فينبغي تركها ، لأنها مذمومة عند الأنبياء و الأوصياء و اهل البصائر و اولى الألباب ، و لأنها قد رفضت و تركت الذين كانوا اشد لها حبا ، و اجمع منها مالا ، فان الانسان اذا لم يترك الدنيا تركته الدنيا ،

هذه الخطبة من اولها إلى آخرها في المواعظ و النصائح و التزهيد و الترغيب ،

و خاصة بيان حال جماعة من عباد الله الذين أخملتهم التقية و الخوف ، فلا يشك عاقل في إسناد الكلام الى أمير المؤمنين ، و لا يناسب هذا الكلام مع معاوية السفاك الغدار الكافر ، الذي حارب وصي رسول الله ، و اراق دماء مائة و ستين الفا من الناس لأجل الرئاسة و حب الدنيا و هنا انتهت الخطبة الثانية و الثلاثون

[235]

الخطبة الثالثة و الثلاثون

المتن

و من خطبة له عليه السلام عند خروجه لقتال اهل البصرة قال ابن عباس : دخلت على أمير المؤمنين عليه السّلام بذي قار ،

و هو يخصف نعله ، فقال لي : ما قيمة هذه النعل ؟ قلت : لا قيمة لها . فقال : و الله لهي أحبّ إليّ من إمرتكم ، إلا أنّ أقيم حقا أو أدفع باطلا ، ثم خرج فخطب الناس فقال :

إنّ الله بعث محمّدا صلّى الله عليه و آله و ليس أحد من العرب يقرأ كتابا ، و لا يدّعي نبوّة ، فساق الناس حتّى بوّأهم محلّتهم ،

و بلّغهم مناجاتهم ، فاستقامت قناتهم ، و اطمأنّت صفاتهم ، أما و الله إن كنت لفي ساقتها ، حتّى ولّت (تولّت خ ل) بحذافيرها ، ما ضعفت (عجزت خ ل) و لا جببت ، و إنّ مسيري هذا لمثلها ، فلأنقبنّ (فلأبقرنّ خ ل) الباطل حتّى يخرج الحقّ من جنبه (خاصرته خ ل) ما لي و لقريش ؟ و الله لقد قاتلتهم مفتونين ، و إنّي لصاحبهم بالأمس ،

كما أنا صاحبهم اليوم ، و الله ما تنقم منّا قريش إلاّ أنّ الله إختارنا عليهم ، فأدخلناهم في خيرنا (خيرنا خ ل) فكانوا كما قال الأوّل :

[236]

أدمت لعمري شربك المخض صابحا

و أكلك بالزبد المقشرة البجرا

و نحن وهبناك العلاء و لم تكن

عليّا ، و حطنا حولك الجرد و السّمرا

اللغة

خصف النعل : خرزها ، بوأه أسكنه . منجاتهم ، موضع نجاتهم . القناة : الرمح . الصفاة : الحجر الذي لا ينبت عليه . و الساقة : جمع سائق ، و الحذافير : الجوانب و النقب : الثقب . و لأبقرن : لاشقن ، و المخض : اللبن ، و صابحا : ما حلبت بالغداة ، و المقشرة : التمرة التي اخرج نواها ، و قد ذكرنا في الجزء الأول أن ذا قار في طريق البصرة قريب الناصرية و يقال لها : المقيّرة .

في الثامن من البحار عن ارشاد المفيد : لما توجه أمير المؤمنين عليه السلام إلى البصره نزل الربذة ، فلقيه بها آخر الحاج ، فاجتمعوا ليسمعوا من كلامه و هو في خبائه ، قال ابن عباس رضي الله عنه : فأتيته فوجدته يخصف نعلا فقلت له : نحن إلى أن تصلح أمرنا أحوج منا الى ما تصنع . فلم يكلمني حتى فرغ من نعله ، ثم ضمها الى صاحبتها ، و قال لي : قوّمهما . قلت : ليس لهما قيمة . قال على ذاك .

قلت : كسر درهم . قال : و الله لهما أحب الي من أمركم هذا ، الا ان اقيم حدا أو ادفع باطلا .

قلت : ان الحاج اجتمعوا ليسمعوا من كلامك ، فتأذن لي ان اتكلم ؟ فان

[237]

كان حسنا كان منك ، و ان كان غير ذلك كان مني قال : لا ، انا اتكلم ،

ثم وضع يده على صدري و كان شثن الكف فآلمني ، ثم قام ، فأخذت بثوبه و قلت . نشدتك الله و الرحم قال : لا تنشدني ثم خرج ،

فاجتمعوا عليه ، فحمد الله و اثنى عليه ثم قال اما بعد : فان الله بعث محمدا . . . الخ .

« ان الله بعث محمدا و ليس احد من العرب يقرأ كتابا و لا يدعى نبوة » أشار عليه السلام الى انحطاط الناس في الجاهلية من حيث الثقافة و العلم ، او من حيث عدم وجود كتاب سماوي صحيح عندهم ، لان الصحف السماوية التي كانت عندهم قد لعبت بها يد التحريف و التغيير ، من الحذف و الالحاق ،

و الاسقاط و الابدال ،

و لما بعث النبي صلى الله عليه و آله « فساق الناس حتى بوّأهم محلتهم » اي ضرب الناس بسيفه على الاسلام حتى أسكنهم منزلهم و مرتبتهم .

« و بلغهم منجاتهم » اي اوصلهم الى محل نجاتهم التي لا خوف عليهم ، اما النجاة من العدو و هم الذين كانوا يعيشون بالغزو و النهب و السلب ، او النجاة من عذاب الآخرة .

« فاستقامت قناتهم » اي اطمأنت احوالهم بعد التزلزل و الاضطراب و العوج « و اطمأنت صفاتهم » اشارة و استعارة و كناية عن حصول القوة و الغلبة لهم و قيام دولتهم ، و استقرار احوالهم بعد تلك الذلة و المسكنة و الخوف الشامل للجميع .

هذه الاضطرابات ما هدأت ، و تلك الفتن ما خمدت ، و الاسلام ما قام و لا استقام إلا بسيف أمير المؤمنين عليه السلام ، و جهاده المتواصل في سبيل الله ،

[238]

و دفاعه عن رسول الله صلى الله عليه و آله ، في جبهات القتال ، كما يشهد بذلك التاريخ ، و مواطن الامام أمير المؤمنين عليه السلام و مواقفه في الاسلام ، و في سبيل الحماية على رسول الله كثيرة جدا . و منها يوم أحد ، لما انهزم المنافقون او المخالفون من اصحاب النبي ، و استشهد الصفوة و الزبدة من اصحابه المخلصين ،

و بقي النبي وحده و قد جرح بجروح ، و عصابات العدو تهجم و تحمل ، و كتائب جيش الكفر تريد إغتيال النبي ، و ليس معه احد الا الامام علي ، و حينما تقصده كتائب الجيش للقضاء على القيادة الاسلامية العليا ، كان النبي يتوجه الى ذلك المحامي المجاهد الصادق علي بن ابي طالب قائلا : يا علي اكشفها عني ، فيحمل عليهم حيدرة ، و بيده قاصم الاعمار فيحصد الرئوس ، ثم تهجم كتيبة اخرى من الشجعان و رؤساء الجيش على رسول الله صلى الله

عليه و آله فيقول الرسول : يا علي فرّقها عني فلم يزل علي يخوض في غمرات الموت ، و يسقى الأرض من دماء الكفر حتى إنكسر سيفه فرجع إلى النبي بسيفه المكسور معتذرا مشتكيا ، فاعطاه النبي ذا الفقار فقاتل و جاهد و حمل و هجم ، و قطع و حصد حتى هتف أمين الوحي هتافا سمعه كل ذي سمع بقوله : لا فتى إلا علي ، لا سيف الا ذو الفقار .

قال عليه السلام : « أما و الله ان كنت لفي ساقتها » اي كنت اطرد و اسوق تلك الكتائب المقبلة لحرب رسول الله صلى الله عليه و آله في حروبه و غزواته « حتى ولت بحذافيرها اي انطردت و انهزمت جميعا ، و لم يبق منها شيء ، ثم اشار عليه السلام الى استقامته في الحروب و ثباته في الزلازل ، و قدرته على مقاتلة الشجعان ، و استعداده للقضاء على صناديد الشرك فقال : « ما ضعفت و لا جبنت » و لا عجزت عن الجهاد و لا انهزمت من العدو ، و لا فررت من الزحف ،

لما ذكر عليه السلام هذه الجملات كمقدمة انتقل إلى الكلام الاصلي فقال :

[239]

« و ان مسيري هذا لمثلها » اي كما كنت اجاهد و اقاتل و احارب الكفار في سبيل الله بين يدي رسول الله صلى الله عليه و آله كذلك اليوم احارب هؤلاء و اسير اليهم كما كنت احارب من كان قبلهم من غير شك و من غير ضعف و عجز و جبن ، بل بذلك القلب القوى و تلك القدرة الالهية و الشجاعة الربانية « و لأنقبن الباطل حتى يخرج الحق من جنبه » شبه عليه السلام الباطل بحيوان قد ابتلع شيئا ثمينا ،

و لا طريق الى اخراج ذلك الشيء الثمين الا بشق بطن ذلك الحيوان حتى يخرج منه الشيء الثمين ، ثم قال عليه السلام : « ما لي و لقريش » اي ما الذي يريدون مني ؟

و لما ذا يجحدون حقي ؟ ، و لما ذا غصبوا حقي بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه و آله ؟ ثم اوصي أبو بكر بالخلافة للثاني ، و جعله شورى بين ستة ، مع ترجيح جانب عبد الرحمن بن عوف ؟ و لما ذا و لما ذا ؟ ؟ و لما بايعوني لما ذا استحلوا بيعتي و نقضوها ، و هيجوا عليّ الناس ، و أثاروا الفتن ، و اتهموني بقتل عثمان ؟

« و الله لقد قاتلتهم كافرين » حينما حاربوا رسول الله صلى الله عليه و آله من قبل « و لأقاتلنهم مفتونين » الفتنة : الابتلاء و الامتحان و الاختبار ، كما ورد في الوسائل عن رسول الله صلى الله عليه و آله انه قال : يا علي ان الله تعالى قد كتب على المؤمنين الجهاد في الفتنة بعدي ، كما كتب عليهم الجهاد مع المشركين معي .

فقلت يا رسول الله : و ما الفتنة التي كتب علينا فيها الجهاد ؟ قال : فتنة قوم يشهدون أن لا اله الا الله و اني رسول الله ، و هم مخالفون لسنتي ، و طاعنون في ديني . فقلت . و على م نقاتلهم يا رسول الله ؟ و هم يشهدون ان لا اله الا الله ،

و انك رسول الله ؟ فقال : على احداثهم في دينهم ، و فراقهم لأمري و استحلال دماء عترتي .

لا شك بين الامامية ان كل من خرج على إمام زمانه كافر يجوز قتله ،

[240]

سواء كان واحدا كابن ملجم عليه لعائن الله ، او كانوا جماعة و طوائف كأصحاب الجمل و صفين و النهروان ، و لكن هناك فرق بينهم و بين سائر الكفار و المشركين كما صرح بذلك الامام أمير المؤمنين عليه السلام كما في كتاب الدعائم : ان عليا عليه السلام سئل عن الذين قاتلهم من اهل القبلة : أ كافرون هم ؟ قال عليه السلام : كفروا بالاحكام و كفروا بالنعم ، ليس كفر المشركين الذين دفعوا النبوة ، و لم يقروا بالاسلام ، و لو كانوا كذلك ما حلت لنا مناكحتهم ،

و لا ذبائحهم و لا مواريثهم .

كما و ان عليا عليه السلام عامل مع قتلى اصحاب الجمل و صفين و النهروان معاملة النبي مع قتلى الكفار و المشركين ، فانه عليه السلام ما صلى على قتلاهم و لما امر بها بل اباح موارة قتلاهم ، كما ذكرنا في الجزء الاول ، و لا شك انه عليه السلام لو كان يقر باسلامهم لما حاربهم ، كما صرح بذلك يوم ارادوا تنظيم الكتاب لتحكيم الحكمين في صفين و ستعرف تفصيله ،

ثم قال عليه السلام : « و اني لصاحبهم بالامس كما انا صاحبهم اليوم » يعني محاربة هؤلاء اليوم كمحاربة المشركين يوم امس مع رسول الله ، و شجاعتى و بصيرتي في ديني اليوم كشجاعتي و قدرتي يوم امس ، و كما جاز لي قتالهم امس كذلك اليوم .

و قد ذكر ابن ابي الحديد هذه الجملة في ذيل هذه الخطبة ، فقال : عليه السلام « و الله ما تنقم منا قريش الا ان الله اختارنا عليهم ، فأدخلناهم في خيرنا فكانوا كما قال الأول :

أدمت لعمري شربك المخض صابحا

و أكلك بالزبد المقشرة البجرا

و نحن وهبناك العلاء و لم تكن

عليا ، و حظنا حولك الجرد و السمرا

و معناها : أن الشيء الذي يحدنا قريش عليه هو ان الله تعالى إختارنا للنبوة و الخلافة و الوصاية و الوراثة و الولاية ، و اعطانا علوم الأولين و الآخرين ،

و فضلنا على جميع خلقه ، كل ذلك ببركة رسول الله صلى الله عليه و آله ، فاكتسبت قريش منا الشرف و الفضيلة ، و افتخرت على العرب بأن محمدا منها ، ثم تمثل عليه السلام بالبيتين لاحد الشعراء يخاطب خصمه مفاخرا عليه : أنك لم تشرب اللبن الذي يحلب صباحا ، و تأكل الزبد مع التمر الذي اخرج منه النوي ، و لم تكن من أهل المجد و السؤددإلا بنا ، و نحن وهبناك العلاء و الشرف و لم تكن من اهل العلى ، و حطنا حولك الفارس و الرامح كناية عن حصول الجلالة و العظمة ،

تمت الخطبة الثالثة و الثلاثون .

الخطبة الرابعة و الثلاثون

المتن

و من خطبة له عليه السلام في استنفار الناس الى اهل الشام :

أفّ لكم ، لقد سئمت عتابكم ، أ رضيتم بالحياة الدّنيا من الآخرة عوضا ؟ و بالذّلّ من العزّ خلفا إذا دعوتكم إلى جهاد عدوّكم دارت أعينكم ، كأنّكم من الموت في غمرة ، و من الذّهول

[242]

في سكرة ، يرتج عليكم حواري فتعمهون ، و كأن قلوبكم مألوسة فانتم لاتعقلون ما انتم لي بثقة سجيس الليالي و ما أنتم بركن يمال بكم ،

و لا زوافر عزّ يفتقر إليكم ، ما أنتم إلاّ كإبل ضل رعاتها ، فكلّما جمعت من جانب إنتشرت من آخر ، لبئس لعمر الله سعر نار الحرب أنتم ، تكادون و لا تكيدون ، و تنتقص أطرافكم فلا تمتعضون ،

لا ينام عنكم و أنتم في غفلة ساهون ، غلب و الله المتخاذلون ، و أيم الله إنّي لأظنّ بكم أن لو حمس الوغى و استحرّ الموت قد إنفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج الرّأس و الله إنّ امرء يمكّن عدوّه من نفسه يعرق لحمه ، و يهشم عظمه ، و يفري جلده لعظيم عجزه ،

ضعيف ما ضمّت عليه جوانح صدره ، أنت فكن ذاك إن شئت .

فأمّا أنا : فو الله دون أن أعطي ذلك ضرب بالمشرفيّة ، تطير منه فراش الهام ، و تطيح السّواعد و الأقدام ، و يفعل الله بعد ذلك ما يشاء .

أيّها النّاس : إنّ لي عليكم حقّا ، و لكم عليّ حقّ ، فأمّا حقّكم عليّ فالنّصيحة لكم ، و توفير فيئكم عليكم ، و تعليمكم

[243]

كيلا تجهلوا ، و تأديبكم كيما تعلموا .

و أمّا حقّي عليكم : فالوفاء بالبيعة ، و النّصيحة في المشهد و المغيب ، و الإجابة حين أدعوكم ، و الطّاعة حين آمركم :

اللغة

سئمت : مللت : و تعبت ، يرتج عليكم حوارى : يغلق عليكم جوابي و مخاطبتي . تعمهون : تتحيرون . مألوفة : مجنونة ، سجيس الليالي : ابدا و إلى الأبد ، و الزوافر : الانصار و العشيرة . تمتعضون : تغضبون . حمس الوغي :

اشتدت الحرب . يعرق لحمه : لم يبق من اللحم على العظم شيئا . و يهشم : يكسر و يفري : يقطع . المشرفية : سيوف منسوبة إلى بعض بلاد اليمن . و فراش الهام عظام رقيقة تلى قحف الرأس ، و كل عظم رقيق : فراشة .

المعنى

خطب الامام عليه السلام بهذه الخطبة بعد فراغه من واقعة النهروان مع الخوارج ، فحمد لله و أثنى عليه ، ثم قال : أما بعد : فان الله قد أحسن نصركم فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم من أهل الشام .

[244]

فقاموا إليه و قالوا له : يا امير المؤمنين : قد نفدت نبالنا ، وكّلت سيوفنا ،

إرجع بنا إلى مصرنا لنصلح عدّتنا ، و لعل أمير المؤمنين يزيد في عددنا مثل من هلك منا ، لنستعين به .

فأجابهم عليه السلام : يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم ، و لا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين .

فقالوا : ان البرد شديد . فقال عليه السلام : إنهم يجدون البرد كما تجدون فتلكأوا و ابوا .

فقال عليه السلام : أف لكم انها سنة جرت . ثم تلى قوله تعالى : قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبّارين ، و انا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فإنا داخلون فقام ناس منهم و اعتذروا بكثرة الجراح في الناس و طلبوا ان يرجع بهم الى الكوفة اياما ، ثم يخرج . فرجع عليه السلام بهم غير راض و انزلهم النخيله ، و امر الناس ان يلزموا معسكرهم ، و يقلوا زيارة اهلهم و ابنائهم حتى يسير بهم الى عدوهم ، فلم يقبلوا و دخلوا الكوفة ، حتى لم يبق معه من الناس الا رجال من وجوههم قليل ، و بقي المعسكر خاليا ، فلا من دخل الكوفة رجع اليه و لا من اقام معه صبر ، فلما رأى ذلك دخل الكوفة فخطب الناس ، فقال :

ايها الناس : استعدوا القتال عدو في جهادهم القربة الى الله ، و درك الوسيلة عنده ، قوم حيارى عن الحق لا ينصرونه ، موزعين بالجور و الظلم لا يعدلون به و جفاة عن الكتاب ، نكب عن الدين ، يعمهون في الطغيان ، و يتسكعون في غمرة الضلال ، فاعدّوا لهم ما استطعتم من قوة و من رباط الخيل ، و توكلوا على الله ، و كفى بالله وكيلا .

فلم ينفروا فتركهم اياما ثم خطبهم فقال : « اف لكم لقد سئمت عتابكم » و تعبت و مللت من كثرة مخالفتكم و تثاقلكم عن الجهاد ، « ا رضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضا » لانكم تحبون البقاء في الحياة الدنيا عوضا عن الثواب الجزيل

[245]

و الاجر الكثير و الدرجات الرفيعة للمجاهدين و الشهداء في سبيل الله « و بالذل من العز خلفا » اي رضيتم بالذل عوض العز لان العدو يستولي على بلادكم و يجعل اعزة اهلها اذلة ، بسبي نسائكم و ذراريكم و كما فعله بسر بن ارطاة و سفيان بن عوف .

« اذا دعوتكم الى جهاد عدوكم دارت اعينكم ، كأنكم من الموت في غمرة و من الذهول في سكرة » وصف الامام عليه السلام حالهم اذا دعاهم الامام الى الجهاد ، و ما يستولي عليهم من شدة الخوف ، كالذي يعالج سكرات الموت ،

عيناه مفتوحتان شاخصتان بدون تحرك ، من الغفلة و الذهول عن كل شيء ،

كالفاقد شعوره من السكر « يرتج عليكم حواري فتعمهون » اي اذا خاطبتكم و امرتكم بالجهاد تحيرتم عن جوابي و اغلق عليكم مجاوبني و مخاطبتي ، لا تعلمون بما ذا تجيبون اذ لا جواب لكم و لا تعلمون كيف تعتذرون اذ لا عذر لكم عن القعود و التثاقل عن الجهاد ، « فكأن قلوبكم مألوسة فانتم لا تعقلون » كأن قلوبكم مجنونة لا تدرك و لا تعقل و لا تشعر ، و لا تفهمون كلامي ، و لا تعرفون ما يصلحكم ، و لا تميزون بين المحسن و القبيح ، و

الجيد و الردىء ، « ما انتم لي بثقة » و لا اعتمد عليكم « سجيس الليالي » هذه الكلمة تقال للابد ، اي لا اعتمد على مواعيدكم ابدا و الى النهاية ، و ذلك لما شاهدت منكم من الخيانة و خلف الوعد و عدم الوفاء بالعهد .

« و ما انتم بركن يمال بكم » فان الجدار اذا اشرف على السقوط اسند اليه عمود او شيء آخر يمنعه من السقوط اذا مال ، يقول عليه السلام : لستم ممن ينتفع بكم ، لدفع الخطر ، او حفظ البلاد .

[246]

و لا زوافر عز يفتقر اليكم » و اي لستم من يرجى منكم العز ، كأنصار الرجل و عشيرته الذين يعتزّ بهم ، و يفتقر اليهم ليمنعوا عنه العدو ، و يدافعوا عنه ،

و يعاضدوه و ينصروه ،

« ما انتم الا كإبل ضل رعاتها » شبه الامام عليه السلام اولئك المتقاعدين عن الجهاد بالابل او قطيعة الغنم في القفر ، و قد ضل رعاتها ، لا يعرفون الطريق ،

فبقوا حيارى واقفين ، لا يدرون ما يصنعون و من اين يذهبون و ما الابل في تلك الساعة « فكلما جمعت من جانب إنتشرت من آخر » شأن البهائم و الحيوانات أن بعضها اذا إنفصل عن القطيعة و أراد الراعي جمعه و رده الى مكانه ، انفصل القسم الآخر و انتشر الجانب الثالث ، و هذه كلها كنايات عن آرائهم المتفرقة ،

و أهوائهم المتشتة ، و عدم إجتماعهم على أمر إمامهم و اطاعته في اصلاح حالهم السياسية و الدينية و الاقتصادية .

لبئس لعمر الله سعر الحرب أنتم » الجيش هو الذي يسعر نار الحرب يوقدها ، بشجاعته و بطولته و بسالته ، و إقدامه ، فاذا كان الجيش هكذا فنعم سعر الحرب هو ، و اذا كان خائفا من العدو ، جبان القلب ، ضعيف النفس و التدبير ، سيىء الرأي ، فبئس سعر الحرب هو .

« تكادون و لا تكيدون » يمكر بكم العدو و يخدعكم و لا تمكرون به « و تنتقص اطرافكم فلا تمتعضون » يغير العدو على بلادكم بالقتل و الحرق و التدمير فلا تغضبون و لا تهتمون به و لا تأنفون لا يغيضكم ذلك « لا ينام عنكم و انتم في غفلة ساهون » اي العدو منتبه يتربص بكم الدوائر ، و ينتظر الفرصة للايقاع بكم و لكنكم غافلون ، كأن لم يكن لكم عدو .

« غلب و الله المتخاذلون » يحلف الامام عليه السلام بالله تعالى ان

[247]

المتخاذلين او هم التاركون للنصرة مغلوبون مقهورون ، ثم حلف مرة اخرى فقال : « و ايم الله اني لاظن بكم ان لو حمس الوغى و استحر الموت قد انفرجتم عن ابن ابي طالب انفراج الرأس » يقول عليه السلام بعد القسم بالله اني اظن ان الحرب اذا اشتدت ، و كثر الموت تتفرقون عن علي بن ابي طالب تفرقا لا ترجعون اليه ابدا ، و اما كلمة انفراج الرأس فهي مثل يضرب ، و في تفسيرها وجوه كثيرة و معاني مختلفة ، و خلاصة تلك الوجوه انفصال شيء بلا رجوع و لا عود كانفصال الرأس عن البدن ، و الطفل عن بطن امه ، و ما اشبه ذلك .

و الله ان امرء يمكّن عدوه من نفسه يعرق لحمه . و يهشم عظمه . و يفري جلده لعظيم عجزه . ضعيف ما ضمت عليه جوانح صدره » كأن احدا اعترض على الامام كثرة اهتمامه بالجهاد . و امره اصحابه بمحاربة العدو . مع ذلك التشجيع و التعبير و التوبيخ . و التأكيد و الترغيب فيرد عليه السلام ذلك الاعتراض على المعترض بأنه لا ينبغي ان يقعد عليه السلام عن قتال عدوه يفسح له المجال ليصنع ما يريد و يمكن العدو من نفسه . و يسلطه عليه . ليعرق لحمه اي لا يبقى على العظم من اللحم شيئا . و يكسر عظمه . و يقطع جلده . فيقول عليه السلام : ان

الذي يسلط العدو على نفسه ليصنع به ما تقدم ذكره عاجز عظيم العجز . و ضعيف القلب . و هو ما ضمت اليه اضلاع الصدر « انت فكن ذاك ان شئت » قيل : كان هذا الخطاب موّجها الى الاشعث بن قيس ذلك اللعين الذي كان كثيرا ما يعترض على الامام في اقواله و افعاله . و قيل الخطاب عام مجمل بلا تعيين للمخاطب . و كيف كان فان الامام عليه السلام يذكر ابائه عن تحمّل الضيم . و تسليط العدو على نفسه . فكأنه يخاطب اصحابه بأنه هكذا و لا يصبر على الضيم . و اما غيره فليكن كيف شاء . و لهذا قال

[248]

عليه السلام : « فاما انا فو الله دون أن اعطي ذلك ضرب بالمشرفية ، تطير منه فراش الهام و تطيح السواعد و الأقدام . و يفعل الله بعد ذلك ما يشاء » أي اما انا فلا اقعد عن العدو ، و لا امكنه من نفسي ، و دون أن اعطى ذلك ، اي الأقرب من الخضوع للعدو هو الضرب بالسيوف المشرفية اليمانية ، المعروفة بالجودة و الاحكام ، حتى تطير من ذلك الضرب الرؤس و تسقط الأيدي و الأرجل ،

و مع ذلك فالأمر لله و الحكم له ، ينصرنا أو ينصر عدونا علينا ، يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد ، حسب ما تقتضيه الحكمة الالهية و المشية الربانية ، و انما الواجب على العبد اداء الوظيفة و إسقاط التكليف ، و السعي بمقدار الجهد و أما النتيجة و الغلبة فهي تابعة لارادة الله و حكمته .

« ايها الناس : إن لي عليكم حقا » لا شك أن للامام حقوقا على رعيته ، كما و أن للرعية حق علي الامام : « و لكم علي حق » ، ثم ذكر عليه السلام حق الناس على الامام فقال : « فاما حقكم علي : فالنصيحة لكم » الحق الاول النصيحة الخلوص بخلاف الغش ،

الحق الثاني : (و توفير فيئكم عليكم أي تكثير غنائمكم و توزيعها عليكم بالعدل و السوية ، بلا ظلم و اجحاف ، و الحق الثالث : « و تعليمكم كيلا تجهلوا » و هو نشر الثقافة فيما بينكم ، و انقاذكم من ظلمات الجهل و الاميّة ، و تعليمكم الأحكام الشرعية ، و الواجبات الالهية ، من الاصول و الفروع ، و غير ذلك .

و الحق الرابع « تأديبكم كيما تعلموا » التأديب بالاداب الشرعية ، فيما يتعلق بالمنطق و المأكل و المشرب و الملبس و المسكن ، و غير ذلك من نواحي الحياة ،

و الآداب الاسلامية الواردة عن اهل البيت عليهم السلام ، في التعاليم التربوية و سائر ما يتعلق بحياة الفرد و المجتمع كثيرة جدا ، و لعلنا نتطرق اليها في المستقبل بالمناسبة

[249]

هذه حقوق أربعة للناس على إمامهم ، و للامام عليه السلام ايضا حقوق واجبة على الناس يسألون عنها يوم القيامة ، و يعاقبون عليها عند التقصير ، و عدم القيام بتلك الحقوق الواجبة ، فقال عليه السلام : « و أما حقي عليكم : فالوفاء بالبيعة » الحق الثاني : « و النصيحة في المشهد و المغيب » النصيحة لفظ حامل لمعاني كثيرة ، فالنصيحة لله : الاعتقاد في وحدانيّته ، و إخلاص النية في عبادته ، و نصرة الحق فيه . و النصيحة لكتاب الله : هو التصديق به ، و العمل بما فيه ، و الذب عنه دون تأويل الجاهلين ، و تحريف الغالين ، و إنتحال المبطلين ، و النصيحة لرسول الله : التصديق بنبوّته و رسالته ، و الانقياد لما أمر به و نهى عنه .

فالنصيحة للامام هو الدفاع عنه بحضرته و غيبته ، و نصرته باليد و اللسان و المال و الحياة ، عند الحاجة إلى ذلك . « و الاجابة حين ادعوكم » تجب إجابة الامام فورا ، سواء كانت الدعوة إلى حرب او الهدنة او الهجوم او الانسحاب ، او غير ذلك ، و لا يجوز إظهار الرأي عند الامام المعصوم من الخطأ ، بعد ان ثبت ان الامام لا يفعل

شيئا من تلقاء نفسه ، و لا مجال للسهو و الخطأ في فعله عند ذلك وجب الاسراع إلى امتثال امره . و إطاعته بلا تريث و تأمل « و الطاعة حين آمركم » .

لا شك ان هذا الخطاب الذي صدر من الامام عليه السلام إلى اصحابه انما كان لأجل إصلاح انفسهم ، و إعلاء كلمة الاسلام ، و رفع راية العدل بين عباد الله في الارض الفسيحة ، لا جلبا للمال او حفظا للجاه و الرئاسة ، او تشفّيا للصدر من الانتقام من العدو ، كما هو واضح ظاهر من كلامه عليه السلام ، و سيرته المتلألأة و كلما كان هناك من تضجّر و تنفّر و تأسّف فهو من غلبة الباطل و إستيلائه على الحق ، و تسلط الفساق و الفجار المناصب الدينية الخطيرة ، و شيوع الظلم و الفساد

[250]

في العباد و البلاد .

أضف إلى ذلك تثاقل أصحاب الامام عن الجهاد مع اولئك الظلمة و تقاعدهم عن محاربة معاوية دفعا للغارات التي شنها معاوية على بلاد امير المؤمنين و أهلك الحرث و النسل ، و هدم و دمّر و احرق ، بعد ان قتل و ذبح و نهب و سلب .

فهل يصبر علي عليه السلام على تلك الفجائع و المصائب ؟ فلا بد من العلاج للوقاية من تلك المؤامرات و الغارات ، و احسن العلاج ان يسير الامام بأصحابه الى صفين لانقاذ العباد من مخالب الشيطان الغوي ، و لهذا جعل عليه السلام يثير الحمية و الغيره و الشجاعة و يهيج فيهم روح النشاط بالذم و التعيير و التوبيخ بعد بيان المواعظ و النصائح ، و الدعوة بالحكمة و الموعظة الحسنة .

فان افاد الكلام و ثار القوم فنعم المطلوب ، و الا فقد أدى الامام عليه السلام ما عليه ، و اتم الحجة على العباد ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

و ضمنا فقد استفاد البشر كيفية التكلم مع الناس ، فان قائد الجيش لو خطب بهذه الكلمات المهيجة المثيرة في المعسكر ، و مزج كلامه بالتعيير و التوبيخ و تحقير العدو و تعظيم جنده و عدته ، لأوجد فيهم روحا جبارة لا ترضي و لا تسكن الا بعد القضاء على العدو ، و انفجرت فيهم قوة القيام بما يجب و بما تصدره القيادة العليا للجيش ،

و خاصة اذا كانت الثورة عليها صبغة الدين و الايمان ، و كان الجهاد عن عقيدة و ايمان ، لا عن جبر و اكراه ، و خوف و اضطرار ، فان الجندي اذا علم انه ان قتل العدو فهو في الجنة و العدو في النار ، و ان قتله العدو فكذلك ، ان حصلت هذه العقيدة لكل مقاتل في ساحة الوغى فمصيره الظفر ، و حليفه النجاح ، و غايته الغلبة و النصرة ، فالمصيبة كل المصيبة اذا انقلبت عقيدة الجندي المقاتل ، بأن اعتقد

[251]

أنه لا يجوز قتال خصمه ، فان كان قاتلا او مقتولا فهو في النار ، فالجيش الذي يعتقد هكذا يؤول أمره إلى الحرمان و الخسران و الانكسار و الاضمحلال فلو طالعنا خطب الامام عليه السلام في هذه المناسبات لوجدناها تشير الى هذه النكات ، بعناية و رعاية ، و لنا في المستقبل ايضا مجال لبيان بعض الخطط الحربية التي خطّطها الامام عليه السلام في ميادين حروبه .

و الله ولي التوفيق

الخطبة الخامسة و الثلاثون

المتن

و من خطبة له عليه السلام :

الحمد لله و إن أتى الدّهر بالخطب الفادح ، و الحدث الجليل ،

و أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، ليس معه إله غيره ، و أنّ محمّدا عبده و رسوله صلّى الله عليه و آله .

أمّا بعد : فإنّ معصية الناصح الشفيق العالم المجرّب تورث

[252]

الحسرة ، و تعقب النّدامة ، و قد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمري ، و نخلت لكم مخزون رأيي لو كان يطاع لقصير أمر فأبيتم عليّ إباء المخالفين الجفاة ، و المنابذين العصاة ، حتّى ارتاب الناصح بنصحه ، و ضنّ الزّند بقدحه ، فكنت أنا و إيّاكم كما قال أخو هوازن :

أمرتكم أمري بمنعرج اللّوى

فلم يستبينوا النصح حتى ضحى الغد

اللغة

الخطب : الأمر . و الفادح : الذي يثقل و يتعب و الحدث هنا الأمر ،

المنكر الذي ليس بمعتاد و لا معروف من السنة ، و نخل الشيء : صفاه نبذ الكلام طرحه و ضن الزند بقدحه : نجل العود الذي يقدح به النار فلا يخرج النار ،

و منعرج اللوى : اسم موضع

المعنى

لقد كثر منا الكلام فيما سبق حول غزوة صفين و تحكيم الحكمين إشارة

[253]

اجمالية لا تفصيلا ، و قد وصلنا الآن الى الموضع المناسب لبيان تلك القضايا ، و لكن هل في استطاعتنا أن نذكر جميع وقائع صفين ؟ تلك الغزوة الكبيرة التي امتدت ثمانية عشر شهرا ، بما هناك من صراع و صراخ ، و قتل و ذبح ، و كرّ و فر ،

مع العلم أن بيان هذه الوقائع يحتاج الى كتاب خاص ، خارج عن اسلوب كتابنا ، و لكنا نذكر بعض تلك القضايا التاريخية في ضمن كلمات الامام عليه السلام هنا و في المستقبل كي لا يخلو كتابنا عن تلك الفوائد المنتجة من مطالعة التاريخ هذه الخطبة خطب بها الامام عليه السلام بعد تحكيم الحكمين ، و تحكيم الحكمين من جملة المؤمرات التي تشكلت و تأسست ضد الاسلام و المسلمين .

و الآن كيف ندخل في البحث ، و نطلع على الموضوع ؟ و الكلام طويل و القضايا مفصّلة ، و لا بد من ذكر مقدمة موجزة مختصرة لتمهيد الكلام . و نؤجل التفصيل في المستقبل إنشاء الله :

لما انتهت غزوة الجمل في البصرة و وضعت الحرب أوزارها ، و رجع الامام عليه السلام إلى الكوفة مظفرا منصورا ، بعث كتابا إلى معاوية يأمره بأخذ البيعة له عليه السلام ، و بعث الكتاب بيد رجل إلى الشام ، جمع معاوية بعض مشاهير الشام و امرهم بإشاعة هذا الخبر و إذاعته فيما بين الناس : « ان عليا قتل عثمان و معاوية ولي دم عثمان ، فيجب الطلب بثار عثمان و دمه » و أعانه على هذه الفكرة عمرو بن العاص كما تقدم ذكره ، فبايعه عمرو على الشروط المتقدمة و بايع أهل الشام معاوية ايضا .

فنهض معاوية بجيشه الجرار و أقبل الى صفين ، و هو اسم ارض كبيرة واسعة ،

مستعدا للقتال و نهض الامام أمير المؤمنين عليه السلام بعسكره الى ذلك المكان و بعد ايام من وصوله استعرت نار الحرب فيما بين الفريقين و جرت أنهار من الدماء ،

[254]

و تكوّنت أتلال و جبال من الأجساد المضرجة من القتلى من الفريقين و آخر ليلة من تلك الليالي و الايام هي ليلة الهرير ، التي هي من الليالي العظام المشهورة التي يضرب بها المثل ،

فقم يا صاحبي و نرى ما هناك من اخبار :

خرج رجل من معسكر الامام عليه السلام و هو مسلّح لا يرى منه الا عيناه ، لأنه مدجج في الحديد و بيده رمح فجعل يضرب رؤوس اهل العراق برمحه و يقول : سووا صفوفكم ، رحمكم الله ، حتى اذا إعتدل الصفوف و الرايات إستقبلهم بوجهه ، و ولى أهل الشام ظهره ، ثم حمد الله و اثنى عليه ، ثم قال : الحمد لله الذي جعل فينا ابن عم نبيه ، اقدمهم هجرة ، و اولهم إسلاما ، سيف من سيوف الله صبّه الله على اعدائه . فانظروا اذا حمي الوطيس ، و ثار القتام و تكسر المران و جالت الخيل بالأبطال فلا اسمع الا غمغمة او همهمة ، فاتبعوني و كونوا على أثري .

ثم حمل على اهل الشام فكسر فيهم رمحه ثم رجع ، فهل عرفته ؟ هذا هو الاشتر و خرج رجل من اهل الشام فنادى بين الصفين : يا ابا الحسن يا علي : ابرز الي فخرج اليه علي عليه السلام حتى وصل اليه بين الصفين فقال الرجل : ان لك يا علي : لقدما في الاسلام و الهجرة ، فهل لك في امر اعرضه عليك يكون فيه حقن هذه الدماء ، و

تأخر هذه الحرب حتى ترى رأيك ؟ فقال عليه السلام : و ما هو ؟ قال : ترجع الى عراقك فنخلي بينك و بين العراق ، و نرجع نحن الى شامنا فتخلي بيننا و بين الشام .

فقال عليه السلام . قد عرفت ما عرضت ، ان هذه لنصيحة و شفقة ، و لقد

[255]

اهمّني هذا الأمر و أسهرني ، و ضربت أنفه و عينه ، فلم أجد إلا القتال أو الكفر بما أنزل الله على محمد ، إن الله تعالى ذكره لم يرض من أوليائه أن يعصى في الأرض و هم سكوت مذعنون ، لا يأمرون بمعروف ، و لا ينهون عن منكر ، فوجدت القتال أهون عليّ من معالجة الاغلال في جهنم فرجع الرجل و هو يسترجع ، و زحف الناس بعضهم إلى بعض ، فارتموا بالنبل و الحجارة حتى فنيت ، ثم تطاعنوا بالرماح حتى تكسرت و اندقت ، ثم مشى القوم بعضهم إلى بعض بالسيف و عمد الحديد ، فلم يسمع السامعون إلا وقع الحديد بعضه على بعض ، و هو أشد هولا في صدور الرجال من الصواعق ،

و انكسفت الشمس بالنقع ، و ضلت الألوية و الرايات ،

و أخذ الأشتر يسير فيما بين الميمنة و الميسرة ، فيأمر كل قبيلة أو كتيبة من القرّاء بالاقدام على التي بينها ، فاجتلدوا بالسيوف و عمد الحديد من صلاة الغد من اليوم المذكور إلى نصف الليل : لم يصلوا لله صلاة ، فلم يزل الأشتر يفعل ذلك حتى اصبح الصباح ، و المعركة خلف ظهره ، و افترقوا عن سبعين الف قتيل في ذلك اليوم و تلك الليلة ، و هي ليلة الهرير المشهورة .

و كان الأشتر في ميمنة الناس ، و ابن عباس في الميسرة ، و أمير المؤمنين عليه السلام في القلب ، و الناس يقتتلون ، ثم استمر القتال من نصف الليل الثاني إلى ارتفاع الضحى ، و الاشتر يقول لأصحابه و هو يزحف بهم نحو أهل الشام ازحفوا قيد رمحي هذا رمحة : فاذا فعلوا ذلك قال : ازحفوا قاب هذا القوس .

فعلوا ذلك . حتى مل اكثر الناس من الاقدام ، فلما رأى الاشتراك ذلك قال :

اعيذكم بالله ان ترضعوا الغنم سائر اليوم ، ثم دعا بفرسه ، و ركز رايته ، و سار بين الكتائب و افواج الجيوش ، و هو يقول : أ لا من يشتري نفسه لله ؟ و يقاتل

[256]

مع الأشتر حتى يظهر أو يلحق بالله ؟

فلا يزال الرجل من الناس يخرج اليه فيقاتل معه ، و الاشتر يخاطبهم قائلا :

شدّوا فداءا لكم عمي و خالي شدة ترضون بها الله ، و تعزّون بها الدين ، اذا انا حملت فاحملوا . ثم نزل و ضرب وجه دابته ، و قال لصاحب رايته : اقدم . فتقدم بها ، ثم شد على القوم و شد معه أصحابه فضرب اهل الشام بهم الى معسكرهم ،

فقاتلوا عند المعسكر قتالا شديدا ، و قتل صاحب رايتهم ، و أخذ امير المؤمنين عليه السلام لما رأى الظفر قد جاء من قبله يمده بالرجال و العساكر ، و قام عليه السلام فيهم خطيبا ، فحمد الله و اثنى عليه و قال :

ايها الناس : قد بلغ بكم الأمر و بعدوكم ما قد رايتم ، و لم يبق منهم الا آخر نفس و ان الامور اذا اقبلت اعتبرت آخرها بأولها ، و قد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغنا منهم ما بلغنا ، و انا عاد عليهم بالغداة احاكمهم الى الله .

فبلغ ذلك معاوية ، فدعا معاوية عمر بن العاص و قال : يا عمرو : انما هي الليلة حتى يغدو علي علينا بالفصل فما ترى ؟ فقال ابن العاص إن : رجالك لا يقومون لرجاله و لست مثله ، هو يقاتلك على امر و انت تقاتله

على غيره ، و انت تريد البقاء و هو يريد الفناء ، و اهل العراق يخافون منك ان ظفرت بهم ، و اهل الشام لا يخافون عليا ان ظفر بهم ، و لكن الق الى القوم امرا ان قبلوه اختلفوا و ان ردوه اختلفوا : ادعهم الى كتاب الله حكما فيما بينك و بينهم ، فانك بالغ به حاجتك في القوم ، و اني لم ازل أؤخر هذا الامر لوقت حاجتك اليه .

فعرف معاوية ذلك . قال : صدقت يوم الهرير لا يقل عن ليلة الهرير خوفا و جزعا ، و اضطرابا في النفوس ، حتى روي عن ربيعة بن لقيط قال : شهدنا صفين ، فمطرت السماء علينا دما عبيطا .

[257]

و في حديث : كانوا ليأخذون الدم بالصحاف و الاواني فتمتلىء من الدم ، و فزع اهل الشام ، و هموا ان يتفرقوا فقام عمرو بن العاص فيهم خطيبا فقال : ايها الناس :

انما هذه آية من آيات الله ، فاصلح امرؤ بينه و بين الله ثم لا عليه ان ينتطح هذان الجبلان و اما أمير المؤمنين عليه السلام فلما رأى كثرة القتلى من الفريقين قال لأصحابه : حتى متى نخلي بين هذين الحيين ؟ قد فنينا و انتم وقوف تنظرون ؟ اما تخافون مقت الله ؟ ثم استقبل و رفع يديه الى السماء و نادى :

يا الله يا رحمن يا رحيم ، يا واحد يا احد يا صمد يا الله ، يا اله محمد ، اللهم اليك نقلت الاقدام و افضت القلوب ، و رفعت الأيدي ، و مدت الاعناق ،

و شخصت الابصار ، و طلبت الحوائج ، اللهم انا نشكو اليك غيبة نبينا و كثرة عدونا ، و تشتت اهوائنا ، ربنا افتتح بيننا و بين قومنا بالحق ، و انت خير الفاتحين سيروا على بركة الله .

ثم نادى : لا إله إلا الله و الله اكبر ، كلمة التقوى . قال جابر بن نمير . فلا و الذي بعث محمدا بالحق نبيا ما سمعنا رئيس قوم منذ خلق الله السموات و الأرض اصاب بيده في يوم واحد ما اصاب : إنه قتل فيما ذكره العادون زيادة على خمسمائة من اعلام العرب ، يخرج بسيفه منحنيا ، فيقول : معذرة إلى الله و إليكم من هذا لقد هممت أن افلقه السيف و لكن يحجزني عنه اني سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله يقول : لا سيف إلا ذو الفقار ، و لا فتى إلا علي . و انا اقاتل به دونه صلى الله عليه و آله ، قال جابر : فكنا نأخذه فنقوّمه ، ثم يتناوله من أيدينا فيقتحم به في عرض الصف .

يوم الهرير من أيام الصيف شديد الحر ، و قد عزم الفريقان على انهاء الحرب

[258]

فقال أصحاب معاوية : و الله لا نبرح العرصة حتى نموت أو يفتح لنا . و قال أصحاب علي عليه السلام : لا نبرح العرصة حتى نموت او يفتح لنا .

و لهذا تبادروا إلى القتال ، ذلك القتال الذي لم يشهد التاريخ نظيره من استمرار القتال و كثرة القتلى حتى مرت اربع صلوات ما يسجد فيهن لله إلا تكبيرا ،

و نادت المشيخة في تلك الغمرات . يا معشر العرب . الله الله في الحرمات من النساء و البنات .

أمر معاوية اصحابه في جوف الليل أن يربطوا المصاحف على رؤوس الرماح .

فثار أهل الشام في سواد الليل ينادون عن قول معاوية و امره : يا اهل العراق :

من لذرارينا إن قتلتمونا ؟ و من لذراريكم إذا قتلناكم ؟ الله الله في البقية . و اصبحوا .

اصبح الصباح ، و اذا أشباه الرايات أمام اهل الشام ، و اذا هي المصاحف ،

و قد ربطوا مصحف المسجد الاعظم على ثلاثة رماح جميعا يحمله عشرة رجال ،

و سائر المصاحف على رؤوس الرماح و اطراف القناة ، و جميعها خمسمائة مصحف .

و هم ينادون : يا معشر العرب : الله الله في النساء و في البنات و الأبناء من الروم و الاتراك و اهل فارس غدا اذا فنيتم ، الله الله في دينكم ، هذا كتاب الله بيننا و بينكم .

فقال علي عليه السلام . اللهم انك تعلم انهم ما الكتاب يريدون ، فاحكم بيننا و بينهم انك انت الحكم الحق المبين ،

فاختلف أصحاب علي عليه السلام في الرأي ، فطائفة قالت القتال . و طائفة قالت المحاكمة الى الكتاب ، و لا يحل لنا الحرب و قد دعينا الى حكم الكتاب .

فعند ذلك بطلت الحرب ، و وضعت أوزارها ، و اقبل ابو الأعور السلمي

[259]

على برذون ابيض ، و قد وضع المصحف على رأسه ينادي : يا أهل العراق . كتاب الله بيننا و بينكم .

و جاء عدي بن حاتم الطائي فقال : يا أمير المؤمنين . انه لم يصب منا عصبه الا و قد اصيب منهم مثلها ، و كل مقروح ، و لكنا أمثل بقية منهم ، و قد جذع القوم ، و ليس بعد الجزع الا ما تحب النصر و الفتح فناجزهم و قام الاشتر و قال : يا أمير المؤمنين . إن معاوية لا خلف له من رجاله ،

و لكن بحمد الله لك الخلف ، و لو كان له مثل رجالك لم يكن له مثل صبرك فاقرع الحديد بالحديد ، و استعن بالله الحميد .

ثم قام عمرو بن الحمق و قال . يا أمير المؤمنين . إنا و الله ما أجبناك و لا نصرناك على الباطل ، و لا أجبناك الا لله ، و لا طلبنا الا الحق ، و لو دعانا غيرك الى ما دعوتنا اليه لاستشرى فيه اللجاج ، و طالت فيه النجوى ، و قد بلغ الحق مقطعه ، و ليس لنا معك رأي .

فقام الاشعث بن قيس مغضبا و قال : يا امير المؤمنين . انا لك اليوم على ما كنا عليه امس ، و ليس آخر امرنا كأوله ، و ما من القوم احد احنى على اهل العراق و لا اوتر لاهل الشام مني ، فأجب القوم الى كتاب الله عز و جل ، فانك أحق به منهم ، و قد احب الناس البقاء و كرهوا القتال .

فقال علي عليه السلام : هذا امر ينظر فيه ، فنادى الناس من كل جانب .

المودعة . فقال علي عليه السلام . ايها الناس . اني احق من اجاب الى كتاب الله ،

و لكن معاوية و عمرو بن العاص و ابن ابي معيط و ابن ابي سرح و ابن مسلمة ليسوا بأصحاب دين و لا قرآن ، اني أعرف بهم منكم ، صحبتهم صغارا و رجالا ،

فكانوا شر صغار و شر رجال ،

[260]

ويحكم انها كلمة حق يراد بها الباطل ، انهم ما رفعوها انهم يعرفونها و يعملون بها و لكنها الخديعة و الوهن و المكيدة ، أعيروني سواعدكم و جماجمكم ساعة واحدة ، فقد بلغ الحق مقطعه ، و لم يبق الا ان يقطع دابر الذين ظلموا .

فجائه من اصحابه زهاء عشرين ألفا مقنعين في الحديد ، شاكي سيوفهم على عواتقهم ، و قد اسودت جباههم من كثرة السجود ، يتقدمهم مسعر بن فذكي و زيد بن حصين ، و عصابة من القرّآء الذين صاروا خوارج من بعد ، فنادوه باسمه لا بإمرة المؤمنين . يا علي اجب القوم الى كتاب الله اذ دعيت اليه ، و الا قتلناك كما قتلنا ابن عفان ، فو الله لنفعلنها إن لم تجبهم فقال عليه السلام . ويحكم انا اول من دعا الى كتاب الله و اول من اجاب اليه ، و ليس يحل

لي و لا يسعني في ديني ان أدعى الى كتاب الله فلا أقبله ، اني انما اقاتلهم ليدنوا بحكم القرآن ، فانهم قد عصوا الله فيما امرهم و نقضوا عهده ،

و نبذوا كتابه ، و لكني قد أعلمتكم انهم قد كادوكم ، و أنهم ليس العمل بالقرآن يريدون قد ذكرنا ان عليا عليه السلام امر اصحابه بالهجوم على اهل الشام في صبيحة ليلة الهرير حين وصل الاشتر الى معسكر معاوية ، و قربوا من خيمته ،

فدعا معاوية بفرس لينهزم ، و في تلك الساعة كان الاشتر في جبهة القتال ، و قد استعرت نار الحرب بأشد ما تكون ، فالرؤوس تسقط ، و الايدي تطير ،

و الدماء تسيل و تجرى ،

في ذلك الوقت كان الاشتر يقرب الى الفتح ساعة بعد ساعة و الى التقدم لحظة بعد لحظة ، و جيش معاوية في الانسحاب و الانقراض و التقهقر ، فلو امهلوا الاشتر ساعة واحدة لانتهت الحرب ، و تم الامر لامير المؤمنين عليه السلام ،

[261]

و لكن رجال السوء افسدوا الأمر على أمير المؤمنين ، و أرادوا الاضرار و الخسائر على الاسلام و المسلمين ، تلك الماسي و المصائب و المجازر التي عمّت العباد و البلاد و ستعرف بعضها في المستقبل ، و قد عرفت فيما سبق بعض الجنايات و الجرائم التي ارتكبها عملاء معاوية بأمر منه .

في ذلك الوقت الذي قارب الاشتر الفتح و الظفر ، و قرب و لما يقع صاح المجادلون المنافقون : يا أمير المؤمنين : ابعث الى الاشتر ليأتيك ، فبعث الامام عليه السلام يزيد بن هاني الى الاشتر : ان ائتني .

الاشتر : إئته ، فقال له : ليس هذه بالساعة التي ينبغي لك ان تزيلني عن موقفي ، اني قد رجوت الفتح فلا تعجلني .

رجع الرسول الى الامام فأخبره ، و شد الاشتر في القتال ، فارتفعت الاصوات و علت الرهج من قبل الأشتر ، و ظهرت دلائل الفتح و النصر لاهل العراق ، و دلائل الخذلان و الادبار على اهل الشام ، و لكن لما رجع الرسول الى الامام و ابلغه مقالة الاشتر ، قال :

القوم : لأمير المؤمنين و الله ما نراك أمرته الا القتال الامام : أ رأيتموني شاورت رسولي اليه ؟ ا ليس انما كلمته ، على رؤوسكم علانية و انتم تسمعون ؟

القوم : ابعث اليه فليأتينك ، و الا فو الله اعتزلناك الامام : ويحك يا يزيد : قل له : اقبل الى فان الفتنة قد وقعت .

الاشتر : أ برفع هذه المصاحف ؟

يزيد : نعم .

الاشتر : و الله لقد ظننت انها حين رفعت ستوقع خلافا و فرقة ، انها مشورة ابن النابغة ، ويحك يا يزيد : ا لا ترى ما يلقون ؟ ، ا لا ترى الى ما يصنع الله لنا ا ينبغي ان ندع هذا و ننصرف عنه ؟

[262]

يزيد : ا تحب انك ظفرت ههنا و ان أمير المؤمنين بمكانه الذي هو فيه يفرج عنه ، و يسلم الى عدوه ؟

الاشتر : سبحانه الله ، لا و الله ، لا احب ذلك .

يزيد : فانهم قد قالوا له و حلفوا عليه : لترسلن الى الاشتر فليأتينك ، او لنقتلك بأسيافنا كما قتلنا عثمان ، او لنسلمنك الى عدوك .

اقبل الاشتر و قد وصل اليهم ، فصاح الاشتر : يا اهل الذل و الوهن : ا حين علوتم القوم و ظنوا أنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف يدعونكم الى ما فيها ، و قد و الله تركوا ما امر الله به فيها ،

و تركوا سنة من انزلت عليه ، فلا تجيبوهم ، امهلوني فواقا ، فاني قد احسست بالفتح .

القوم : لا نمهلك .

الاشتر : فامهلوني عدوة الفرس ، فاني قد طمعت في النصر .

القوم : اذن ندخل معك في خطيئتك الاشتر : فحدثوني عنكم ، و قد قتل اماثلكم ، و بقي اراذلكم : متى كنتم محقين ؟ ا حين كنتم تقتلون اهل الشام فانتم الآن حين امسكتم عن قتالهم مبطلون ؟ ام انتم الآن في امساككم عن القتال محقون ؟ فقتلاكم اذن الذين لا تنكرون فضلهم و انهم خير منكم في النار القوم : دعنا منك يا أشتر ، قاتلناهم في الله ، و ندع قتالهم في الله ، انا لسنا نطيعك فاجتنبنا .

الاشتر : خدعتم و الله فانخدعتم ، و دعيتم الى وضع الحرب فأجبتم ، يا اصحاب الجباه اسود كنا نظن صلاتكم زهادة في الدنيا ، و شوقا الى لقاء الله ، فلا أرى فراركم الا الى الدنيا من الموت الا فقبحا يا اشباه النيب الجلاّلة ، ما انتم برائين بعدها عزا ابدا ، فابعدوا كما بعد القوم الظالمون .

فسبّوه و سبهم ، و ضربوا بسياطهم وجه دابته ، و ضرب بسوطه وجوه دوابهم و صاح بهم علي ، فكفوا .

الاشتر : يا أمير المؤمنين إحمل الصف على الصف تصرع القوم .

القوم تصايحوا إن امير المؤمنين قبل الحكومة و رضي بحكم القرآن .

الاشتر : ان كان أمير المؤمنين قد قبل و رضي فقد رضيت بما رضي به أمير المؤمنين أقبل الناس يقولون : قد رضي أمير المؤمنين ، قد قبل أمير المؤمنين .

و الامام ساكت لا يتكلم مطرق برأسه الى الارض ، ثم قام فسكت القوم كلهم فقال الامام : أيها الناس : إن امري لم يزل معكم على ما احب إلى ان أخذت منكم الحرب ، و قد و الله أخذت منكم و تركت ، و أخذت من عدوكم و لم تترك و إنها فيهم انكي و أنهك ، ا لا اني كنت أمس أمير المؤمنين ، فاصبحت اليوم مأمورا و كنت ناهيا فاصبحت منهيا ، و قد أحببتم البقاء ، و ليس لي ان احملكم على ما تكرهون . ثم قعد عليه السلام .

فتكلم رؤساء القبائل ، فكل ما يراه و يهواه ، إما من الحرب أو من السلم فقال :

كردوس بن هاني البكري : أيها الناس : إنا و الله ما تولينا معاوية منذ

تبرأنا منه ، و لا تبرأنا من علي منذ توليناه ، و ان قتلانا لشهداء ، و ان أحيائنا لأبرار ، و إن عليا لعلى بينة من ربه ، و ما احدث الا الانصاف ، فمن سلم له نجا ، و من خالفه هلك .

شفيق بن ثور البكري : ايها الناس : إنا دعونا أهل الشام الى كتاب الله فردّوه علينا ، فقاتلناهم عليه ، و إنهم قد دعونا اليوم اليه ، فان رددناه عليهم حل لهم منا ما حل لنا منهم ، و لسنا نخاف ان يحيف الله علينا و رسوله ، ا الا ان عليا ليس بالراجع الناكس ، و لا الشاك الواقف ، و هو اليوم على ما كان عليه امس ،

و قد أكلتنا هذه الحروب ، و لا نرى البقاء الا في الموادعة .

إنتشرت هذه الكلمة المحاكمة فيما بين الجيش العلوي ، و جعلوا يدخلون على الامام و يطلبون منه الموافقة على المحاكمة الى القرآن ، و أقبل الأشعث بن قيس رأس الفتنة ، و منشأ الفساد و الخلاف ، و موجد التفرقة ، و دخل على الامام عليه السلام و قال .

الأشعث . يا أمير المؤمنين . ما أرى الناس الا و قد رضوا ، و سرهم ان يجيبوا القوم الى ما دعوهم اليه من حكم القرآن ، فان شئت أتيت انا معاوية فسألته ما يريد ، و نظرت ما الذي يسأل ؟

الامام : إئته ان شئت . فجاء الأشعث حتى دخل على معاوية ، و قال :

الاشعث : يا معاوية : لأي شيء رفعتم هذه المصاحف ؟

معاوية : لنرجع نحن الى ما امر الله به فيها ، فابعثوا رجلا منكم ترضون به ، و نبعث رجلا منا و نأخذ عليهما ان يعملا بما في كتاب الله ، و لا يعدوانه ، ثم نتبع ما اتفقا عليه .

الأشعث : هذا هو الحق . و انصرف إلى الامام فأخبره ، فبعث علي عليه السلام

[265]

قرّاء اهل العراق و بعث معاوية قراء اهل الشام ، فاجتمعوا بين الصفين ،

و معهم المصحف ، فنظروا فيه و تدارسوا و اجتمعوا على ان يحيوا ما أحيي القرآن و يميتوا ما أمات القرآن ، و رجع كل فريق إلى اصحابه ، فقال أهل الشام : إنا قد رضينا عمرو بن العاص ، و قال الاشعث و القراء الذين صاروا خوارج بعد ذلك و قد رضينا نحن و اخترنا ابا موسى الأشعري .

الامام : اني لا ارضى بأبي موسى ، و لا أرى ان اوليه .

الاشعث و جماعة : انا لا نرضى الا به ، فانه قد كان حذرنا ما وقعنا فيه .

الامام : فانه ليس لي برضى ، و قد فارقني ، و خذل الناس عني ، و هرب مني ، آمنته بعد اشهر ، و لكن هذا إبن عباس اوليه ذلك .

القوم : و الله ما نبالي اكنت او ابن عباس ، و لا نريد الا رجلا و هو منك و من معاوية على حد سواء ، ليس إلى واحد منكما ادنى من الآخر .

الامام : فاني اجعل الاشتر .

الاشعث : و هل سعر الارض علينا الا الاشتر ؟ و هل نحن الا في حكم الاشتر ؟

الامام : و ما حكمه ؟

الاشعث : ان يضرب بعضنا بعضا بالسيف حتى يكون ما اردت و اراد الامام : ان معاوية لم يكن ليضع لهذا الامر احدا هو اوثق برأيه و نظره من عمرو بن العاص ، و انه لا يصلح للقرشي الا مثله ، فعليكم بعبد الله بن عباس فارموه به ، فان عمروا لا يعقد عقدة الا حلها عبد الله ، و لا يحل عقدة ، الا عقدها و لا يبرم امرا الا نقضه ، و لا ينقض امرا الا أبرمه .

الاشعث : لا و الله ، لا يحكم فينا مضريان حتى تقوم الساعة ، و لكن اجعل رجلا من اهل اليمن اذا جعلوا رجلا من مضر .

[266]

الامام : اني اخاف ان يخدع يمينكم ، فان عمرا ليس من الله في شيء اذا كان له في امر هوى الاشعث : لان يحكما بعض ما نكره واحدهما من اهل اليمن احب الينا من ان يكون بعض ما نحب في حكمهما و هما مضريان

الامام : قد ابيتم الا ابا موسى ؟

القوم : نعم .

الامام : فاصنعوا ما شئتم .

و كان عليهم السلام يصفق بيديه و يقول : يا عجبا اعصي و يطاع معاوية ؟ فبعثوا الى ابي موسى و هو بأرض الشام فأتاه غلام له و قال : ان الناس قد اصطلحوا . فقال : الحمد لله . قال : و قد جعلوك حكما . فقال : انا لله و انا اليه راجعون .

جاء ابو موسى حتى دخل معسكر الامام عليه السلام ، و جاء الاشتر الى أمير المؤمنين و قال : يا امير المؤمنين : الزني بعمرو بن العاص ، فو الذي لا اله غيره لئن ملأت عيني منه لاقتلنه . و جاء الأحنف بن قيس الى الامام و قال :

يا امير المؤمنين : انك قد رميت بحجر الارض ، و من حارب الله و رسوله و انف الاسلام ، و اني قد عجنت هذا الرجل ابا موسى الأشعري و حلبت أشطره فوجدته كليل الشفرة قريب القعر ، و انه لا يصلح لهؤلاء القوم الا رجل يدنو منهم حتى يكون في اكفهم ، و يتباعد منهم حتى يكون بمنزلة النجم منهم ، فان شئت ان تجعلني حكما فاجعلني ، و ان شئت ان تجعلني ثانيا او ثالثا ، فان عمرا لا يعقد عقدة الا حللتها ، و لا يحل عقدة الا عقدت لك اشد منها .

فعرض الامام عليه السلام ذلك على الناس فأبوه ، و قالوا : لا يكون

[267]

الا ابا موسى .

بعت أيمن بن خزيم الاسدي بهذه الأبيات ، و كان معتزلا لمعاوية ، و كان رجلا عابدا مجتهدا :

لو كان للقوم رأي يعصمون به
من الضلال رموكم بابن عباس

لله درّ أبيه أيما رجل
ما مثله لفصال الخطب من ناس

لكن رموكم بشيخ من ذوي يمن
لا يهتدي ضرب اخماس لأسداس

ان يخل عمرو به يقذفه في لجج
يهوى به النجم ينشأ بين أتياس

ابلغ لديك عليا غير عاتبة
قول امري لا يرى بالحق من بأس

ما الاشعري بمأمون ابا حسن
فاعلم هديت و ليس العجز كالراس

فاصدم بصاحبك الادنى زعيمهم

ان ابن عمك عباس هو الآسي .

فلما بلغ الناس هذا الشعر طارت اهواء قوم من الشيعة الى ابن عباس ، و أبت القرّاء الا أبا موسى ، و تم القرار على تعيين الحكمين : الاشعري و ابن العاص ،

و ارادوا كتابة الكتاب ، كتاب الموداعة ، و كان عبيد الله بن ابي رافع كاتب امير المؤمنين عليه السلام ، و كانت صورته كما يلي :

هذا ما تقاضى عليه علي أمير المؤمنين و معاوية بن ابي سفيان . . .

فقال معاوية : بئس الرجل انا قررت ان امير المؤمنين ثم قاتلته و قال عمر بن العاص : بل نكتب اسمه و اسم ابيه ، انما هو اميركم فاما اميرنا فلا .

ايها القارىء : اسمع هذا و اعلم ان عمرو بن العاص من جملة شعراء الغدير ،

و من جملة الذين بايعوا الامام عليه السلام يوم الغدير ، و سلموا عليه بأمرة المؤمنين ، و لكن . . .

[268]

أعيد الكتاب مع ابن العاص الى أمير المؤمنين عليه السلام ، فأمر الامام بمحو هذه الكلمة أمير المؤمنين عن الكتاب ، فقال الأحنف لا تمح إسم أمير المؤمنين عنك ، فاني أتخوف إن محوتها أن لا ترجع اليك أبدا ، فلا تمحها و قال الأشعث : امح هذا الأسم نزحه الله 1 فقال الأمام : عليه السلام : ان هذا اليوم كيوم الحديبية ، حين كتب الكتاب عن رسول الله صلى الله عليه و آله : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله و سهيل بن عمرو . . .

فقال سهيل : لو أعلم انك رسول الله لم أقاتلك و لم أخالفك ، اني اذن لظالم لكان منعتك أن تطوف ببيت الله الحرام و أنت رسوله ، و لكن اكتب : من محمد بن عبد الله ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه و آله : يا علي اني لرسول الله ،

و انا محمد بن عبد الله ، و لن يمحو عني الرسالة كتابي لهم .

إن ذلك الكتاب انا كتبته بيننا و بين المشركين ، و اليوم أكتبه الى أبنائهم كما كان رسول الله كتبه الى آبائهم شبها و مثلا .

فقال عمرو بن العاص : سبحان الله . أ تشبّهنا بالكفار و نحن مسلمون ؟ فقال الأمام عليه السلام : يا ابن النابغة : و متى لم تكن للكافرين وليا و للمسلمين عدوا ؟

و لما أراد تنظيم الكتاب سألوا الامام عليه السلام : أ تقرّ أنهم مسلمون مؤمنون ؟

فقال الامام : ما أقر لمعاوية و لا لأصحابه انهم مؤمنون و لامسلمون ، و لكن يكتب معاوية ما شاء ، و يقرّ بما شاء لنفسه و لأصحابه ، و يسمي نفسه بما شاء و اصحابه .

----

(1) انظر الى وقاحة الأشعث و خبث ضميره و سوء لسانه

[269]

فكتبوا الكتاب و هذه صورته على رواية الامام الباقر عليه السلام :

هذا ما تقاضى عليه علي بن ابي طالب و معاوية بن ابي سفيان ،

قاضى علي بن ابي طالب على اهل العراق و من كان معه من شيعته من المؤمنين و المسلمين ، و قاضي معاوية بن ابي سفيان على اهل الشام و من كان معه من شيعته من المؤمنين و المسلمين :

أننا ننزل عند حكم الله تعالى و كتابه ، و لا يجمع بيننا إلا إياه ، و ان كتاب الله سبحانه بيننا من فاتحته الى خاتمته ، نحيي ما أحياه القرآن ، و نميت ما امات القرآن ، فان وجد الحكمان ان ذلك في كتاب الله إتباعه ، و ان لم يجداه أخذا بالسنة العادلة غير المفرّقة ، و الحكمان : عبد الله بن قيس الاشعري و عمرو بن العاص ، و قد اخذ الحكمان من علي و معاوية و من الجندين انهما أمينان على انفسهما و أموالهما و اهلهما ، و الامة لهما انصار ،

و على الذي يقضيان عليه و على المؤمنين و المسلمين من الطائفتين عهد الله ان يعملوا بما يقضيان عليه مما وافق الكتاب و السنة ، و أن الأمن و الموادعة ، و وضع السلاح متفق عليه بين الطائفتين ، الى ان يقع الحكم ، و على كل واحد من الحكمين عهد الله ليحكم بين الامة بالحق لا بالهوى ، و اجل الموادعة سنة كاملة ، فإن احب الحكمان ان يعجلا الحكم عجلاه ، و ان توفي أحدهما فلأمير شيعته ان يختار مكانه رجلا لا يألو الحق و العدل ، و ان توفي احد الاميرين كان نصب غيره الى اصحابه ممن يرضون امره و يحمدون طريقته .

اللهم : انا نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة ، و اراد فيها إلحادا و ظلما .

الى هنا انتهت صررة الكتاب بناء على الرواية المتقدمة ، و كان في اعلى الكتاب

خاتم امير المؤمنين عليه السلام ، و في أسفله خاتم معاوية .

و قد رويت صورة الكتاب على غير هذا النهج مع زيادة يسيرة ، و لما كتبت هذه الصحيفة ، و شهد الشهود عليها دعي الاشتر ليشهد مع الشهود فقال الاشتر :

لا صحبتني يميني و لا نفعتني بعدها الشمال إن كتب لي في هذه الصحيفة اسم على صلح او موادعة ، ا و لست على بينة من امري و يقين من ضلالة عدوي ؟ أ و لستم قد رأيتم الظفر إن لم تجمعوا على الخور ؟

فقال الأشعث : ما رأيت ظفرا و لا خورا ، هلم فاشهد على نفسك ، و اقرر بما كتبت في هذه الصحيفة ، فانه لا رغبة لك عن الناس .

فقال الاشتر : بلى و الله إن لي رغبة عنك في الدنيا و في الآخرة للاخرة ، و لقد سفك الله بسيفي هذا دماء رجال ما أنت عندي بخير منهم و لا أحرم دما ،

لكني رضيت بما يرضي به أمير المؤمنين ، و دخلت فيما دخل فيه ، و خرجت مما خرج منه ، فانه لا يدخل إلا في الهدى و الصواب .

و لما تم الكتاب و شهدت فيه الشهود و خرج الأشعث و معه ناس بنسخة الكتاب يقرأها على الناس ، و يعرضها عليهم فمرّ بالكتاب على صفوف من اهل الشام و هم على رايتهم ، فاسمعهم إياه فرضوا به ، ثم مرّ على صفوف أهل العراق و هم على راياتهم فأسمعهم إياه فرضوا به ، حتى مر برايات عنزة ، و كان مع أمير المؤمنين عليه السلام من عنزة بصفين أربعة الاف مجفف ، فلما مر بهم الأشعث يقرأ عليهم الكتاب ، قال فتيان منهم : لا حكم إلى لله .

ثم حملا على اهل الشام بسيوفهما ، فقاتلا حتى قتلا على باب رواق معاوية .

و من تلك الساعة ظهرت الفتنة و التفرقة ، و تكوّنت الخوارج ، إذ خرج رجل يقال له : عروة بن اذينة . فقال : ا تحكمون الرجال في حكم الله ؟ لا حكم إلا لله فاين

قتلانا يا اشعث ؟ ثم شد بسيفه ليضرب به الأشعث فأخطأه ، و ضرب عجز دابته ضربة خفيفة ، فصاح به الناس : ان امسك يدك . فكف و رجع الاشعث إلى قومه ثم انطلق إلى امير المؤمنين عليه السلام و قال : يا امير المؤمنين : إني قد عرضت الحكومة على صفوف أهل الشام و اهل العراق فقالوا جميعا : رضينا .

حتى مررت برايات بني راسب و نبذ من الناس سواهم فقالوا : لا نرضى ،

لا حكم إلا لله ، فمل بأهل العراق و اهل الشام عليهم حتى نقتلهم فقال الامام عليه السلام : هل هي غير راية او رايتين او نبذ من الناس ؟ قال الاشعث : لا . قال الامام : فدعهم . و اذا بجماهير من اصحابه قد اقبلوا من كل جهة و من كل ناحية ، و هم ينادون لا : حكم إلا لله ، الحكم لله يا علي لا لك ، لا نرضى بأن يحكم الرجال في دين الله ، إن الله قد أمضى حكمه في معاوية و اصحابه ان يقتلوا ، او يدخلوا تحت حكمنا عليهم ، و قد كنا زللنا و اخطأنا حين رضينا بالحكمين ، و قد بان لنا زللنا و خطؤنا ، فرجعنا إلى الله ربنا و تبنا ، فارجع أنت يا علي كما رجعنا ، و تب إلى الله كما تبنا ، و إلا برئنا منك قال الامام : ويحكم ابعد الرضا و الميثاق و العهد نرجع ا ليس الله تعالى قد قال : اوفوا بالعقود ؟ و قال : اوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، و لا تنقضوا الايمان بعد توكيدها ، و قد جعلتم الله عليكم كفيلا .

فأبى عليه السلام ان يرجع ، و امتنعت الخوارج إلا تضليل التحكيم و الطعن فيه ، فبرئت من علي عليه السلام ، و برىء علي عليه السلام منهم .

و قام محمد بن جريش : و قال : يا امير المؤمنين : اما الى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل ؟ فو الله اني اخاف ان يورث ذلا . فقال عليه السلام : ابعد ان كتبناه ننقضه ؟ ان هذا لا يحل .

[272]

و جاءت قبيلة همدان بسكون الميم كأنها ركن حصين ، فيهم سعيد بن قيس و غيره ، فقال سعيد : ها انا ذا و قومي لا نرد امرك ، فقل ما شئت نعمله .

فقال عليه السلام : ا ما لو كان هذا قبل سطر الصحيفة لازلتهم عن عسكرهم ،

او تنفرد سالفتي ، و لكن انصرفوا راشدين .

و قال قوم : يا امير المؤمنين : ان الاشتر لم يرض بما في الصحيفة ، و لا يرى الا قتال القوم . فقال عليه السلام : بلى ان الاشتر ليرضى اذا رضيت ، و قد رضيت و رضيتم ، و لا يصلح الرجوع بعد الرضا ، و لا التبديل بعد الاقرار ،

الا ان يعصى الله او يتعدى ما في كتابه ، و اما الذي ذكرتم من تركه امري و ما انا عليه فليس من اولئك و لا اعرفه على ذلك ، و ليت فيكم مثله اثنين . بل ليت فيكم مثله واحدا يري في عدوي مثل رأيه ، اذن لخفت مؤونتكم عليّ و رجوت ان يستقيم لي بعض اودكم .

فلما تم القرار على تحكيم الحكمين ، و انتخبوا أبا موسى الاشعري الحمار ان يكون حكما على كره من الامام عليه السلام جاء ابن عباس اليه و عنده وجوه الناس و اشرافهم ، فقال ابن عباس : يا ابا موسى . ان الناس لم يرضوا بك ، و لم يجتمعوا عليك لفضل لا تشارك فيه و ما اكثر اشباهك من المهاجرين و الانصار ،

و المتقدمين قبلك ، و لكن أهل العراق ابوا الا ان يكون الحكم يمانيا ، و رأوا أن معظم أهل الشام يمان ، و ايم الله ، اني لاظن ذلك شرا لك و لنا ، فانه قد ضمّ اليك داهية العرب ، و ليس في معاوية خلة يستحق بها الخلافة ، فان تقذف بحقك على باطلة تدرك حاجتك منه ، و ان يطمع باطلة في حقك يدرك حاجته منك ،

و اعلم يا ابا موسى . ان معاوية طليق الاسلام ، و ان اباه رأس الاحزاب ،

و انه يدعي الخلافة لا من مشورة و لا بيعة ، فان زعم لك ان عمر و عثمان إستعملاه فلقد صدق ، استعمله و هو الوالي عليه بمنزلة الطبيب يحميه ما يشتهي ، و يوجره ما يكره ، ثم استعمله عثمان برأي عمر ، ما اكثر من استعملا ممن لم يدع الخلافة و اعلم ان لعمرو مع كل شيء يسرّك خبأ يسؤك ، و مهما نسيت فلا تنس ان عليا بايعه القوم الذين بايعوا ابا بكر و عمر و عثمان ، و ليس فيه خصلة تباعده من الخلافة ، انها بيعة هدى ، و انه لم يقاتل الا العاصين و الناكثين .

فقال ابو موسى : رحمك الله ، و لله ما لي امام غير علي ، و اني لواقف عند ما رأي ، و ان حق الله احب الي من رضا معاوية و اهل الشام ، و اما انت و انا الا بالله .

و تكلّم معه جماعة آخرون يحذرونه عن عمرو ، و مكايده و خدعه ، و أبو موسى يجيبهم بجواب تطمئن قلوبهم به و لكن . . .

و من جملة الذين اختبروا الاشعري و اطلعوا على مكنون ضميره هو الاحنف ابن قيس كان الاحنف آخر من ودع ابا موسى الاشعري يوم وصوله بدومة الجندل و لما ارادوا الافتراق اخذ الاحنف بيد الاشعري ثم قال له : يا ابا موسى .

اعرف خطب هذا الامر ، و اعلم ان له ما بعده ، و انك ان اضعف العراق فلا عراق ، اتق الله فانها تجمع لك دنياك و آخرتك و اذا لقيت غدا عمرا ابن العاص فلا تبدأه بالسلام فانها و ان كانت سنة الا انه ليس من اهلها ، و لا تعطه يدك فانها امانة ، و اياك ان يقعدك على صدر الفراش فانها خدعة و لا تلقه الا وحده ،

و احذر ان يكلمك في بيت فيه مخدع تخبأ لك فيه الرجال و الشهود .

ثم اراد الاحنف ان يختبر ما في نفس الاشعري لأمير المؤمنين عليه السلام

فقال له : فان لم يستقم لك عمرو على الرضى بعلي فليختر اهل العراق من قريش الشام من شاؤوا او فليختر اهل الشام من قريش العراق من شاؤوا .

فقال الاشعري : قد سمعت ما قلت . (و لم ينكر الاشعري ما ذكره الاحنف من ازالة الخلافة من علي عليه السلام (فرجع الاحنف الى الامام و قال : اخرج ابو موسى و الله زبدة سقائه في اول مخضة ، لا ارانا الا بعثنا رجلا لا ينكر خلعك : فقال علي عليه السلام : الله غالب على امره .

كانت الحرب من يوم شروعها الى صبيحة ليلة الهرير مائة و عشرة ايام ،

و كان عدد القتلى من اهل الشام تسعين الفا ، و من اهل العراق عشرين الفا ،

و المجموع مائة و عشرة الآف من الناس [1] و قيل اكثر من ذلك ، و لا تسأل عن الجرحى و عن الارامل و الايتام . كل ذلك بسبب معاوية ، اذ لو كان معاوية يبايع لأمير المؤمنين عليه السلام كما بايعه المهاجرون و الانصار ، و سائر اصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله لما كانت هذه المجازر ، و ما كانت انهار الدماء تجري لاجل الطلب بدم عثمان فلو كان عثمان نبيا مرسلا ، و كان من اولي العزم هل كان ينبغي ان تراق هذه الدماء و تزهق تلك النفوس لاجل الطلب بدمه ، فهناك وقعة الجمل و كثرة الضحايا فيها ، و بلغ عددهم خمسة و عشرين الفا سوى الايدي و الارجل التي قطعت لاجل الطلب بدم عثمان ، و هذه واقعة صفين كذلك ، و منها تكونت وقعة النهروان و قتل فيها في يوم واحد اربعة الاف رجل ، و قتل بسر بن ارطاة ثلاثين الفا في غارته لاجل الطلب بدم

عثمان ، فالمجموع مائة و تسعة و ستون الف قتيل طيلة اربع سنوات و اشهر ، اضف الى ذلك الغارات التي شنّها عملاء معاوية على

----

(1) مروج الذهب للمسعودي

بلاد المسلمين و كثرة القتلى كما تقدم .

احفظ هذا الرقم و اذكر كلام الامام أمير المؤمنين عليه السلام و وصيته لولديه الحسن و الحسين عليهما السلام و سائر اولاده في ليلة وفاته : « لا ألفينكم يا بني عبد المطلب تخوضون دماء المسلمين ، تقولون : قتل أمير المؤمنين ، ا لا .

لا يقتلن بي الا قاتلي ، انظروا ان انا مت من ضربته هذه فاضربوه ضربة بضربة ،

و لا يمثل بالرجل ، فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله يقول . اياكم و المثلة و لو بالكلب العقور » رجعنا الى كلامنا :

لما طاف الاشعث بذلك الكتاب و قرأه على الناس ، و ظهر فيهم اختلاف الكلمة ، و تباغضوا جميعا ، و اقبل بعضهم يتبرأ من بعض يتبرأ الأخ من اخيه ،

و الابن من ابيه ، و تضاربوا بالمقارع و نعال السيوف ، و تسابوا ، و لام كل فريق منهم الآخر في رأيه ، لهذا ارتحل الامام عليه السلام من صفين الى الكوفة ،

و فرّق عساكره ، فلحق كل جندي منهم ببلده ، و رجع معاوية الى الشام ،

و الناس ينتظرون قرار الحكمين : نتيجة تلك القضية .

دومة الجندل : حصن عادي بين المدينة و الشام ، يقرب من تبوك ، و هي أقرب الى الشام ، و هي الفصل و الحد بين الشام و العراق .

كان التقاء الحكمين في دومة الجندل ، توجه الاشعري الى دومة الجندل و معه ابن عباس ، و شريح بن هاني في اربعمائة رجل ، و سار عمرو بن العاص و معه شر شرحبيل بن السمط في اربعمائة ، و أوصاه معاوية بوصاياه ليزيده خدعة على خدعة ،

و مكرا على حيلة و لكن ابن العاص كان في غنى من تعليمات معاوية ابتدأت المحاربة في صفين من اول شهر صفر سنة سبع و ثلاثين من الهجرة ،

و كان اجتماع الحكمين في دومة الجندل في شهر رمضان سنة ثمان و ثلاثين ،

اجتمع الحكمان في المكان المعد لهم ، فلنذهب الى ذلك المكان لنسمع و نرى ما يصنع الحمار مع الشيطان

عمرو : تكلم يا ابا موسى و قل خيرا .

ابو موسى ، بل تكلم انت يا عمرو .

عمرو : ما كنت لافعل و اقدم نفسي قبلك ، و لك حقوق كلها واجبة :

لسنّك و صحبتك رسول الله ، و انت ضيف ابو موسى حمد الله و اثنى عليه و ذكر الحدث الذي حل بالاسلام ، و الخلاف الواقع بأهله ، ثم قال :

ابو موسى : هلم إلى امر يجمع الله به الألفة ، و يلم الشعث ، و يصلح ذات البين عمر : جزاك الله خيرا ، ان للكلام اولا و اخرا ، و متى تنازعنا الكلام خطبا لم نبلغ اخره حتى ننسى اوله ، فاجعل ما كان من كلام بيننا في كتاب يصير اليه امرنا ابو موسى : اكتب .

دعي عمرو بصحيفة و كاتب ، و كان الكاتب غلاما لعمرو ، و قد تقدم اليه قبل ذلك ان يبدأ بعمرو دون ابي موسى اعمالا للمكر و الحيلة و جاء الكاتب عمرو بحضرة الجماعة : اكتب ، فانك شاهد علينا ، و لا تكتب شيئا يأمرك به احدنا حتى تستأمر الآخر فيه ، فاذا امرك فاكتب ، و اذا نهاك فانته حتى يجتمع راينا ، اكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه فلان و فلان فكتب الكاتب و بدأ باسم عمرو بن العاص حسب القرار بينهما

[277]

عمرو : لا ام ا تقدمني قبله ؟ كأنك جاهل بحقه فبدأ الكاتب باسم ابي موسى الاشعري و اسمه عبد الله بن قيس ، و كتب . . .

تقاضيا على انهما يشهدان ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ، و ان محمدا عبده و رسوله ، ارسله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله و لو كره المشركون ،

ثم قال : و نشهد ان ابا بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه و آله ، و عمل بكتاب الله و سنة رسوله ، حتى قبضه الله اليه ، و قد ادى الحق الذي عليه ابو موسى : اكتب ، و كتب في عمر مثل ذلك ابو موسى : اكتب .

عمرو : و ان عثمان ولي هذا الامر بعد عمر ، على إجماع من المسلمين و شوري من اصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، و رضا منهم ، و انه كان مؤمنا ،

ابو موسى ليس هذامما قعدنا له .

عمرو : و الله لا بد من ان يكون مؤمنا او كافرا ابو موسى : كان مؤمنا .

عمرو : فمره يكتب . ابو موسى : اكتب عمرو : فظالما قتل عثمان او مظلوما ؟

ابو موسى : بل قتل مظلوما عمرو : ا فليس قد جعل الله لولي المظلوم سلطانا يطلب بدمه ؟

ابو موسى : نعم .

عمر : أ فليس لمعاوية ان يطلب قاتله حيثما كان ، حتى يقتله او يعجز ؟

ابو موسى : بلى .

عمر : للكاتب اكتب ، و أمره ابو موسى فكتب .

عمرو : فانا نقيم البيّنة ان عليا قتل عثمان

[278]

ابو موسى : هذا أمر قد حدث في الاسلام ، و انما اجتمعنا لغيره ، فهلم الي امر يصلح الله به أمر أمة محمد .

عمرو : و ما هو ؟

ابو موسى قد علمت ان اهل العراق لا يحبون معاوية ابدا ، و ان اهل الشام لا يحبون عليا ابدا ، فهلم نخلعهما جميعا ، و نستخلف عبد الله بن عمر بن الخطاب ؟

عمرو أ يفعل ذلك عبد الله بن عمر ؟

ابو موسى : نعم . اذا حمله الناس على ذلك فعل .

عمرو : هل لك في سعد بن ابي وقاص ؟

ابو موسى : لا . فعدد له عمرو جماعة و ابو موسى لا يوافق عليهم الا ابن عمر ، فأخذ عمرو الصحيفة و طواها ، و جعلها تحت قدمه بعد ان ختماها جميعا ثم قال :

عمرو : ا رأيت ان رضي اهل العراق بعبد الله بن عمرو اباه لم يقبله اهل الشام و لم يرضوا به أ تقاتل اهل الشام ؟

ابو موسى : لا .

عمرو : فان رضي اهل الشام و ابى اهل العراق ا تقاتل اهل العراق ؟

ابو موسى : لا .

عمرو : اذا رأيت الصلاح في هذا الأمر و الخير للمسلمين فقم و اخطب الناس ،

و اخلع صاحبينا معا ، و تكلم باسم هذا الرجل الذي تستخلفه .

ابو موسى : بل انت قم فاخطب ، فانت احق بذلك عمرو : ما احب ان اتقدمك و ما قولي و قولك للناس الا قول واحد ،

[279]

فقم راشدا فقام ابو موسى خطيبا في تلك الطائفتين الطائفة التي كانت معه و الطائفة التي كانت مع ابن العاص ، فحمد الله و اثنى عليه ، و صلى على نبيه صلى الله عليه و آله ثم قال :

ايها الناس : إنا قد نظرنا في أمرنا فرأينا أقرب ما يحضرنا من الأمن و الصلاح و لمّ الشعث و حقن الدماء و جمع الالفة خلعنا عليا و معاوية ، و قد خلعت عليا كما خلعت عمامتي هذه ثم اهوى إلى عمامته فخلعها و استخلفنا رجلا قد صحب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بنفسه ، و صحب ابوه النبي ، فبرز في سابقته ، و هو عبد الله بن عمر و جعل يمدح ابن عمر ، و يرغب الناس فيه ثم نزل .

فقام عمرو : فحمد الله و اثنى عليه ، و صلى على رسوله ثم قال :

ايها الناس : إن أبا موسى عبد الله بن قيس قد خلع عليا ، و أخرجه من هذا الأمر الذي يطلب ، و هو اعلم به ، أ لا : و إني خلعت عليا ، و أثبت معاوية عليّ و عليكم ، و إن أبا موسى قد كتب في الصحيفة : أن عثمان قتل مظلوما شهيدا ،

و ان لوليه سلطانا ، أن يطلب بدمه حيث كان ، و قد صحب ابوه النبي ، و جعل عمرو يمدح معاوية و يرغّب الناس فيه ، ثم قال : هو الخليفة علينا ، و له طاعتنا و بيعتنا على الطلب بدم عثمان .

ابو موسى : كذب عمرو ، لم نستخلف معاوية ، و لكنا خلعنا معاوية و عليا معا .

عمرو : بل كذب عبد الله بن قيس ، قد خلع عليا و لم اخلع معاوية .

ابو موسى : ما لك ؟ لا وفقك الله ، غدرت و فجرت ؟ انما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث .

[280]

عمرو : بل إياك يلعن الله ، كذبت و غدرت ، انما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا فضرب عمرو ابا موسى ، فسقط ابو موسى ، فلما رأى ذلك شريح بن هاني ضرب عمرا بالسوط ، فركب ابو موسى راحلته ، و توجه الى مكة ، و حلف ان لا ينظر الى وجه علي عليه السلام مدة حياته [1] .

و في تلك الايام كثرت اقوال الشعراء و اشعارهم حول هذه المأساة ، و الذم و التوبيخ للمرشحين أبا موسى الأشعري للحكم ، و تركهم ابن عباس و الاشتر و محمد بن ابي بكر و غيرهم من امراء الكلام ، و اصحاب الجدل

و الفهم و العرفان ، و لكن ما الفائدة في ذلك و قد جرى ما جرى وصلت هذه الاخبار الى الامام أمير المؤمنين عليه السلام و هو في الكوفة ،

فاغتمّ غمّا شديدا ، فقام و خطب بهذه الخطبة التي مرّ ذكرها و هي :

« الحمد لله و ان اتى الدهر بالخطب الفادح و الحدث الجليل » لقد تقدم الكلام منا فيما يتعلق بإسناد الأمور الى الدهر و الزمان ، و كذلك هنا إذ وقعت تلك النوائب العظيمة ، و هي نتيجة التحكيم ، تحكيم الحكمين القاسطين الظالمين في الحكم ، الذين خالفا كتاب الله و نبذاه وراء ظهرهما فأبو موسى كان منحرفا عن أمير المؤمنين عليه السلام كما ذكرنا في الجزء الأول من كتابنا ، و من رجال المؤامرة ضد رسول الله صلى الله عليه و آله كما شرحنا ذلك هناك ، فهو بالرغم من الوصايا التي اوصاه بها علماء الصحابة كابن عباس و الاحنف و غيرهما خلع عليا عليه السلام عن الخلافة ، و انخدع بمكائد ابن العاص فهل هو إلا حمار ؟

و أما ابن العاص ، فهو باع دينه لمعاوية و استراح من كل شيء ، فلا عجب و لا عتب ، فقد عرفت اباه ، بل آبائه الخمسة ، و عرفت أمه النجيبة العفيفة . ذات

----

(1) مروج الذهب للمسعودي

القدرة المدهشة التي كانت يركبها أربعون رجلا في يوم واحد ، فعمرو ، وليد هذه الام و ربيبها ، فالأعمال التي صدرت منه انما هي على الاصل ، و ليست ذلك منه بعجيبة ، و ما ذلك من الظالمين ببعيد ، و كل إناء بالذي فيه ينضح ، و لو كان ينجب لكان عجبا فأمير المؤمنين عليه السلام يحمد الله على السراء و الضراء ، و الشدة و الرخاء ،

و يحمده على كل حال من الاحوال كما هو شأن اولياء الله المقربين ،

و اشهد ان لا إله إلا اللهوحده لا شريك له ليس معه إله غيره و ان محمدا عبده و رسوله صلى الله عليه و اله » افتتح عليه السلام كلامه بعد الحمد على الله تعالى بالشهادتين كما هو دأبه في اكثر خطبه و كلماته في مواقفه ، ثم انتقل الى الكلام الاصلي المقصود بيانه فقال « أما بعد : فان معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة و تعقب الندامة » لا شك ان الامام عليه السلام كان انصح الناس بالناس ، و لهذا كان ينهاهم عن قبول التحكيم حبا لصلاحهم ، و شفقة بهم كيلا يفشلوا و يخجلوا ، لانه كان عالما بنتيجة التحكيم ، فانه كان قد عرف هؤلاء الانذال من ايام صغرهم ، كالأشعري الحمار و ابن العاص و معاوية و نظائرهم ، و قد جرب دينهم و مقدار ورعهم ، و لهذا كان ينهي اصحابه عن موافقة التحكيم ، و يخبرهم بأن رفع المصاحف حيلة و خديعة و مكر و تزوير ، و لكن اصحاب الجباه السود سود الله وجوههم كقلوبهم أجبروه على ذلك و عصوه و خالفوه ، فآل امرهم الى الندم و الحسرة و الخسران ،

كما قال عليه السلام . « و كنت امرتكم في هذه الحكومة امري و نخلت لكم مخزون رأيي » كما تقدم الكلام فيما مضى ، نعم اظهر الامام رأيه الصحيح المصاب « لو كان يطاع لقصير أمر » هذا مثل مشهور عند العرب يومئذ ، و ذلك ان جذيمة ملك الحيرة قتل أبا الزباء ملكه الجزيرة ، فبعثت إليه ليتزوج بها خدعة

و سألته القدوم عليها ، فأجابها الى ذلك ، و خرج في الف فارس ، و خلف باقي جنوده مع ابن اخته ، و كان له عبد اسمه . قصير بن سعد . فأشار قصير على جذيمة ان لا يتوجه اليها . فلم يقبل رأيه ، فلما قرب جذيمة من

الجزيرة استقبله جنود الزباء بالعدة و السلاح ، و لم ير منهم إكراما له ، فأشار قصير عليه بالرجوع عنها ، و قال . انها امرأة و من شأن النساء الغدر . فلم يقبل ، فلما دخل عليها غدرت به و قتلته ، فعند ذلك قال قصير . « لا يطاع لقصير امر » فصار قوله مثلا يضرب لكل ناصح عصي ، و هو مصيب في رأيه ، لأن اصحابه كما قال عليه السلام . « فأبيتم عليّ إباء المخالفين الجفاة و المنابذين العصاة » و هم المتجاهرون بالمعصية المكاشفون للخلاف ، كأنهم كانوا متعمدين على خلافه عليه السلام و كان الخلاف قبل ذلك مكمنا في صدورهم ، و لكنهم كاشفوا ما في صدورهم من المخالفة له « حتى ارتاب الناصح بنصحه » قد يتفق للانسان ان ينصح جماعة غافلين عن شيء ، و لكنهم لا يقبلون منه ، بل يقومون في وجهه بخلاف ما نصحهم حتى يشك الناصح في نصحه هل هو صواب ام لا ؟ فيظن نفسه على الباطل و هم على الحق ، و ذلك من كثرة مخالفة تلك الجماعة له ، و عدم موافقتهم له في رأيه ،

فعند ذلك يفسد رأيه ، و يضل قلبه .

و هذه الكلمة مثل يضرب لمن نصح قوما فاستغشوه و اتهموه ، فشك في نصحه .

و هذا المعنى لا يتصور في الامام أمير المؤمنين عليه الصلوة و السلام ، لانه القائل . « ما شككت في الحق مذ رأيته » و قوله . « و اني لعلى بيّنة من ربي و غير شبهة من ديني » و كلامه . « و ان معي لبصيرتي » ثم ان الامام أمير المؤمنين كان يعلم تلك القضايا و الوقائع ، اخبره بها رسول الله صلى الله عليه و آله كما مر في السابق

[283]

« و ضن الزند بقدحه » و هذا ايضا مثل يضرب لمن بخل عن إظهار آرائه للناس لعدم وجود الأهلية و القابلية فيهم ، و معنى الزند : العود الذي يقدح به النار ، و منه سمي الزناد ، و هو المقدحة و هي الحديدة او الحجر الذي توري النار بالاحتكاك و الاصطكاك ، فقد يبخل الزند عن النار ، يقول عليه السلام :

انكم افسدتم عليّ رأيي فصرت لا احب إظهار الرأي بسبب مخالفتكم امري و عصيانكم قولي ، ثم تمثل عليه السلام بقول دريد بن الصمة من هوازن :

امرتهم امري بمنعرج اللوى

فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد

و هنا انتهت الخطبة الخامسة و الثلاثون